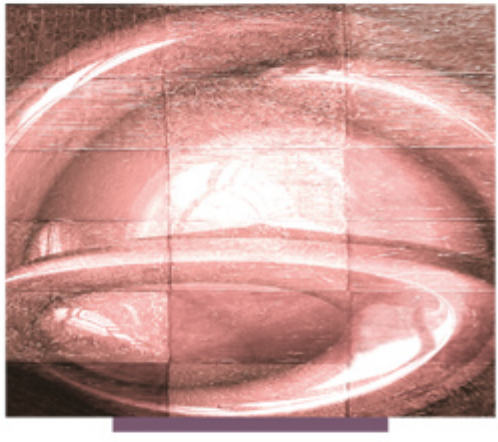


خمسون عالماً اجتماعياً أساسياً

المنظّرون المؤسّسون



تحرير: جون سكوت
ترجمة: رشا جمال

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

خمسون عالماً اجتماعياً أساسياً

المنظّرون المؤسّسون

تحرير : جون سكوت

ترجمة : رشا جمال

الناشر

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

المورد للثقافة والنشر الكتروني
www.almawred.biz

حول المشاركين

مايكل آش (Michael Asch) :

أستاذ فخري في قسم الأنثروبولوجيا في جامعة ألبرتا، وهو أيضاً أستاذ قسم الأنثروبولوجيا في جامعة فكتوريا. وقد نُشرت أبحاثه التي أجراها حول العلاقة بين شعوب الأمم الأولى وكندا في:

Kinship and the Drum Dance in a Northern Dene Community (University of Alberta Press, 1988); Home and Native Land: Aboriginal Rights and the Canadian Constitution (Methuen, 1984), and Aboriginal and Treaty Rights in Canada (editor, University of British Columbia Press, 1998).

وهو زميل للجمعية الملكية بكندا (Royal Society of Canada) .

ريتشارد بيلامي (Richard Bellamy) :

مدير كلية السياسة العامة في كلية لندن الجامعية، ومدير أكاديمي بالاتحاد الأوروبي للبحوث السياسية (European Consortium of Political Research (ECPR)) ، ومحرر مشارك في:

Critical Review of International Social and Political Philosophy.

وتتضمن أعماله الرئيسة:

Modern Italian Social Theory: Ideology and Politics from Pareto to the Present (Stanford University Press, 1987), Liberalism and Modern Society:

An Historical Argument (Pennsylvania State University Press, 1992), and Liberalism and Pluralism: Towards a Politics of Compromise (Routledge, 1999).

وهو محرر كتاب:

The Cambridge History of Twentieth Century Political Thought (with Terence Ball, Cambridge University Press, 2003).

روبن بلاكبيرن (Robin Blackburn) :

أستاذ علم الاجتماع في جامعة إسكس، وقد درس ودرَّس في مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية وجامعة أكسفورد في فترة الستينيات، كما كان عضواً في لجنة التحرير في صحيفة اليسار الجديد (New Left Review) منذ عام 1962، وكان محرراً لها من العام 1981 إلى العام 1999. وعمل محرراً استشارياً في دار فيرسو للنشر (Verso) منذ عام 1970. وقد تناولت اهتماماته البحثية تحقيقاً مقارناً حول العبودية والمؤسسات المالية المعاصرة، ومن منشوراته:

The Making of New World SlavFrom the Baroque to the Modern (Verso, 1997); The Overthrow of Colonial Slavery (Verso, 1988), and Banking on Death. Or, Investing in Life: The History and Future of Pensions (Verso, 2002).

مارتن بولمر (Martin Bulmer) :

أستاذ علم الاجتماع في جامعة سورّي، ومدير بنك المسح الاجتماعي التابع لمجلس البحث الاقتصادي والاجتماعي. كما يعمل محرراً في صحيفة الدراسات العرقية والإثنية (Ethnic and Racial Studies) التي تصدرها دار روتلدج للنشر. وتنصبّ اهتماماته الرئيسة على منهجية البحث الاجتماعي الكمّي والنوعي، وتاريخ علم الاجتماع والبحث الاجتماعي، ودراسة العرق والإثنية.

إيمون كارابين (Eamonn Carrabine) :

كبير محاضري قسم علم الاجتماع في جامعة إسكس. وتكمن اهتماماته البحثية ودراساته في مجالَي علم الجريمة والدراسات الثقافية. ومن مؤلفاته:

Crime in Modern Britain (with Pamela Cox, Maggy Lee and Nigel South, Oxford University Press, 2002); Criminology: A Sociological Introduction (with Paul Iganski, Maggy Lee, Ken Plummer and Nigel South, Routledge, 2004), and Power, Discourse and ResisA Genealogy of the Strangeways .(Prison Riot (Ashgate, 2004

ويعكف الآن على تأليف كتاب:

Crime and the Media: Interrogating Representations of Transgression in . Popular Culture

دايفد شالكرافت (David Chalcraft) :

أستاذ علم الاجتماع الكلاسيكي في جامعة ديربي، وزميل زائر في جامعة لانكستر. له العديد من المؤلفات الصادرة في مجال دراسات فيبر (Weber Studies) ،

وهو محرر كتاب

The Protestant Ethic Debate: Weber's Replies to His Critics, 1907-1910 ((with Austin Harrington, Liverpool University Press, 2001).

وهو مؤسس مشارك للصحيفة العالمية «دراسات ماكس فيبر»، ومحرر سلسلة:

(Rethinking Classical Sociology (Ashgate Press.

جيمس ج. كريس (James J. Chriss) :

حالياً هو أستاذ مساعد لعلم الاجتماع في جامعة كليفلاند. وتشمل أهم مجالات اهتماماته: النظرية الاجتماعية، والجريمة والجنوح، وعلم اجتماع الشرطة وعلم الاجتماع الطبي. وسيُنشر كتابه القادم Social Control: History and Current Controversies من قِبل مطبعة بوليتي (Polity Press) .

ماري جو ديغان (Mary Jo Deegan) :

أستاذة علم الاجتماع ودراسات المرأة في جامعة نبراسكا، لينكولن. وهي مؤلفة:

Jane Addams and the Men of the Chicago School, 1892-1918 (Transaction, 1988); Race, Hull-House, and the University of Chicago: A New Conscience against Ancient Evils (Praeger, 2002), and The New Woman of Color: The ColWritings of Fannie Barrier Williams, 1893-1918 (editor, Northern Illinois University Press, 2002).

كما حررت الطبعة المكتشفة حديثاً لـ «مقالات في علم الاجتماع» لجورج هربرت ميد:

Essays in Sociology (Transaction, 2001).

كارل فيغليو (Karl Figlio) :

مدير وأستاذ في مركز الدراسات التحليلية النفسية في جامعة إسكس، وممارس التحليل النفسي. مهتم بالارتباط بين التفكير العيادي الذي يستند إلى التحليل النفسي وأساليب تفكير علم الاجتماع وأساليبه. ومن مؤلفاته:

Psychoanalysis, Science and Masculinity (Whurr Publishers, 2000).

مارسيل فورنييه (Marcel Fournier) :

أستاذ علم الاجتماع في جامعة مونتريال، كندا، وحاصل على زمالة كيلام (Killam Fellow-ship) ورئاسة كرسي باثي في جامعة برينستون في الفترة بين 2001 - 2003. وهو مؤلف كل من:

CultiDifferences (with D. White, University of Chicago Press, 1992); Quebec Society (Prentice Hall, 1996); Emile Durkheim, Lettres à Marcel Mauss (Presses universitaires de France, 1998), and Marcel Mauss: A Biography (Princeton University Press, 2005).

روبرت هانكوك (Robert L. A. Hancock) :

طالب دكتوراه في قسم التاريخ في جامعة فيكتوريا، كولومبيا البريطانية، وهو متخصص في دراسة الشعوب الأصلية.

جوهانس جيلبريك (Johs. Hjellbrekke) :

أستاذ مشارك في قسم السوسيولوجيا في جامعة بيرغن في النرويج، من مؤلفاته الأخيرة:

Innfi Korrespondanseanalyse (Fagbokforl, 1999); Educational Mobility Trajectories and Mobility Barriers in the Norwegian Social Space (with Olav Korsnes, International Journal of Contemporary Sociology , 2004); Social Capital Structures in Norwegian Elites (with Olav Korsnes, Tidsskrift for samfunnsforskning , 2005), and The Norwegian Field of Power (with others, European Societies , in press).

سوزان هوكر درايسديل (Susan Hoecker-Drysdale) :

أستاذة فخرية لمادة السوسيولوجيا، جامعة كونكورديا، مونتريال، وأستاذة زائرة متقاعدة في السوسيولوجيا، جامعة أيوا، وقد كانت زميلة زائرة في معهد البحوث التاريخية، جامعة لندن، وزميلة زائرة في كلية الدراسات المتقدمة، جامعة لندن، ومن منشوراتها:

Harriet Martineau: First Woman Sociologist (Berg, 1992); Harriet Martineau: Theoretical and Methodological Perspectives (co-edited with Michael R. Hill, Routledge, 2001), and Harriet Martineau: Studies of America 1831-68 (8 vols., Thoemmes, 2004).

وفي عام 2005 نالت جائزة الإنجاز العلمي المتميز في السوسيولوجيا من الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع.

جون هوفمان (John Hoffman) :

أستاذ فخري في النظرية السياسية. ألّف العديد من الأعمال، منها:

The Gramscian Challenge: Coercion and Consent in Marxist Political Theory (Blackwell, 1984); Beyond The State (Polity Press, 1995); Gender and Sovereignty: Feminism, the State and International Relations (Macmillan, 2001), and Citizenship Beyond the State (Sage, 2004).

ألان هاو (Alan How) :

أستاذ مخضرم في السوسيولوجيا في جامعة وورسستر، المملكة المتحدة، تشمل مؤلفاته السابقة:

The Habermas-Godamer Debate and the Nature of the Social (Avebury, 1995), and Traditions in Social Theory: Critical Theory (Palgrave, 2003).

يعمل حالياً على تأليف كتاب عن دور النصوص الكلاسيكية في السوسيولوجيا.

دايفد هوارث (David Howarth) :

كبير محاضري جامعة إسكس. متخصص في نظرية الخطاب، وسياسات جنوب أفريقيا، والحركات الاجتماعية. وتشمل مؤلفاته:

Discourse (Open University Press, 2000); South Africa in Transition (co-edited with Aletta Norval, Macmillan, 1998), and Discourse Theory in European Politics: Identity, Policy and Governance (co-edited with Jacob Torling, Palgrave, 2005).

كريستوفر ت. هاسباندز (Christopher T. Husbands) :

محاضر في السوسيولوجيا في مدرسة لندن للاقتصاد، وقد نشرت له العديد من المقالات في السوسيولوجيا السياسي ودراسات في السير الذاتية والمعاجم، كما إنه مترجم ومحرر كتاب فيرنر سومبارت (Werner Sombart) :

Why is there no Socialism in the United States (Macmillan, 1976).

ويندي جيمس (Wendy James) :

أستاذة الأنثروبولوجيا السوسيولوجية في جامعة أوكسفورد، وزميلة في الأكاديمية البريطانية. قامت بأبحاث في السودان وأثيوبيا، وعنيت اهتماماتها النظرية بالعلاقة بين السياسة والجوانب الدينية الثابتة، والأنظمة الثقافية والأخلاقية. من كتبها الحديثة:

Marcel Mauss: A Centenary Tribute (co-edited with Nicholas J. Allen, Berghahn, 1998); Anthropologists in a Wider World: Essays on Field Research (co-edited with Paul Dresch and David Parkin, Berghahn, 2000); The Ceremonial Animal: A New Portrait of Anthropology (Oxford University Press, 2003), and The Qualities of Time: Anthropological Approaches (co-edited with David Mills, Berghahn, 2005).

باري ف. جونستون (Barry V. Johnston) :

أستاذ السوسيولوجيا في جامعة إنديانا في نورث ويست، وهو مؤلف:

Pitirim A. Sorokin: An Intellectual Biography (University Press of Kansas, 1995).

وقد فازت أعماله عن بيتيريم سوروكين (Pitirim A. Sorokin) وعن أقسام السوسيولوجيا البدائية في جامعة هارفرد بالعديد من الجوائز من الجمعيات العالمية والإقليمية. كما بدأ عملاً جديداً بعنوان:

One Hundred Years of Sociology at Harvard University.

دوغلاس كيلنر (Douglas Kellner) :

أستاذ في كلية الدراسات العليا في التربية والإعلام

(Graduate School of Education and Information Stuadies)

في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، وقد ألف العديد من الكتب في الثقافة والإعلام والنظرية الاجتماعية بما في ذلك:

Jean Baudrillard: From Marxism to Postmodernism and Beyond (Stanford University Press, 1990); Postmodern Theory: Critical Interrogations (with Steven Best, Guilford Press, 1991), and The Postmodern Turn (with Steven Best, Guilford Press, 1997),

وحرر كتاب:

(The Collected Works of Herbert Marcuse (Routledge, 2004 onwards.

دايفد كيتلر (David Kettler) :

أستاذ باحث في جامعة بارد، نيويورك. ألّف العديد من الأعمال حول النظرية الاجتماعية، بما في ذلك:

Karl Mannheim (with Volker Meja and Nico Stehr, Ellis Horwood, 1984), and Adam Ferguson: Social and Political Thought (expanded edition, Transaction, 2005).

كما قام بتحرير بعض أعمال كارل مانهايم بمشاركة كل من فولكر ميجا ونيكو ستير، وأبرزها:

Structures of Thinking (Routledge and Kegan Paul, 1982), and Conservat-ism (Routledge and Kegan Paul, 1986),

كما حرر بمشاركة كولن لودر (Colin Loader) كتاب:

.(Sociology as Political Education (Transaction Publishers, 2001

آدم كوبر (Adam Kuper) :

أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة برونيل، وزميل في الأكاديمية البريطانية، وتشمل مؤلفاته:

The Invention of Primitive Society: Transformations of an Illusion (Routledge, 1988); The Chosen Primate: Human Nature and Cultural Diversity (Harvard University Press, 1994); Anthropology and Anthropologists: The Modern British School (3 rd ed., Routledge, 1998), and Culture: The An-thropologists' Account (Harvard University Press, 1998).

دونالد ن. ليفين (Donald N. Levine) :

هو بيتر ب. ريتزما (Peter B. Ritzma) ؛ أستاذ السوسيولوجيا في جامعة شيكاغو، وتشمل اهتماماته النظرية الاجتماعية الكلاسيكية، ونظرية التحديث، والدراسات الأثيوبية، ونظرية الصراع والأيكيدو، وفلسفات التعليم الليبرالي. له العديد من المؤلفات، منها:

Greater Ethiopia: The Evolution of a Multiethnic Society (revised edition, University of Chicago Press, 2000); Visions of the Sociological Tradition (University of Chicago Press, 1995); The Flight from Ambiguity: Essays in Social and Cultural Theory (University of Chicago Press, 1985), and Powers of the Mind: The Reinvention of Liberal Learning in America (University of Chicago Press, 2006)).

وشغل منصب رئيس التحرير منذ عام 1978 لسلسلة The Heritage of Sociology ، التي نشرتها University of Chicago Press وفي عام 1970، حرر سلسلة مجلدات: The HOS Georg Simmel on Individuality and Social Forms.

توماس لوكمان (Thomas Luckmann) :

أستاذ متقاعد في السوسيولوجيا في جامعة كونستانز. عمل بشكل وثيق مع ألفرد شوتز، وتولى تحرير: Structures of the Lifeworld.

من كتبه:

The Invisible Religion (Macmillan, 1967 [originally 1963]); The Social Construction of Reality (with Peter Berger, Anchor Books, 1966); The Sociology of Language (Bobbs-Merrill, 1975), and Life-World and Social Realities (Heinemann, 1983).

ستينا ليون (E. Stina Lyon) :

أستاذة في التنمية التربوية السوسيولوجية، وعميدة أستاذة في كلية الآداب والأنثروبولوجيا في جامعة لندن ساوث بانك (London South Bank University) . وتتناول اهتمامات بحثها: الميثودولوجيا، والسوسيولوجيا التعليمية، والجنس والعرق والسلالة وأيديولوجي دولة الرفاه، ويتركز بحثها الحالي على المساهمات الفكرية لغونار وألفا ميردال (Gunnar and Alva Myrdal) . شاركت في تحرير:

Methodological Imaginations (with Joan Busfield, Macmillan, 1996), and Gender Relations in Public and Private (with Lydia Morris, Macmillan, 1996).

فولكر ميجا (Volker Meja) :

أستاذ السوسيولوجيا في جامعة ميموريال في نيوفاوندلاند، ومن منشوراته مع دايفد كتلر (David Kettler) ونيكو ستير (Nico Stehr) :

Karl Mannheim (Ellis Horwood, 1984), وقام بتحرير مجموعتين من أعمال كارل مانهايم:

Structures of Thinking (Routledge and Kegan Paul, 1982), and Conservat-ism (Routledge and Kegan Paul, 1986).

آن نيلسن (Ann Nilsen) :

أستاذة السوسيولوجيا بمعهد السوسيولوجيا بجامعة بيرغن، النرويج، حيث تعمل كذلك نائب عميد كلية السوسيولوجيا. اشتركت في البحث المقارن عن النوع، والأبوة، والتوظيف، ومن مؤلّفاتها:

Young EurWork and Family: Futures in Transition (co-edited with Julia Brannen, Suzan Lewis and Janet Smithson, Routledge, 2001), Individual-isation, Choice and Structure: A Discussion of Current Trends in Sociolo-gical Analysis (with Julia Brannen,

.(Sociological Review 53 (3), 2005

ماري بيكرينغ (Mary Pickering) :

حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة هارفرد في عام 1988. تعمل حالياً أستاذة للتاريخ في جامعة ولاية سان خوسيه. وسيصدر لها عمل بعنوان:

. Auguste Comte: An Intellectual Biography

لوسيندا بلات (Lucinda Platt) :

محاضرة مادة السوسيولوجيا في جامعة إسكس، ومؤلفة كتاب:

Parallel Lives? Poverty among Ethnic Minority Groups in Britain (CPAG, 2002), and Discovering Child Poverty (Policy Press, 2005), ويرتكز بحثها على مساوئ الأقليات العرقية وعلى فقر الأطفال.

كولن سامسون (Colin Samson) :

أستاذ محاضر في السوسيولوجيا في جامعة إسكس. عمل في مجال علم الاجتماع الطبي وعلم الاجتماع الثقافي. يعمل الآن على دراسة السكان الأصليين في أمريكا الشمالية، ويعمل من كثب مع شعب إينو في شبه جزيرة لابرادور ـ كيبيك. نُشر له:

Canada's Tibet: The Killing of the Innu (with James Wilson and Jonathan Mazower, Survival 1999), and A Way of Life that Does Not Exist: Canada and the Extinguishment of the Innu (Verso, 2003).

جون سكوت (John Scott) :

أستاذ السوسيولوجيا بجامعة إسكس، وأستاذ سابق في جامعة ليستر. متخصص في طبقات المجتمع والسوسيولوجيا الاقتصادية، بالإضافة إلى النظرية الاجتماعية. صدر له مؤخراً:

Power (Polity Press, 2001), Sociology (with James Fulcher, 3 rd ed., Oxford University Press, 2007), and Social Theory: Central Issues in Sociology (Sage, 2006).

سوزي سكوت (Susie Scott) :

محاضرة السوسيولوجيا في جامعة ساسكس. إلى جانب اهتماماتها البحثية حول الأداء والتفاعل والحياة اليومية. صدر لها مواد متنوعة تتناول موضوع «الخجل»، منها:

Shyness and Society (Palgrave, 2007).

كاثرين ب. سيلفر (Catherine B. Silver) :

أستاذة السوسيولوجيا في كلية بروكلين وفي مركز الدراسات العليا في جامعة سيتي في نيويورك. أُلحق كتابها حول فريدريك لوبلاي (Frédéric Le Play) بأبحاث ومنشورات حول النوع، والعمل، بالإضافة إلى الشيخوخة من منظور ما بين الثقافات ومن المنظور الاجتماعي والنفسي.

ستيفن سمول (Stephen Small) :

أستاذ مساعد في الدراسات الأمريكية الأفريقية في جامعة كاليفورنيا، بيركلي. ولقد درّس سابقاً في جامعة ماساتشوستس، في كلية أمهيرست، وفي جامعات وارويك وليسستر. من مؤلفاته الأخيرة:

Representations of Slavery. Race and Ideology in Southern Plantation Museums (with Jennifer Eichstedt, Smithsonian Institution Press, 2002), and Race and Power. Global Racism in the Twenty-First Century (with Gargi Bhattacharyya and John Gabriel, Routledge, 2004).

كينيث طومبسون (Kenneth Thompson) :

أستاذ فخري للسوسيولوجيا في الجامعة المفتوحة (Open University) ، وزميل في جامعة ييل، وأستاذ زائر في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. من منشوراته العديدة حول النظرية الاجتماعية وعلم اجتماع الثقافة:

Moral Panics (Routledge, 1998), Emile Durkheim (Routledge, 2002), and .(The Uses of Sociology (co-edited with Peter Hamilton, Blackwell, 2002

مقدمـة

قد يكون مصطلحا «الكلاسيكية» و«الحداثة» من أكثر المصطلحات الشائعة التي تنطبق على الباحثين السوسيولوجيين، إلا أن كلا المصطلحين يعتبران مضللين. فقد أدت النقاشات حول مصطلحي الحداثة والتحديث إلى خلق إشكالية الفكرة القائلة بأن مصطلح «حديث» يُستخدم ليدل على «المعاصر»، وتنطبق الإشكالية ذاتها كذلك على مصطلح «الكلاسيكية». ففي الموسيقى والفن والعمارة نجد أن للأنماط الكلاسيكية معنى قد يتعارض مع الرومانسية والأنماط الأخرى، في حين لم يكن الحال كذلك في علم الاجتماع. فعلى الرغم من أن المصطلح قد استُخدم مرة واحدة للإشارة إلى جمل إنشائية بعينها ـ كأعمال «كلاسيكية» استخدمت كنماذج ـ إلا أنها غالباً ما تستخدم الآن للإشارة إلى الترتيب الزمني: ونظرية «الكلاسيكية» نظرية سبقت نظرية «المعاصرة».

لكل تلك الأسباب، وُصف هذا الكتاب بأنه يختلف عن كتب النظرية الكلاسيكية الاجتماعية بوصفه كتاباً يدور حول نظرية التكوين الاجتماعي. واستخدم مصطلح «تكويني» هنا للإشارة إلى أصحاب النظريات الذين ساهموا في تكوين البنية المميزة التي تتطور فيها النظرية والبحث السوسيولوجي إلى تخصصات ممأسسة متميزة كما هي عليه الآن.

وتضم هذه الفترة الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وهذا لا يعني القول بأن كل أصحاب النظريات السوسيولوجية في هذه المرحلة متفقون مع بعضهم ـ بل على العكس؛ فما يميز هذه المرحلة هو الاهتمام المشترك من أجل تأسيس الأطر الصارمة التي يمكن أن يحصل ضمنها أي نقاش نظري، فضلاً عن حل الخلافات الفكرية. ولقد أنشأ الكُتّاب التكوينيون مجموعة من المواضيع العامة ساهموا فيها بطريقة متفاوتة، شكّلت الأساس لكل التنظيرات الاجتماعية التالية.

تختلف النظرية الاجتماعية عن علم الاجتماع (السوسيولوجيا). فالتركيز في السوسيولوجيا ـ كما يظهر في الحقبة التكوينية ـ إنما ينصب على وضع معظم الصياغات العامة للنظريات الاجتماعية.

كما إن الأفكار النظرية تطورت في العلوم الاجتماعية الأكثر تخصصاً ـ في الجغرافيا، والسياسة، وعلم النفس؛ ومن شأن كِتاب يتناول علماء الاجتماع الرئيسين الذين يسعون لتمثيل أصحاب النظريات الاجتماعية أن يتضمن بعض واضعي النظريات من خارج علم الاجتماع ذاته. ولذلك، عمدت في هذا الكتاب إلى الجمع بين مجموعة أساسية من علماء الاجتماع ومجموعة أصغر من المحللين النفسيين، وعلماء السياسة، وعلماء الأنثروبولوجيا، وآخرين ممن ساهموا بشكل جوهري في النقاشات التكوينية التي انبثقت منها السوسيولوجيا؛ على سبيل المثال: سيغموند فرويد المحلل النفسي، وفرديناند دو سوسور اللغوي، وغونار ميردال عالم الاقتصاد، ولويس مورغان عالم الأنثروبولوجيا، وبرونسلو مالينوفسكي، إذ إن لهؤلاء جميعاً مكانة ثابتة في أي قائمة دقيقة لعلماء الاجتماع الأساسيين.

وتتجاوز السوسيولوجيا كونها مجرد نظرية اجتماعية بسيطة. فقد اشترك علماء الاجتماع التكوينيون في البحث الإمبريقي والإصلاح الاجتماعي وكذلك التنظير الاجتماعي؛ فجين آدامز هي مؤسسة حركة بيت الاستيطان في شيكاغو، وتشارلز بوث وسيبوم راونتري، هما باحثان في موضوع الفقر، وهيلين بوزانكيت باحثة حالة اجتماعية، فيما ساهم الناشط الأسود ديبوا مساهمات مهمة في تأسيس السوسيولوجيا، واهتماماته الأساسية. وهناك أحد مجالات النشاط الاجتماعي التي ينبغي اعتبارها ضمن عرف المفكرين الاجتماعيين، ألا وهو الماركسية: بدءاً من ماركس ذاته وحتى جورج لوكاش، والعمل الأكثر أكاديمية لـ ثيودور أدورنو وهربرت ماركوس.

وبطبيعة الحال، فإن أي اختيار علماء اجتماع أساسيين لا بد من أن يواجَه بالجدل، فكل مجموعة من الأشخاص تقدم اختياراتها الخاصة بها، ولها معاييرها المفضلة لديها. فعلى سبيل المثال، لو طلبتَ من خمسين شخصاً أن يختاروا خمسين مفكراً أساسياً، فسينتهي بك الحال إلى خمسين قائمة تكاد تختلف تماماً. وضمن التيار الرئيس للسوسيولوجيا، ثمة باحثون معنيون سيجدون مكاناً لهم في أي قائمة؛ فكل من ماكس فيبر وإميل دوركهايم ـ على سبيل المثال ـ قد يكونا أقوى المتنافسين في هذه القائمة. إلا أن الأمور تصبح أكثر تعقيداً بعد هذا الإدراج الأساس، إذ قد يوافق العديد على إدراج جورج سيميل وجورج هربرت ميد، فضلاً عن بعض واضعي النظريات الأوائل مثل: أوغست كونت وهربرت سبنسر؛ ولكن إلى أي مدى، فيما يتجاوز الشخصيات الأساسية، يرغب

أغلبية الأفراد في النظر إلى أحد علماء الاجتماع باعتباره مساهماً «أساسياً»؟ فكلما ابتعدنا عن هذا الأساس، كلما عظمت الخلافات.

إن اختياري الشخصي لعلماء الاجتماع الأساسيين إنما يعكس اهتماماتي ومخاوفي الخاصة: وهو أمر حتميّ لا مفر منه. ولكني اهتممت على الرغم من ذلك بأخذ المشورة كي أتأكد من أن اختياري كان تمثيلياً قدر الإمكان؛ فأحلت قائمتي المبدئية للكُتّاب الذين اخترتهم إلى لجنة من الزملاء بجامعة إسكس، وهو قسم السوسيولوجيا الرائد في بريطانيا. فطلبت من الزملاء أن يدلوا بأصواتهم لمصلحة أولئك الذين يرون ضرورة إدراجهم في هذا الكتاب. كما تم إعداد قائمة منقّحة من هذه الاقتراحات اطّلع عليها كل أعضاء اللجنة لمزيد من النظر فيها. وفي النهاية، تم تقسيم القائمة النهائية إلى قائمتين هما: كُتّاب تكوينيون وآخرون معاصرون، ثم خضعت كل قائمة للاختصار وصولاً إلى الخمسين مفكّراً الأساسيين الذين بدا من المناسب أن تشملهم القائمة النهائية.

أما الإدراجات في هذا الكتاب فقد أعدّها خبراء دوليون، قد يختلفون في الأسلوب والشكل إلا أنهم يسيرون في الاتجاه نفسه. فتفاصيل السيرة الذاتية الأساسية الحياتية والمهنية لكل من أصحاب النظريات في سياقاتهم الفكرية والتاريخية. كما يهدف المساهمون إلى تحديد الأفكار والدراسات الرئيسة التي يضطلع بها كل كاتب بما يوضح الطرق التي تتجلّى من خلالها أفكارهم وتتطور. وقد حاولت ببساطة أن أضع كل باحث منهم ضمن قائمة عن طريق الاسم واللقب، ولكن متى ما كانوا في المعتاد معروفين أكثر بأسماء بديلة، مثل جورج هربرت ميد ودبليو إ. ب. ديبوا فقد قمت بإدراجهم على هذا النحو. وينتهي كل مدرج بقائمة من أهم الأعمال العظيمة الخاصة به، فضلاً عن بعض الاقتراحات لمزيد من القراءة. أما فيما يتعلق بأصحاب النظريات الآخرين، أضفت عبارة «انظر أيضاً» للتنويه بتلك المراجع، بما في ذلك الإشارات إلى الكُتّاب اللاحقين المدرجين في كتاب خمسون عالماً اجتماعياً أساسياً: المنظرون المعاصرون .

قراءات إضافية :

Alex Callinicos. Social Theory: A Historical Introduction . Cambridge: .Polity Press, 1999

.Ian Craib. Classical Social Theory . Oxford: Oxford University Press, 1997

John Scott. Social Theory: Central Issues in Sociology . London: Sage, .2006

Stephen Turner, ed. Social Theory and Sociology: The Classics and Beyond .. Oxford: Basil Blackwell, 1996

جين آدامز (Jane Addams)

هي براغماتية نسائية، ورائدة التسوية الاجتماعية، وحائزة على جائزة نوبل، ومعروفة كزعيمة عالمية ذات ذهن حاد، وشخصية جذّابة، وتراث فكري خلاّق. وتُعد جين آدامز واحدة من أهم عالمات الاجتماع على مر العصور، حيث رئست العشرات ممن اشتغلن في السوسيولوجيا منذ عام 1890، وحتى وفاتها في عام 1935، على الرغم من أن أغلبهن اضطررن في أعقاب عام 1920، إلى ترك العمل في مجال السوسيولوجيا والدخول في ميادين أخرى مثل الخدمة الاجتماعية، والاقتصاد المنزلي، وعلم النفس التطبيقي، وعلم أصول التربية، والإدارة في مرحلة التعليم العالي.

ولدت جين آدامز في السادس من أيلول/سبتمبر عام 1860 في بلدة سيدرفيل، وهي بلدة صغيرة تقع في الغرب الأوسط لولاية إلينوي. وقد تأثرت تأثراً عميقاً بوالدها جون آدامز ـ الذي كان أحد أعضاء جماعة الهيكسايت وعضواً في مجلس الشيوخ، ومالك مطحنة ـ بيد أنها لم تتعرف إلى أمها سارة فيبر، التي وافتها المنية عندما كانت جين آدامز في ربيعها الثاني. وفي عام 1877، التحقت جين بمدرسة روكفورد للفتيات؛ وهي واحدة من أكبر الكليات المخصصة للإناث. وبعد تخرجها في عام 1881، مرّت جين بفترة طويلة مفعمة بالحزن والاكتئاب؛ ففي آب/أغسطس من العام ذاته، توفي والدها فأورثتها وفاته الحيرة واليأس. ثم التحقت جين بعد ذلك بكلية الطب للفتيات بولاية فيلادلفيا في الخريف، إلا أنها لم تلبث أن عادت إلى إلينوي. في تلك الفترة كانت جين مريضة وتحيط بها المشكلات الأسرية، فلم تعرف قراراً في حياتها لمدة عام. لكنها سرعان ما بدأت تعود إلى الحياة، فسافرت إلى أوروبا عام 1883، إلا أن الإحباط لازمها طوال العامين التاليين حتى عادت إلى أوروبا. وفي رفقة رفيقتها إيلين غيتس ستار، وجدت آدامز اتجاهاً لحياتها بعد زيارة قامت بها إلى مؤسسة اجتماعية ـ توينبي هال ـ تقع في نهاية الطرف الشرقي من لندن. وكانت هذه المؤسسة تعمل على خدمة الطبقات العاملة المستغَلة، ودعم الحرفيين الذين مزجوا اهتماماتهم بالفن والعمل والمجتمع. ولقد كانت مؤسسة توينبي هال بمثابة نموذج مثالي لجين آدامز ورفيقتها ستار، للمشاركة في تأسيس مؤسستهما الاجتماعية «هول هاوس» (Hull House) . وفي شيكاغو عام 1889،

أصبحت هول هاوس مرسىً مؤسساتياً للعمل النسوي للفصل الجندري في السوسيولوجيا، ونقطة اتصال بأهم مركز سوسيولوجي في تلك الحقبة؛ وهو جامعة شيكاغو.

لقد كانت فترة التسعينيات من ذلك القرن فترة مثيرة للجدل داخل هول هاوس؛ إذ كان يجتمع الفوضويون، والماركسيون، والاشتراكيون، والوحدويون، وأصحاب النظريات السوسيولوجية؛ فقد كان من بين الزائرين الدائمين كل من جون ديوي، وجورج هربرت ميد، وودبليو أي. توماس، وآخرين، إضافة إلى محاضرين وأصدقاء مقربين من آدامز. ولقد نشأت براغماتية شيكاغو من خلال الاتصالات الجامعية والتبادل الفكري بينهم وبين آدامز. وفي عام 1895، نُشر النص الاجتماعي المؤثر (Hull House Maps and Papers) من قِبل المقيمين بهول هاوس، ممهداً ومرسخاً الاهتمامات الحضرية لعلماء الاجتماع الرجال الأوائل في ولاية شيكاغو.

لقد ألّفت جين آدامز أحد عشر كتاباً، وكتبت مئات المقالات. وواصلت جهودها التعليمية من خلال محاضراتها في أنحاء البلاد. كما تزعمت منظمات الإصلاح الاجتماعي، وقامت بحملات من أجل الحزب التقدمي. وساعدت كذلك على تأسيس العديد من المنظمات الحكومية؛ فضلاً عن ممارستها ودعوتها إلى «الديمقراطية الراديكالية»، منادية بأنه لا بد للمساواة من أن تتجاوز حقوق المواطنة بحيث تسود مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية كافة. وقد تضمن ذلك التزاماً تجاه الأمريكيين الأفارقة والتعددية الثقافية؛ فلم تكن جين آدامز تبحث عن حلول للمشكلات فحسب، بل عن الحلول المثلى لمصالح الجميع، بما في ذلك الفقراء والمحرومين.

يُطلق على أفكار وممارسات جين آدامز اسم «البراغماتية النسائية»؛ وهي نظرية أمريكية توحد القيم الليبرالية والإيمان في شعب عقلاني، ذي نموذج ينشد التعاون، والتربية والتحرر للذات وللآخر وللمجتمع؛ فالتعليم والديمقراطية آليتان مهمتان من أجل تنظيم وتحسين المجتمع. وتعنى البراغماتية النسائية بدراسة «السلوك الاجتماعي»، تؤمن بأن كل شخص يولد بغرائز أو «دوافع» بدائية تتسم بالمرونة؛ ففي المقام الأول، يتعلم الأطفال من خلال المراقبة والتقليد والاستجابة لإيماءات الآخرين ـ وبخاصة الوالدين ـ إذ بإمكانهم استخلاص المعنى من الإيماءة، ولا سيما الإيماءات الصوتية، ثم يقومون بالتعميم بشأن «الآخر، والمجموعة، والمجتمع، والمؤسسات». ومن شأن هذه «العملية» أن تتيح للفرد أن يطوّر عقله، وذكاءه، وذاته، وقدرته على أخذ دور

الآخر؛ فالذات تتعلم «التوجهات» المنظمة في «المجتمع» تجاه «المواقف الاجتماعية»؛ فهؤلاء الذين يعيشون في الحي والمجتمع الواحد، تنمو لديهم خبرة مشتركة (وهي أفضل ما لدى البشر)؛ فالذات تبرز من الآخرين، ولا تدخل في صراع معهم ما لم تتعلم أن تكون كذلك؛ فـ «التعليم» طريقة رئيسة ليحيط المرء بمعرفة المجتمع، وذلك ليشارك في القرارات الجماعية، ولكي يصبح «مواطناً».

والنساء اللاتي يتبعن القواعد التي تدير البيت والأسرة، إنما يتبعن «مطالب الأسرة». وعندما يعملن لدى آخرين خارج المنزل، فهن بذلك يتبعن «المطالب الاجتماعية». وقد تسفر الصراعات بين هذه المطالب عن «اختلال اجتماعي»، تكون فيه القيم والمواقف المتضاربة حيال موقف واحد شرعية في الآن نفسه، ما يخلق نوعاً من عدم الاستقرار في المجتمع، ومن ثم تصبح المرأة مصدراً لـ «التغيير الاجتماعي». وبوسع النساء في الحياة العامة أن يستفدن من نظرتهم التعاونية تجاه العالم في تحقيق غايات الديمقراطية؛ فعالم الإناث يقوم على وحدة الذات الأنثوية، والتعاملات المباشرة في المنزل، والأسرة، ومع الجيران في المجتمع. ويمكن للنساء اتباع هذا النمط وتوسيعه ليشمل رعاية الآخرين، لقدرتهن على التعامل مع المستويات الأبسط والأدنى؛ فمتى توسع نموذجهن الذي يتعلق بالأسرة والبيت ليشمل الحالة الاجتماعية الأكبر، يُطلق عليه اسم «المنزلية المدنية».

ويمكن للنساء أن يصبحن قائدات في ظل «وعي اجتماعي» جديد يتضح في عبارة «المثل الأحدث للسلام». ويُعد «التكامل بين الموضوعي والذاتي (غير الموضوعي)» من علامات يقظة الوعي هذه، وهو ما يتم تنظيمه من خلال «الحركات الاجتماعية في العمل، والعلوم الاجتماعية، والمرأة». وما المدينة الحديثة إلا الموقع الجديد لهذه التغيرات الاجتماعية.

تتعلم النساء «الحكمة الشعبية»، ويتشاركن ثقافة تعتمد على الأساطير النسائية، مثل أسطورة أم الذرة (Corn Mother) . وتتجاوز هذه الوحدة الحدود العرقية/العنصرية، بينما تدعم الاختلافات وتحترمها، بما في ذلك التنوع في الطبقات والأعمار والأعراق والأديان والتعليم والميول الجنسية والإعاقة. وتنشأ الديمقراطية من المجموعات المختلفة، وتمثل تلك المنظورات والتاريخ والمجتمعات، والسمات الخاصة بهيكل الذات المتباينة. وينبغي على التغير الاجتماعي أن يُبرز ويستجيب للقواسم المشتركة والاختلافات في هذه المجموعات المتباينة. وتتعلم «النساء العجائز»

كذلك، وينقلن الأساطير، ويقدّرن الخير الكامن في الآخرين، ويطوّرن «ذاكرة المرأة»، ويشتركن في «إتقان الماضي». ولأن النساء لسن عضوات كاملات في عالم الذكور، فهن في موقف مثالي يمكّنهن من «تحدِّي الحرب، وزعزعة الاتفاقيات، ودمج الصناعة، والتفاعل مع الحياة، وتحويل الماضي». ويكمن «التزام المرأة» في المساعدة على خلق وتوزيع إمدادات العالم الغذائية، حيث يستند مطلب أسرة المرأة الحديثة إلى «دور المستهلك» الذي يتعين عليه انتقاد الصناعة وتغييرها.

إن من شأن إعادة توحيد المرأة والمجتمع من خلال إنتاجية اقتصادية أن يمكّن المرأة من اتخاذ خيارات أفضل في المنزل وفي السوق؛ إذ يمكن كذلك أن تتطور «آفاق جديدة للمرأة» من خلال استخدام حقائق عقلانية، ومواقف بديلة، وأوضاع اجتماعية جديدة، وعلوم اجتماعية جديدة، خاصة السوسيولوجيا؛ واقتصاديات متغيرة. ويمكن لهذا أن يحدث من خلال تطوير «فرضيات عمل» جديدة تدخل على حالة اجتماعية بعينها وتغيرها، وتخلق من ثم فرضيات عمل جديدة. ويطلق على هذه العملية اسم «إعادة البناء الاجتماعي». ويعتبر عمل نوادي المرأة مصدراً آخر للتغيير وللتوعية الاجتماعية.

تمثل مناطق التركيز في البراغماتية النسائية آداباً منفصلة، بما في ذلك دراسة: (1) المدينة، (2) الجريمة، (3) استخدام المنهجية (الميثودولوجيا) الكمية والكيفية، (4) دورة الحياة، (5) الطبقات الاجتماعية وعلاقات العمل، (6) صناعة الفن والجمال والاستمتاع بهما، (7) اللعب، (8) التعليم، (9) الحراكات الاجتماعية، (10) الأخلاقيات، (11) تطوير الوعي العالمي والأجهزة السياسية، (12) الهجرة، (13) الحياة الأمريكية الأفريقية والتفرقة العنصرية، (14) القيم النسائية والبيئة الطبيعية. وفي الأغلب، تتضمن كل منطقة عشرات العلماء والناشطين، حيث تعتبر جين آدامز شخصية محورية تعمل على توحيد تلك الاهتمامات والأنشطة المختلفة.

ولأنها كانت مسالمة ترفض الحرب والعنف قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، تم تمجيد آدامز بوصفها «امرأة صالحة». ومع بناء الشعور الوطني منذ عام 1914 وحتى دخول أمريكا في الحرب في عام 1917، أصبحت آدامز هدفاً للعداء والهجوم الشخصي المتزايد من قبل الآخرين. وبحلول عام 1917، أصبحت منبوذة اجتماعياً وشعبياً، وتحوّلت من كونها امرأة قديسة إلى امرأة شريرة؛ فتعرضت للازدراء من فوق المنصات والمنابر، وتخلّى عنها أصدقاؤها وزملاؤها، وفي مقدمتهم

علماء الاجتماع الآخرين، ومن ثم أصبحت آدامز منبوذة اجتماعياً. لقد كان ذاك وقتاً أليماً بالنسبة إليها، بيد أنها احتفظت بهدوئها، معتمدة في هذا على مبادئها المبنية على المثاليات «الأنثوية». وفي عام 1919، وصل نبذ آدامز سياسياً إلى الذروة عندما استهدفتها الحكومة الأمريكية باعتبارها الشخصية الأكثر خطورة في أمريكا. وهنا تقلص دورها الأساس كعالمة سوسيولوجية. وحتى وقت قريب كانت جين آدامز لا تزال منبوذة من قِبل أجيال متعاقبة من علماء الاجتماع.

في العام 1920، مُنحت المرأة (في أمريكا) حق الانتخاب، وكان ذاك انتصاراً كبيراً بالنسبة إلى آدامز. إلا أنه خلافاً لتوقعاتها بوجود تصويت قوي من جانب المرأة، شهد ذلك العقد خفوت القوة السابقة للناشطات النساء، بما فيهن آدامز. وخبا نجم القيادة التقدمية، وأصبحت الرؤية الليبرالية لمجتمع متغير وأكثر تفاؤلاً، وعقلانياً علمياً أقل قبولاً. فيما شرع علماء الاجتماع يطبقون منظوراً ذكورياً متزايداً على تعريفهم للسوسيولوجيا.

وفي عشرينيات القرن الماضي، استأنفت آدامز زعامتها القوية على نحو تدريجي؛ إذ إن التأثير المدمر للركود الاقتصادي الكبير دعا مرة أخرى إلى تحليل اجتماعي راديكالي وتغير اجتماعي. وأصبحت آدامز مجدداً قائدة عالمية متميزة. وبحصولها على جائزة نوبل للسلام عام 1931، دعت آدامز إلى كثير من القيم والسياسات التي تم تبنيها في «الميثاق الجديد» (New Deal) ، وبخاصة فيما يتعلق بالأمن القومي والبرامج الحكومية الأخرى التي غيرت الرأسمالية الأمريكية. وفي عام 1935، توفيت جين آدامز، وحزن العالم بأسره لفقدان هذه القائدة العظيمة ومفسرة الفكر الأمريكي.

إضافة إلى مساهماتها في براغماتية شيكاغو، انخرطت آدامز في أعمال العلوم الاجتماعية في بريطانيا، بما في ذلك الإمبريقية، والدراسات الاستقصائية الاجتماعية، والمستوطنات الاجتماعية، واشتراكية فابيان، وحركة الفنون والحرف. وقد اهتمت آدامز بأعمال كل من تشارلز آشبي (Charles Ashbee) ، وبيتريس ويب (Beatrice Webb) ، وتشارلز بوث (Charles Booth) ، وباتريك غيديس (Patrick Geddes) ، وجون روسكين (John Ruskin) ، وكانون بارنيت (Canon Barnett) ؛ فضلاً عن تأثرها بعلماء الاجتماع الروس، خاصة مسالمة ولا عنفية ليو تولستوي وفنه، ودراسة علاقة الإنسان بالأرض التي دعا إليها بيوتر كروبوتكين (Piotr Kro-potkin) . كما اهتمت آدامز بدراسة أعمال كارل ماركس وفريدريش إنغلز، إلا أنها كرّست نفسها

للنموذج التعاوني بدلاً من النموذج التصادمي. واستناداً إلى الأسس الثلاثة للسلوك البشري التي تتضمن اللعب، والفن، والعمل، فإن مقاربتهما لم تكن عملية بالنسبة إليها.

هناك مجموعة كبيرة من المؤلفات التي تناولت جين آدامز؛ إذ تركزت أغلبيتها على سيرتها الذاتية وأعمالها الاجتماعية، ودورها الجماهيري في المجتمع الأمريكي. بيد أنه هناك نقص حاد في دراسة أدواتها الفكرية: نظريتها عن الفنون، بما في ذلك المسرح والمهرجانات والدراما والأدب والنحت وصناعة الفخار وعلم جمال الطبيعة؛ والتزامها طوال حياتها بالنظرية السياسية، وتأثيرها العظيم في العلاقات العرقية في أمريكا، ولا سيما بين البيض والأمريكيين المكسيكيين والأمريكيين الأفارقة. وقد أسفرت ندرة المنح الدراسية في المجالات الرئيسة لأعمالها، عن الحد من فهمنا لأفكارها وإنجازاتها بصورة كبيرة.

وهناك أيضاً عدة مؤلفات في مجالات عديدة، بصفة خاصة الدراسات النسائية التي تنتقد البيض ونساء الطبقة المتوسطة، والمرشدين الاجتماعيين الأوائل، والإصلاحيين، وأصحاب الإحسان بوصفهم محافظين، ومستغلين، ومستبدين. وغالباً ما يُنظر إلى آدامز باعتبارها قائدة رمزية لتلك المجموعات المختلفة، وأحياناً تُبرَز كرمز معاصر لخسة الجهل الخيّر أو الشر المتعمد. ومن ثم تُذكر أحياناً بشكل سطحي في نصوص وصفتها بأنها نسخة لامرأة عنصرية عنصرية، استيعابية، أساسوية، ومتطفلة غير عملية.

تتناقض هذه الدراسة مع الدراسات الأولى التي دارت تناولت آدامز بصفتها عالمة اجتماع قبل عام 1920، عندما كانت مندمجة في السوسيولوجيا، وكثيراً ما تحدثت أمام الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع، ونُشرت أعمالها في الدورية الأمريكية للسوسيولوجيا . وقد انمحت قيادة آدامز المتميزة في السوسيولوجيا حتى نُشر كتاب (ديغان عام 1988) وسلسلة من المقالات ذات الصلة عن علم اجتماع آدامز والجماعات النسوية التي ألهمتها؛ ولذا فإن إعادة اكتشاف دورها وتأثيرها في علم الاجتماع جعلاها أكثر وضوحاً وفهماً في هذا العلم.

كثيراً ما كان الإرث الفكري لآدامز، كبراغماتية أنثوية، قاتماً وأحياناً مشوّشاً؛ إذ دعت إلى إحداث تغييرات جذرية في الحياة والسياسة الأمريكية، وتغيير إمكانات النمو البشري، والعمل لمصلحة

الفقراء، والطبقات العاملة، والمهاجرين، والملونين، والشباب، وكبار السن، والنساء. كانت جين آدامز نموذجاً محورياً في علم الاجتماع التطبيقي بين عامي 1892 و1920، وقادت جماعات كبيرة وقوية من النساء اللائي تأثرن بها بشدة. وغالباً ما يوثّق الدارسون المعاصرون مساهمات آدامز المهمة في الحياة العامة، سواء بالمدح أو الذم، إلا أن مكانتها نادراً ما قُدِّرت حق قدرها. وقد اختفى إرثها في علم الاجتماع بصفة خاصة في خضم تنظيم الأعمال الأدبية. ولا يُذكر تأثيرها العميق في مسار السوسيولوجيا وتنميتها إلا في أغلب نصوص كتب السوسيولوجيا ومقالاتها فحسب. وتجدر الإشارة إلى ازدياد عدد الدارسين الذين يعكفون على تحليل هذا الإرث العظيم البديل، وتقاليده المنغرسة في علم الاجتماع الأمريكي، متطلعين إلى أفق جديد لمجتمع أكثر تحرراً وإنصافاً.

انظر أيضاً: تشارلز بوث، جورج هربرت ميد.

أهم الأعمال:

Hull-House Maps and Papers (as Residents of Hull-House). New York: Crowell, 1895.

Democracy and Social Ethics . New York: Macmillan, 1902.

Newer Ideals of Peace . New York: Macmillan, 1907.

The Spirit of Youth and the City Streets . New York: Macmillan, 1909.

Twenty Years at Hull-House . New York: Macmillan, 1910.

A New Conscience and an Ancient Evil . New York: Macmillan, 1912.

The Women at the Hague (with Emily Greene Balch and Alice Hamilton). New York: Macmillan, 1915.

.The Long Road of Woman's Memory . New York: Macmillan, 1916

.Peace and Bread in Tirne of War . New York: Macmillan, 1922

The Child, the Clinic and the Court . Intro. by Jane Addams. New York: .New Republic, 1927

.The Second Twenty Years at Hull-House . New York: Macmillan, 1930

كما كتبت آدامز عدة مقالات في مواضيع مختلفة.

قراءات إضافية:

Mary Lynn McCree Bryan and Allen F. Davis. One Hundred Years at Hull- .House . Bloomington, IN: Indiana University Press, 1990

Allen F. Davis. American Heroine . New York: Oxford University Press, .1973

Mary Jo Deegan. Jane Addams and the Men of the Chicago School, .1892-1920 . New Brunswick, NJ: Transaction Books, 1988

John C. Farrell. Beloved Lady . Baltimore, MD: Johns Hopkins Press, .1967

James Weber Linn. Jane Addams . New York: Appleton-Century Crofts, .1935

ثيودور أدورنو (Theodor Adorno)

كان أدورنو مفكراً لا يقبل المساومة، وممثلاً رائداً لمجموعة من المفكرين الناقدين المرتبطين بمعهد البحوث الاجتماعية في جامعة فرانكفورت. وكان فيلسوفاً عظيماً ضليعاً في المثالية الألمانية، فضلاً عن كونه موسيقياً وملحناً رائعاً؛ وقد تفرّد أدورنو بوضعٍ أهّلَهُ لتطوير نظرية جمالية معقدة مثيرة للجدل حول الترفيه الشعبي. وكعالم اجتماع، كتب أدورنو تحليلات تدين المنطقية البراغماتية والثقافة الحديثة والشخصية السلطوية التي استندت إلى كل من ماكس فيبر وفرويد، في إطار مبتكر شديد الخصوصية والحساسية. وعلى الرغم من أن عمل أدورنو تناول مجموعة محيّرة من الموضوعات، وكتب بأسلوب يستعصي على الفهم، إلا أنه كان هناك اتساق ملحوظ في تفكيره على مر الزمن؛ فقد توصل إلى تعريف الجدلية السلبية (Negative Dialectic) التي لا تكشف القناع عن تصوراتنا اليومية بشأن الواقع الاجتماعي فحسب، بل وكيف ينبّئ التناقض بين الحقيقة والوهم بالكثير عن كيفية خوض الحياة الحديثة.

كان أدورنو،في المقام الأول، معنياً بالمعاناة البشرية؛ إذ ألقت مسألة الهيمنة بظلالها على سائر أعماله، فيما يتمثل الموضوع المشترك الكائن في لب عمله في أن تاريخ الحضارة يرتكز على قمع الطبيعة وتوطيد النظم الاجتماعية القمعية التي تلغي حرية الإنسان. وفي مقابل آراء أدورنو اليائسة حول الحياة العصرية وفهمه شديد التشاؤم لشمولية الثقافة، كان لديه أمل واهن تخيل فيه العالم حراً من المعاناة غير الضرورية. وعلى الرغم من رفضه وصف البديل المثالي لهذا المجتمع المعاصر، إلا أنه ظل مقتنعاً بقيمة المعتقدات الطوباوية، سواء أكانت واقعية أم لم تكن.

ولد أدورنو عام 1903، ونشأ في فرانكفورت ابناً وحيداً لتاجر نبيذ يهودي وزوجته الكاثوليكية التي كانت مغنية أوبرالية محترفة. وقد مكّنته هذه الخلفية الثرية نسبياً، والليبرالية، من تعزيز مواهبه الفكرية والموسيقية الفذة. وشرع وهو في الخامسة عشرة من عمره يقرأ في الفلسفة الكلاسيكية الألمانية مع سيغموند كراكوير، صديق الأسرة، والذي أصبح فيما بعد أحد أشهر النقاد المثقفين في جمهورية فيمار. وفي أوائل عشرينيات القرن (العشرين)، التقى أدورنو بماكس هوركهايمر، وهو

فيلسوف شاب شاركه الكثير من اهتماماته الجمالية، وفالتر بنيامين المفكر الراديكالي الذي كان يسعى إلى دمج الفلسفة الماركسية بالتصوف اليهودي؛ وأصبح كلاهما صديقي العمر لأدورنو، وشكّلا تطوره الفكري على نحو مذهل. وبحلول منتصف عشرينيات القرن العشرين، انتقل أدورنو إلى فيينا لدراسة التلحين الموسيقي والتدرب على عزف البيانو في الحفلات الموسيقية.

بدا لبعض الوقت أن أدورنو كان قادراً على الجمع بين نمطين مهنيين في آن: الموسيقي والفلسفي، بيد أنه واجه انتكاسات على الصعيدين؛ فلم تحظَ مقالاته النقدية الموسيقية إقبالاً لدى دائرة معارفه في فيينا. وبينما واصل التأليف الموسيقي بقية حياته، إلا أنه أولى الحياة الأكاديمية جل جهوده. وباءت بالفشل محاولته الأولى لاكتساب المؤهلات اللازمة كي يكون أستاذاً جامعياً؛ إذ بعد عودته إلى فرانكفورت في عام 1927، أبدى أستاذه المشرف على الأطروحة ملاحظات مثيرة للقلق، ما اضطره إلى تبني موضوع آخر (نقد الفلسفة الوجودية لسورين كيركيغارد (Sren Kierkegaard). وفي هذه الأثناء توطدت علاقته بهوركهايمر، والتي أسفرت بدورها عن اتصاله بمعهد البحوث الاجتماعية حديث التأسيس في جامعة فرانكفورت.

أنشئ المعهد ـ أو كما عرف بعد ذلك بمدرسة فرانكفورت ـ عام 1923 كمركز للمنح الدراسية لعلماء الاجتماع. وتبنى في البداية متابعة الأبحاث من نوع الأرثوذوكسية الماركسية. وعكس المعهد منذ البداية الحاجة التي شعر بها أهل الفكر من اليسار إلى إعادة تقييم النظرية الماركسية في ضوء الانتصار غير المتوقع للبلشفية في روسيا عام 1917، وما تبعه من هزيمة الثورات في أوروبا الوسطى. وعلى مدى السنوات التي تلت ذلك، أنتج المعهد عملاً إمبريقياً ضخماً يتسم بالقليل من الخيال النظري. ومع ذلك، غيّر المعهد اتجاهه بشكل جذري مع تولّي هوركهايمر إدارة المعهد في العام 1930. وسرعان ما اتضحت الفروق في المنهجية مع بروز الفلسفة، بدلاً من الاقتصاد والتاريخ. وبدأت المسائل الثقافية تكتسب أهمية مع المحاولات العديدة لدمج الماركسية الجدلية مع التحليل النفسي الفرويدي. وسعى هوركهايمر بشكل أكثر عمومية، سعى هوركهايمر إلى إبعاد المعهد عن الحركة العمالية في مزيد من الجهد للانفصال عن الماركسية الأرثوذوكسية ومنح المعهد هوية أكاديمية أساسية. وقد أتى بمصطلح «النظرية النقدية» لتعريف المنهجية الجديدة المنطلقة من

المعهد. وقد تضمن هذا الاتجاه الجديد أشخاصاً بارزين مثل الفيلسوف هربرت ماركوس، والمحلل النفسي إريك فروم، وعالم الاجتماع ليو لوفينتال، وآخرين.

وفي المحاضرة التي ألقاها أدورنو في افتتاح جامعة فرانكفورت عام 1931، بعنوان «حقيقة الفلسفة»، قدّم العناصر الأساسية لفكره التي شكّلت عمله التالي. وقد أوضح مزجه الخاص المميز للفكر «الجدلي» والفكر «المادي» كوسيلة لتوضيح الممارسات الاجتماعية. ومع ذلك، كما تقول سوزان بوك ـ مورس: «بالرغم من أن ذلك ينتسب إلى ماركس، حتى أنه يمكن أن يُطلق عليه مصطلح «الماركسية»، إلا أنه لم يكن ماركسياً؛ إذ تختلف حياته بشكل جوهري عن ماركس، من حيث إن فلسفته لم تشتمل على نظرية العمل السياسي قطّ».

هناك عمل كان له تأثير مهم على فهم أدورنو لماركس، وهو عمل المجري جورجي لوكاش، His-tory and Class Consciousness ، إذ أسفرت نظرية لوكاش بشأن «المادية»، والتي تشير إلى التأثير البالغ للفتشية السلعية في العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الرأسمالية كافة، قد أسفرت عن إدانة الضعف الأخلاقي في المجتمع الرأسمالي. وقد شاركه أدورنو فهم العواقب الوخيمة للفتشية السلعية، إلا أنه لم يتأثر قطّ بتفاؤل لوكاش بأن وعي الطبقة العاملة الثورية سوف يتغلب على هذه المادية.

مع وصول الحزب النازي إلى السلطة عام 1933، أصبح مستقبل أدورنو كأكاديمي ألماني مستقبلاً مظلماً. وكان معهد هوركهايمر ـ بوصفه مؤسسة فكرية ماركسية يعج على نحو حصري باليهود ـ من أوائل المجموعات الفكرية التي أرغمت على الذهاب إلى المنفى، فهرب أعضاؤه عن طريق جنيف حتى وصلوا إلى نيويورك، وأقاموا هناك اتصالات واسعة مع جامعة كولومبيا. أما أدورنو، فقد غادر إلى انكلترا وتدهورت حاله، حتى أصبح «طالباً متقدماً» في كلية ميرتون، في أكسفورد، حيث قضى أربع سنوات من حياته. وتضمنت مشروعاته هناك دراسة فلسفة هيسرل وكتابة عدة مقالات حول فن الموسيقى. وفي العام 1936، نُشرت له مقالة بعنوان (On Jazz) (كتبه باسم مستعار: هيكتور روتفايلر)، بينما ظهر عمله الثاني (On the Fetish Character of Music and the Regression of Hearing) بعد ذلك بعامين. وقد أوضحت هذه الأعمال كيف أثّرت التغيرات الهيكلية في أواخر الرأسمالية في شخصية الفن، وبدلاً من الوعد بالحرية والاستخدام

الحقيقي للقيمة على نحو يمتع الناس، تركز أغلب الاهتمام بالفن بوصفه سلعة معيارية للتبادل؛ وهي موضوعات تناولها في أعماله بعد ذلك.

وصل أدورنو إلى نيويورك في العام 1938، ليوجه برنامجه البحثي إلى مستمعي الراديو بصحبة عالم الاجتماع بول لازارسفيلد (Paul Lazarsfeld) . إلا أن رأب الصدع بين إمبريقية لازارسفيلد وفلسفية أدورنو بات أمراً يتعذر تحقيقه، و انتهى دوره في المشروع في العام 1940. ومع ذلك مكّنه انتقاله إلى أمريكا من أن ينمّي روابطه الفكرية مع هوركهايمر. وسرعان ما انضم إليه في كاليفورنيا الجنوبية، وعمل الرجلان معاً على نحو وثيق، فأنتجا عملاً كان بمثابة نقطة تحول لموقعهما المشترك، وهو بعنوان (The Dialectic of Enlightenment) ، نشر لأول مرة في العام 1947؛ إذ دمج فهم ماركس مع فيبر ونيتشه فيما يتعلق بالمنطق والسيطرة. وقد ظهر هذا الكتاب في ستينيات القرن العشرين، وكان بمثابة بيان تعريفي لمدرسة فرانكفورت، كاشفاً عن ميول التدمير الذاتي للمجتمعات المعاصرة، حيث يدور الجدل الأساس حول المنطقية الذرائعية ـ وهي شكل من أشكال المنطق الذي يفصل الحقائق من خلال الاهتمام الحصري بالأغراض العملية ـ وتقويضها القدرة التحررية على التنوير. على سبيل المثال، استخدمت الفاشية الكثير من أدوات المنطقية الذرائعية والعلوم الحديثة في تدميرها الهمجي وقمعها الدموي.

إلا أن الدول الديمقراطية ـ شأنها شأن الدول السلطوية ـ لديها الكثير من الميول غير الإنسانية؛ ربما كانت أكثر رقة، لكنها ليست أقل تدميراً؛ وهو الادعاء الذي اختبره كل من أدورنو وهوركهايمر في تحليلهما لما يسميانه «صناعة الثقافة»، وهي الثقافة التي تلغي الفردية والفكر النقدي الصامت من خلال «الخداع الجماهيري»؛ فكما وصفا الأمر، في اعتبار الفرد في «صناعة الثقافة وهماً، ليس فقط بسبب معيارية وسائل الإنتاج.. انتشار الزيف الفردي، من ارتجال الجاز المعياري إلى نجوم الأفلام الاستثنائيين الذين تنسدل شعورهم على أعينهم لإظهار الإبداع». وكما هو متوقع، أثبتت هذه الحجج أنها مثيرة للجدل إلى حد بعيد؛ فهذا الوصف للثقافة المتجانسة وإنكار النخبة جماليات الاستمتاع العام، تعرضت جميعها للنقد الدوري المستمر. والأكثر جدلاً هو مدى انخداع الناس بمنتجات صناعة الثقافة. إلا أن أدورنو وهوركهايمر، كانا مدركين تماماً أن «الانتصار الإعلاني

في صناعة الثقافة إنما يتمثل في أن المستهلكين يشعرون بأنهم مجبرون على شراء واستخدام منتجاتها، حتى وهم يدركون حقيقتها».

يعمد أدورنو إلى تطوير إمكانية رؤية الحقيقة هذه في دراسة حول عامود الأبراج الفلكية في جريدة لوس أنجلوس تايمز ، بعنوان " The Stars Down to Earth" ، والتي كُتبت في أواسط خمسينيات القرن العشرين، بيد أنها نُشرت عام 1994. وبشكل عام، تهدف هذه الدراسة إلى تحليل وفهم «دوافع بعض الظواهر واسعة الانتشار التي تتضمن عناصر غير منطقية بطريقة خاصة». وبدلاً من رفض علم الفلك بوصفه علماً غير منطقي، قال أدورنو إن المنطقية الذرائعية لمجتمعات رأس المال تولي الفلك درجة من التركيز يدفع بالقراء إلى أعمدة الصحيفة بوصفها وسيلة حياة، من خلال ظروف تتجاوز سيطرتهم الفعلية. وبالنسبة إلى أدورنو، يُعد علم الفلك وسيلة لتحاشي القدرية؛ فقرّاء أعمدة الأبراج يُنصحون بشكل مستمر بالاختيار، على الرغم من أن ذلك في نهاية الأمر ليس سوى استقلالية فارغة تؤدي إلى انصياع وامتثال لمعايير اجتماعية طواعية؛ إذ إن الدور الضمني الذي تمارسه هذه الأعمدة هو ضرورة امتثال القارئ لأوامر النجوم، بينما تخاطب النرجسية الفردية، وتصور القارئ بوصفه شخصاً قادراً على تغيير ظروفه من خلال «مصادر القوة الشخصية» (مثل استخدام «الجاذبية» و«الفتنة» و«الحدس» في مواقف بعينها). والنتيجة هي «انغماس الفردية في عملية تحويل الغايات إلى وسائل».

لقد عزّز أدورنو هذا الاهتمام بالانصياع والامتثال الاجتماعي ولامنطقية البشر في عمل متقنٍ سمي بـ « الشخصية السلطوية » (The Authoritarian Personality) ، وهي دراسة إمبريقية واسعة أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية الحرب العالمية الثانية. كانت الميزة الأساسية في هذه الدراسة هي أن هناك ترابطاً بين تركيب الشخصية والدعم المحتمل الذي يعطى للحركات الشعبية اللامنطقية مثل الفاشية. ومن خلال استخدام طبقات التحليل النفسي، جادل أدورنو أن الرأسمالية المتأخرة تنتج شخصيات «نرجسية» خاضعة تبحث عن نماذج قوية للتماهي بها (مثل نجوم الأفلام الجذابين أو القادة السياسيين السلطويين). وقد أصبحت الدراسة بشكل سريع دراسة مثيرة للجدل سيطرت على مسألة بحث الأسباب السيكولوجية للفاشية، وكانت ساخرة إلى حد كبير

بحسب تعبير جاي (Jay) ؛ إذ كان لها «تأثير معرفة أدورنو في عقول معظم الأمريكيين على أنه نوع من البحوث العلمية الاجتماعية التي كانت سطحية في أفضل موضوعاته الأساسية».

إن الكثير مما يمثل منهجية أدورنو الكلية وأعظم إنجازاته هي مجموعة من الأقوال المأثورة في دقائق الأخلاق: انعكاسات من الحياة المدمرة (Minima Moralia: Reflections from Damaged Life) ، كتبها في منفاه في أمريكا. ووصف أدورنو تلك المجموعة بأنها أعمال «العلوم السوداوية»؛ إذ إنها كتبت في ظلال الفاشية والستالينية والهوليوودية. ويقدم هذا العمل تحذيراً قوياً أن «الحياة الخاطئة لا يمكن أن تعاش بشكل صحيح». وقد عاد أدورنو إلى فرانكفورت عام 1949، وذاع صيته سريعاً كمفكر ألماني رائد. وكذلك ساهم في إعادة بناء معهد البحوث الاجتماعية، وأصبح مديراً له في النهاية عام 1958. واستمر أدورنو في الكتابة بغزارة، حتى سطع في عام 1952، في In Search of Wagner (في البحث عن فاغنر)، وهو نقد للموسيقي ريتشارد فاغنر، ومن ثم الـ Prism الذي نشره بعد ذلك بثلاث سنوات، وهو عبارة عن مجموعة مقالات في النقد الثقافي. وبعد ذلك بثلاث سنوات نشر عمله Dissonaces: Music in the Ad-ministered World .

واستمر أدورنو بنشر أعماله بمعدلات مذهلة من حيث سلسلة تنوع الموضوعات الأدبية والموسيقية، حتى وافته المنية بغتة في العام 1969. وجُمعت أعماله في حوالى 23 مجلداً.

تقلبت الثروات الفكرية لأدورنو منذ وفاته؛ فلطالما اتُهم بأنه نخبوي عنيد لا يقدم سوى القليل مما لديه من فكر مختلف كثيراً عن عصرنا. وبالتأكيد، ذوى نجم أدورنو بسبب الفهم الأكثر تفاؤلاً لفالتر بنيامين حول الثقافة الشعبية، بينما رُفض عمله كتأملات ملخصة من قبل أغلب علماء الاجتماع والماركسيين ومن شابههم. فعلى سبيل المثال يتهمه كارل بوبر (Karl Popper) «بتفاهات الحديث الساذج بلغة بليغة». وليس هناك شك في أن أدورنو قد تصعب قراءة أعماله إلى حد يقترب من الاستحالة، لكن هذا الأسلوب منه كان متعمداً إلى حد ما. فقد انتقد اللغة ذاتها باعتبارها لغة مشوهة، ورفض أن يبسط أفكاره المعقدة، فكأنما كان يطلب من القارئ تركيزاً قوياً من الجهد للارتفاع إلى مستوى أقواله التي «تنتشر في عينيك كأفضل نظارة مكبرة».

أحد أكثر الانتقادات البحثية لمشروع أدورنو جاء في تقييم يورغن هابرماس (Jürgen Haber-mas) لـ Dialectic of Enlightment «منطق التنوير». يجادل هابرماس ـ وهو أحد طلاب أدورنو السابقين ـ أن المنطق الذرائعي ليس أمراً غير محدود أو شامل كما يدعي أدورنو. ولكن إذا كان لا بد من الاعتقاد بمذهب أدورنو، فلا بأس بذلك. ومن الناحية السياسية، يحول ذلك دون إمكانية إدراك أهداف النظرية النقدية، ومن الناحية الفلسفية يستثني إمكانية تحليل أدورنو المنطقي لهذه الظروف. ويتهم هابرماس أدورنو، بقضاء الوقت في «التناقض الأدائي»، لكنه تناقض يتوقع بدرجة كبيرة معضلات أساسية للنظرية الاجتماعية في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد ساعد نقد هابرماس في تمهيد الطريق لقراءات أدورنو ما بعد التكوينية، بينما أصحاب النظريات ما بعد الكولونيالية رأوا في «الأخلاقيات الدقيقة» سرداً واضحاً للمنفى، فيما عمدت الحركات النسوية إلى استخدام «منطقه السلبي» في كشف مذهب الذاتية. وما لا شك فيه أنه يسهل تصوير أعمال أدورنو على نحو كاريكاتيري، إلا أن دقة وعمق تفكيره يضمنان بقاءه في طليعة النظرية الاجتماعية المعاصرة.

انظر أيضاً: سيغموند فرويد ، جورج لوكاش، هربرت ماركوس، كارل ماركس، ماكس فيبر.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists : Jean Baudrillard, Jürgen Habermas.

أهم الأعمال:

Dialectic of Enlightenment (with Max Horkheimer). 1947. London: Pen-guin, 1973.

The Authoritarian Personality (with Else Frenkel-Brunswick, Daniel J. Levinson and R. N. Sanford). 1950. New York: Norton, 1969.

Minima Moralia: Reflections from Damaged Life . 1951. London: New .Left Books, 1974

The Stars Down to Earth and other Essays on the Irrational in Culture . .1952-3. London: Routledge, 1994

Prisms: Cultural Criticism and Society . 1955. London: Neville Spearman, .1967

.Negative Dialectics . 1966. London: Routledge, 1973

The Culture Industry: Selected Essays on Mass Culture . Various dates. .London: Routledge, 1991

قراءات إضافية:

Susan Buck-Morss. The Origin of Negative Dialectics: Theodor W. Adorno, Walter Benjamin, and the Frankfurt Institute . New York: Free .Press, 1977

Nigel Gibson and Andrew Rubin, eds. Adorno: A Critical Reader . Oxford: .Blackwell, 2002

Simon Jarvis. Adorno: A Critical Introduction . Cambridge: Polity Press, .1998

.Martin Jay. Adorno . Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984

إدوارد إيفانز ـ بريتشارد (Edward Evans-Pritchard)

ولد إيفانز ـ بريتشارد عام 1902م، لأحد رجال الكنيسة الأنغليكانية، وتلقى تعليمه في كلية وينشستر قبل أن يلتحق بجامعة أكسفورد حيث درس التاريخ. ومع ذلك فإن خلفيته ومهنته كانتا أقل مما توحيان به، فقد كان والده من كارنارفون ويتحدث لهجة ويلز، بينما كانت عائلة والدته من ليفربول. وبسبب استيائه من الملوك والمعارك، فقد اتجه إلى دراسة التاريخ الذي صاغ مجال عمله في الأنثروبولوجيا التي كانت تبدو بما تحتويه من اكتشاف ومغامرة أكثر جذباً له. وقاده هذا إلى الالتحاق بمدرسة العلوم الاقتصادية في لندن التي كان يقوم بالتدريس فيها كل من عالمي الأنثروبولوجيا الكبيرين تشارلز سيليغمان وبرونسلو مالينوفسكي في منتصف عشرينيات القرن العشرين (1920 ـ 1930). واقتفى إيفانز ـ بريتشارد آثار سيليغمان، فغمر نفسه لفترات في العمل الميداني في السودان بين عامي 1926 و1940م، وفى سيرينايكا (ليبيا) خلال الحكم العسكري البريطاني لهذه البلاد. وقد خلف ألفريد براون كأستاذ للأنثروبولوجيا الاجتماعية في جامعة أكسفورد (1945 ـ 1970)، ودرس بمعهد الدراسات العليا والبحث الذي نال شهرة عالمية، كما قام بتدريب الكثير من مدرّسي هذا العلم المحترفين. وكان يحظى باحترام كبير من قبل علماء ودارسي الأنثروبولوجيا الاجتماعية ليس في العلوم الاجتماعية فحسب، بل في العلوم الإنسانية الأخرى مثل علم النفس والفلسفة واللغويات والأدب المقارن. ومات عام 1973.

كان اهتمام إيفانز ـ بريتشارد بالأنثروبولوجيا يعتمد بشكل أساسي على أصالة وجودة محيط عمله وانعكاساته النظرية على حياة الأشخاص في مناطق غير معروفة من العالم لكثير من الدارسين. وقد قدم في أواخر حياته، مجموعة من المقالات والتقييمات النظرية عن الطبائع البشرية البدائية وطرق التفكير الأساسية المهمة جداً. ومع ذلك فإن أعماله الأولى، التي كانت سبباً في شهرته، كانت تعتمد على دراسات تحليلية مشتقة من بحوثه الإثنوغرافية (أصول الأعراق والثقافات). ونتيجة ذلك، وحتى قبل موته، أصبح إيفانز ـ بريتشارد عالماً مشهوراً في مجال الأنثروبولوجيا، وقد كان مغزاه إيجاد

فهم مقارن للطبيعة الاجتماعية المشتركة المتميزة لأشكال الحياة البشرية وتجاربها. (انظر على سبيل المثال كتابه Social Anthropology).

لقد أصبحت تحليلاته لأفكار قبيلة أزاند الخاصة بالموارد البشرية للشر والبؤس والممارسات المطلوبة للتحكم بها، ذات تأثير واسع للمناظرات التي تقوم في علم الفلسفة حول الأسس الاجتماعية للمعرفة. والمدهش أن قبيلة أزاند بتفكيرها المميز وأسلوبها الماهر في تحديد هوية الساحرات عن طريق العرافين (الذي يعد أمراً عجيباً تماماً للكثير من القراء) قد ساعد في تعريف ماهية الأنثروبولوجيا الحديثة. وما يدعو إلى السخرية هو أن جاذبية أزاند وتقاربها مع أشكال الثقافة النسبية الجديدة، جعل الطلاب يتساءلون «ولماذا لا يعتقد الأزانديون في السحر ما دام يتناسب مع حيواتهم.. ومن نكون نحن حتى ننتقدهم؟». ولكن هذا ليس رأي إيفانز ـ بريتشارد. فعلى العكس من ذلك، فإنه يوضح أن معظم السكان الأصليين العاديين غير مرتاحين لوجود السحر، لكن أصحاب النفوذ هم من يلقون التهم على البسطاء من حولهم. ويتحكم الملوك والأمراء ممن اتسم بعضهم أحياناً بالوحشية بالعرافين. وحتى على مستوى الأسر، فإن الرجال الكبار يتمتعون بحق الدخول على الملوك والأمراء، بينما النساء يحصلن على الحظ الأوفر من الاتهامات. إن تحليل إيفانز ـ بريتشارد، يعتمد بشكل واضح على المضمون السياسي والتاريخي الذي يعطي تفاصيل أكثر من مجرد ذكر الأمور الأساسية، ويمكن إثبات أن العمق الزائد هو الذي يعطي للنص مميزات دائمة.

النوير (Nuer) ـ وهو الكتاب الذي كتبه إيفانز ـ بريتشارد عن شعب النوير ـ كان أول كتاب يدخل حياة ولغة الأنثروبولوجيا الأكاديمية عام 1940. كما إنها كانت أول مرة يتم فيها اختيار علم البيئة للتحليل في دراسة ميدانية. وهو أيضاً أول إثبات للمبادئ العقلانية وراء الفوضى الظاهرة للنزاعات الطائفية وإعادة التجمع المتلائمة بين رعاة يتنقلون عبر مئات الأميال في المقاطعات: يتم زرع المبادئ بلغة قوية عبر تسلسل أبوي. وقد أظهرت المفاهيم المنظومة عن الوقت والمسافة لتشكيل السلالات وإنشاء إطار لفهم مشترك يتم داخله تحليل الفعل السياسي بعيداً عن إطار أي دولة.

وأما الجزء الثالث والأخير من ثلاثية إيفانز ـ بريتشارد، الذي كرسه لقبيلة النوير، فإنه يشجع فيه إقامة حوار مع عِلم مجاور. وقد كُتب Nuer Religion (ديانة نوير) كتحدٍّ لدارسي علم اللاهوت الأكاديمي كي يتناولوا معتقدات تلك القبيلة وطقوسها بشكل جدي.

لقد اعتمد إيفانز ـ بريتشارد في الصورة التي نقلها إلينا عن كووث (Kwoth) «روح السماء»، وهو شخصية عقيدية منظمة، لكنه حقيقة حية مشاركة في الوقت ذاته. وهو يصور لنا في لمحة دينية المواجهة بين الله والإنسان، ويطالبنا بالتعرف إلى الفجوة بين الأديان التاريخية وكتبها المقدسة من جهة، والعوالم التي تزدريها من جهة أخرى، كجاهلية خاطئة وعادات عمياء. والعمل مقدم كتحليل اجتماعي يؤكد أن تنوع المفاهيم والتمثيل يعكس نسبية وجهات النظر داخل مجتمع قبيلة نوير الذي ذكره في كتابه الأول.

لقد تأثر إيفانز ـ بريتشارد كثيراً بمدرسة عالم الاجتماع الفرنسي دوركهايم. وربما بابن أخيه وجامع مادته العلمية، مارسيل موس (Marcel Mauss) . وقد رعى ترجمة سلسلة من المقالات القديمة لمجلة لانيه سوسيولوجيك (L'Année Sociologique) بدءاً من مقالة مارسيل «العطية» «الهبة» (The Gift) الذي ظل نصاً أساسياً في تدريس الأنثروبولوجيا. وكان المشروع الذي ابتدأه في ستينيات القرن العشرين (1960 ـ 1970) بداية لإنشاء مكتبة الأدب الأفريقي بجامعة أكسفورد، وهي السلسلة التي اشتهرت في العقدين التاليين، وكان لها تأثيرها الملحوظ في تطوير الأنثروبولوجيا وقبولها للفن والأداء والسرد، واستخدامات مواد نصوص الشعوب الأصلية.

وفي منتصف ستينيات القرن الماضي (1960 ـ 1970)، أصبح إيفانز ـ بريتشارد، كغيره ممن أصبحوا مندمجين في حياة السودان بطريقة أو بأخرى، غاضباً ومصدوماً بسبب الحرب الأهلية في السودان وأثرها في من يعرفهم من الشعب ويعرفونه. ولم يعد بإمكانه الإجابة عن النقد الموجه إلى كتاباته الأولى. ولكن كتاباته كانت لا تزال مقبولة لدى الكثيرين. وكان قد وضع بحماس تلك المتناقضات للعلاقات المتعددة التي يتأملها الدارس الحديث مركزاً بطريقة مفيدة على النسبية بين «الذات والآخر» في صنع الهويات الشخصية والهويات الجماعية فيما نقوم اليوم بإعادة صوغ علاقة النظرية القطعية. لقد وضع إيفانز ـ بريتشارد حواراً بين قبيلة أزاند نفسها، وبين نفسه ومساعديه من القبيلة، في صلب التحليل العقيدي والمعرفي الذي قام به فيما بينهم. وقد أبدى احترامه لخصوصية الوعي الديني الداخلي لقبيلة نوير الذين أصبح عالمهم أمراً معروفاً منذ عمله معهم. وإنه لحقيقة واضحة أن إيفانز ـ بريتشارد فشل في أخذ النزعة الكولونيالية في الاعتبار في تحليله أو أن يسمح بتغيرات تاريخية. ومع ذلك، عند إعادة النظر، نجد أن إيفانز ـ بريتشارد كان من

الأساسيين ممن عملوا على إعادة توجيه الأنثروبولوجيا وإدخالها في التاريخ. إن عمله في مجال البحث الميداني، لم يكن غاية في حد ذاته، بل هو على الرغم من أهميته أحد طرائق البحث المتعددة في تحليل الأنثروبولوجيا.

انظر أيضاً: إميل دوركهايم ، مارسيل موس ، برونيسلو مالينوفسكي، ألفريد رادكليف ـ براون.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists : Mary Douglas

أهم الأعمال:

Witchcraft, Oracles, and Magic among the Azande . Oxford: Clarendon .Press, 1937. Abridged ed. issued in 1976

The Nuer: A Description of the Modes of Livelihood and Political Institu- .tions of a Nilotic People. Oxford: Clarendon Press, 1940

.The Sanusi of Cyrenaica . Oxford: Clarendon Press, 1949

.Kinship and Marriage among the Nuer . Oxford: Clarendon Press, 1951

.Social Anthropology . London: Cohen and West, 1951

.Nuer Religion . Oxford: Clarendon Press, 1956

Essays in Social Anthropology . Various dates. London: Faber and Faber, .1962

The Position of Women in Primitive Societies, and Other Essays . Various dates. London: Faber and Faber, 1965.

The Zande Trickster . Oxford: Clarendon Press, 1967.

The Azande: History and Political Institutions . Oxford: Clarendon Press, 1971.

قراءات إضافية:

Talal Asad, ed. Anthropology and the Colonial Encounter . London: Ithaca, 1973.

Wendy James. The Ceremonial Animal: A New Portrait of Anthropology . Oxford: Oxford University Press, 2003.

Peter Winch. The Idea of a Social Science, and its Relation to Philosophy . London: Routledge & Kegan Paul, 1958.

فيلفريدو باريتو (Vilfredo Pareto)

قدم باريتو الكثير من المساهمات الجديرة بالذكر إلى علم الاقتصاد وعلم الاجتماع السياسي. ويعتقد علماء الاقتصاد بأنه ليبرالي كلاسيكي وله ريادة في تطبيق نظرية الاختيار العقلاني على اقتصاديات الرفاهية. وعلى العكس من ذلك، فعلى الرغم من كونه مؤسس علم الاجتماع السياسي، وبالأخص نظرية النخبة، فقد عُرف عنه في هذا المجال، أنه ذلك المتعصب والمناهض للديمقراطية، ويبحث في اللاعقلانية في السياسة. وفي الحقيقة، ظل باريتو إلى حد ما مخلصاً لمُثُله القديمة، ولكنه عزى عدم تحقيقها إلى فشل السياسات الديمقراطية.

ولد باريتو في باريس عام 1848م، وهو عام الثورة الليبرالية لأب راديكالي إيطالي منفي مؤقتاً. سلك درب والده في الهندسة، وتخرج عام 1869م، ومن ثم انتقل للعمل في شركة روما للسكك الحديد، فرع فلورنسا. وخلال هذه الفترة أصبح باريتو منغمساً في المناقشات السياسية ومن المتحمسين لحق لاقتراع العام، والحكم الجمهوري، والتجارة الحرة، ونزع السلاح. وأصبح من المعجبين بهربرت سبينسر (Herbert Spencer) وجون ستيوارت ميل (J. S. Mill) ، أحد أبطال الإصلاح الليبرالي، ومن المناهضين للنظام السياسي الإيطالي الفاسد. وبكونه مجادلاً بانتظام في الصحافة المحلية والقومية، بدأ باريتو يُشتهر كاقتصادي سياسي يدعو إلى السوق. واعتبر باريتو الليبرالية الاقتصادية والسياسية بمثابة مستلزمات منطقية لنموذج الفاعل العقلاني للقوة البشرية. وآمن باريتو بأنه طالما كانت السوق الحرة والدولة المحدودة ضمن المصلحة العامة، فلا بد من ضمان تحقيق النجاح النهائي لهما. ومع ذلك بدا ذلك التفاؤل مربكاً أكثر فأكثر خلال الحقبة ما بين الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر. فقد طبقت الحكومات المتعاقبة ما سمّاه البرجوازية الاشتراكية باعتماد الحمائية واحتكار الدولة لإفادة بعض المؤيدين الصناعيين والزراعيين.

انتقد باريتو الماركسية باعتبارها مذهباً يوتوبياً غير عملي، رغم أنه كان متعاطفاً في البداية مع الاشتراكية الشعبية، ورأى أنها كانت رد فعل ممكن تفهمه إزاء سلوك الطبقة الحاكمة. وأكد بأنه طالما اتبع رجال السياسة البرجوازية الاشتراكية، فإنهم لن يتمكنوا من انتقاد العاملين عند تبنيهم

وجهات نظر متشابهة تساند مصالح طبقتهم، وإن يكن ذلك على المدى القصير فقط. ويمكن فقط وقف بروز الاشتراكية في حالة عودة البرجوازية إلى الأساليب الليبرالية الحق، وتبين للعاملين مزايا السوق. ومع ذلك فقد حاولوا بدلاً من ذلك شراء ولائهم من خلال اللجوء إلى رفاهية الدولة وإجراءات مماثلة. ونتيجة لذلك، أضيفت الاشتراكية الشعبية تدريجياً إلى البرجوازية الاشتراكية، وحلّت في بعض الجوانب محلها في خلق المزيد من العجز وتزايد فرص الفساد. ومنذ ذلك الحين ظل يؤكد فكرة أن السوق الحرة قدّمت الحل المثالي للنظام الاقتصادي، مدافعاً عن هذه الفرضية من خلال عدد من الأعمال المهمة عقب تعيينه أستاذاً جامعياً لعلوم الاقتصاد السياسي في جامعة لوزان بسويسرا عام 1893م. ولم يكمن تفسير هذا التطور لا في التغييرات في طبيعة الرأسمالية ولا في عيوب الاقتصاد السياسي الليبرالي. وبدأ باريتو يؤمن أن الجواب يكمن في الجاذبية السيكولوجية للأفكار غير المنطقية وغير العقلانية للعامة، وقدرة النخبة على استغلالهم للفوز بالسلطة.

يوضح علم الاجتماع السياسي، الذي طوّره باريتو في العقد الأول من القرن العشرين، ببساطة هذا التشخيص لطبيعة السياسات الإيطالية التحويلية، إذ قام أولاً بإلقاء الضوء على نظريته في دراسته الأنظمة الاشتراكية (Socialist Systems) ، والتي نشرت عام 1992م. ومن خلال هذا العمل تتضح نظرية النخبة السياسية كبديل للماركسية، وكنقد وتفسير لجاذبيتها. وقد تم استبدال النزاع الطبقي بتداول النخبة، والبروليتاريا بالجماهير. وتم اعتبار مستقبل من دون هيمنة هو وهم، إذ يحدث حكم النخبة الاستغلالي في كل الأنظمة، وأن الملكية الخاصة ما هي مصدر واحد للقوة والسلطة. وربط باريتو قوة جذب الاشتراكية بدين العصر الألفي السعيد: من حيث كونه عاطفياً أكثر من كونه عقلانياً. وكانت بعض المفاهيم مثل «الإرادة العامة» و«الصالح العام» أو حتى «السيادة الشعبية» غير مترابطة في ذاتها؛ فقد قدمت بكل بساطة شرعية زائفة لاستبدال أحد الرأسماليين بآخر من النخبة الاشتراكية.

ساهمت الكتابات اللاحقة لذلك، والتي بلغت أوجها في بحث السوسيولوجيا العامة (Treatise of General Sociology) في العام 1916م، في إلقاء الضوء على آليات علم النفس الاجتماعي ذات الصلة. فقد أكد باريتو أن البشر تُحركهم العديد من الفُضلات العاطفية. وهذه العواطف يمكن التلاعب بها فيما بعد من خلال أساليب جدل معينة، وهو ما سمّاه «الاشتقاق». وعلى الرغم

من أنه عدّد حوالى 52 فضلة، كان أهمها «غريزة التآلف» و«مواصلة التكاتف». وقسم باريتو، متمثلاً بميكيافيللي، النخب السياسية إلى ثعالب وأسود معتمداً على وجود هاتين الفضلتين لديهم. ففضل الأوائل «الدهاة» الذين تمكنوا من الحكم عن طريق القبول، وأما القسم الثاني فقد كان لديه طبيعة محافظة، ونزعة لاستخدام القوة. وهذان الاثنان من النخب السياسية استطاعا الحصول على السلطة عن طريق الاستفادة من دعم ائتلاف من مجموعات اجتماعية واقتصادية غير متجانسة تتمتع بصفات متوازية ومرتبطة بـ «مضاربين» و«أصحاب الدخل». وأكد باريتو بأنه كان هناك تداول دوري بين النخبة تتناسب مع الدورات الاجتماعية والاقتصادية. وبالتالي يتودد الثعالب إلى المضاربين إما ضمنياً أو بمساعدتهم بشكل إيجابي في سلب ذوي الدخل بجعلهم مدخرين من صغار البرجوازية أو من المساهمين (Shareholders) الأساسيين. ومن حيث المبدأ، يشكك الرخاء بالأخلاق المتوارثة وازدهار المستهلك. ومع ذلك يمكن أن يقع كل من الحكومة والشعب في ربقة الديون بسبب الإفراط في الاستهلاك اعتماداً على الديون؛ في حين أن ندرة رأس المال ونقص الاستثمارات المنتجة يمكن أن يؤديا إلى حدوث حالة انكماش اقتصادي. ومن المفترض أن تكون الحاجة إلى ضبط النفس والتوفير أمراً جلياً، وأن تحتل حكومة الأسود الصدارة بدعم من ذوي أصحاب الدخل. وعلى الرغم من ذلك، ففي النهاية سيبدأ الاقتصاد الدخول في حالة ركود، ومن ثم سيسأم الناس من نظام الأسود، ما يمهد إلى بروز الثعالب والمضاربين مرة أخرى، وتبدأ حينها دورة جديدة.

ادعى باريتو بأنه يصف ظاهرة عالمية، لكنه في الأغلب استخدم أمثلة استمدها من التاريخ القديم لتوضيح موضوعية نظريته. وعلى الرغم من كل ذلك ظهر السياق الإيطالي في غاية الأهمية حين تطبيقه على الديمقراطية في كل من الفصول الأخيرة من الـ Treatise ، ومقالاته المختلفة التي كتبها عقب الحرب العالمية الأولى. وقد جمعت تلك المقالات في كتابه الأخير الذي طبع عام 1921 وهو بعنوان التحول الديمقراطي (The Transformation of Democracy) . وأكد فيه أن إيطاليا تقع في قبضة ديمقراطية ـ بلوتقراطية. فقد قدمت الديمقراطية البرلمانية الأداة المثالية للساسة أشباه الثعالب لإنشاء شبكة من المحسوبين تتكون من المضاربين. ولدرجة ما، كان للعمال والبلوتقراطيين قضية مشتركة. فإذا رغب العمال في رفع الأجور والإعانات الاجتماعية، رغب الآخرون في علاوات وإعانات حكومية أكبر؛ فكل منهما يرغب في مصادرة ما زاد على حاجة

أصحاب الدخل، ورفع الضرائب من أجل توسيع الدولة. ومع ذلك كان لا بد من افتراق دربيهما عند نقطة معينة. وعند ذلك أبدى باريتو خشيته من احتمال سيطرة الديمقراطية على البلوتقراطية. وبرأيه فإن نظام المحسوبية يشجع على الجذب المركزي ما يتسبب في تشتت سلطة الدولة، وخلق ما سماه بالإقطاعية الجديدة للنبلاء المتصارعين، متمثلاً في الصراع بين العمالة المنظمة والفاشيين. وفوق ذلك، يشجع عدم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي قوى الجذب المركزي المنادية بالعودة إلى السلطة. وقد توقع في البداية استيلاء الاشتراكيين على السلطة وفق النموذج البلشفي، ولكنه كان سعيداً بالقدر نفسه بقبول بروز حكم «بينيتو موسوليني» كبرهان رائع على «تنبؤات الدراسات الاجتماعية والعديد من المقالات». وفي الواقع لم تكن نظرية باريتو إلا تفسيراً بأثر رجعي لنظرته الجامحة للوضع في إيطاليا، والتي أعاد من خلالها تفصيل هذه الأحداث في ضوء المعايير الخاصة بنظريته، ثم أعاد سردها من خلال الأحداث الماضية كقوانين كونية للسلوك البشري. وعلى الرغم من كونه مناهضاً للديمقراطية، فهو لم يكن فاشياً قط. فقد اعتبر الدولة وسيلة سلب لمن يديرها. ولولا أنه توفي عام 1923م، لكان اعتبر من دون شك نظام موسوليني نموذجاً لبلوتقراطية ديماغوجية. وكانت تكمن صعوبته في استبعاده إمكانية تحقيق النظام الذي يرغب فيه، وهو نظام اقتصادي يعتمد على السوق الحرة في ظل دولة ليبرالية.

انظر أيضاً: جيتانو موسكا، ليستر وارد.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , George Homans, C. .Wright Mills, Talcott Parsons

أهم الأعمال:

The Mind and Society , 4 vols. 1916. Trans. of the Treatise . New York: .Jonathan Cape, 1935

The Transformation of Democracy . 1921. Ed. C. H. Powers, trans. R. Gir-
.ola. New Brunswick, NJ: Transaction Books, 1984

يمكن الاطلاع على مقتطفات من أعمال باريتو في:

The Other Pareto . Ed. P. Bucolo, trans. P. and G. Bucolo. London: Scolar
.Press, 1980

قراءات إضافية:

Richard Bellamy. Modern Italian Social Theory . Cambridge: Polity Press,
.1987

Joseph Femia. The Machiavellian Legacy: Essays in Italian Political
.Thought . Basingstoke: Macmillan, 1998

Samuel Finer. Pareto and Pluto-Democracy: The Retreat to Galapagos.
.American Political Science Review , 62, 1968

تشارلز بوث (Charles Booth)

ولد تشارلز بوث عام 1840، لأسرة تجارية في ليفربول، وتلقى تدريباً في شركة شحن وهو في السادسة عشر من عمره، ثم انضم إلى أخيه ـ ألفريد ـ في تجارة الجلود عام 1862، وأسّسا معاً فيما بعد شركة شحن ناجحة. وقد ظل تشارلز يعمل في هذه الشركة على نحو نشط حتى تقاعده عام 1912. وكان بوث قد نأى بنفسه عن طبقة رجال أعمال ليفربول غير الممتثلة للأعراف والعادات التي فيها. وبعد زواجه عام 1871، من ماري ماكولاي استقر في لندن. وقد تأثر بوث مبكراً بالفلسفة الوضعية. وعمل في عام 1886 في دراسة استقصائية رئيسية للندن بعنوان «الحياة والعمل». واشتهر بسببها، إذ تعتبر بشكل عام أنها بداية الدراسة النظامية للفقر في بريطانيا. وكان مقياس الدراسة الاستقصائية، يعني أنه بينما كانت النتائج تنشر بشكل متسلسل، فإنها تحتاج إلى أكثر من 15 عاماً قبل نشر الطبعة الكاملة من المجلد السابع. وقد أدى عمله في الدراسة واهتمامه بمشاكل الفقراء إلى مشاركته في حملة من أجل معاشات تقاعد كبار السن والترويج إلى التخلص من العمل العرضي. وقد توفي عام 1916 بسكتة دماغية.

بدأت دراسة «الحياة والعمل» الاستقصائية مع دراسة إرشادية في تاور هاملیتس. عيّن بوث بعد ذلك العديد من الباحثين للمساعدة في القيام بدراسة شاملة للندن بأسرها. وقد بحثت تلك الدراسة الاستقصائية ثلاثة موضوعات أساسية، وهي الفقر والمهن والدين. ومن بين الباحثين الذين عملوا معه، مثل بياتريس ويب، هناك الكثير منهم ممن اشتهروا في الأبحاث الاجتماعية. ويعتبر هوبرت ليويلين سميث نموذجاً آخر من هؤلاء الباحثين الأساسيين الذي أصبح باحثاً اجتماعياً بارزاً، وتولى الإشراف في العام 1928 على دراسة استقصائية مكررة لدراسة بوث باسم «دراسة الاستقصائية الجديدة لحياة وعمل لندن» (New Survey of London Life and Labour) .

لم تهدف دراسة بوث الاستقصائية إلى التعرف إلى الفقر والعاملين في المهن المختلفة فحسب، لكنها هدفت كذلك إلى تصنيفهم. ويمكن ملاحظة التشديد على التصنيف والتقسيم الفرعي إلى أنواع في عمل جمعية المنظمة الخيرية (انظر هيلين بوزانكيت) وفي دورية مفصلة أصدرها هنري مايهيو

(Henry Mayhew) في وقت مبكر جداً. وبهدف قياس الفقر، قسّم بوث العمال إلى ثماني فئات، من الأكثر فقراً إلى الأكثر تحسناً في الظروف، وعنونهم بالحروف من A إلى H . ولخصت هذه الفئات الظروف الاقتصادية، لكنها أيضاً كانت لها أبعاد أخلاقية، فحرف " A " يمثل المجموعات غير الفعالة أو الجماعات المنحرفة أو الإجرامية.

وباستخدام هذه التصنيفات، حدّد بوث أن حوالى 30 في المئة من السكان كانوا يعيشون في فقر. وقد نسب بعض هذا الفقر إلى افتقاد النمو القوي أو الإدارة أو «الخمول»، لكن تلك الدراسة الاستقصائية كشفت أيضاً الأجور المتدنية التي ترتبط بوظائف العمل غير ماهرة، وأكثر من ذلك، كشفت مشكلة العمل المتقطع الذي لا يعتمد عليه، وهي طبقة «العمالة العرضية» التي صُنّفت على أنها «الأكثر فقراً». وكان بوث في دراسته متعاطفاً مع وضع الفقراء وانعدام الأمن بالنسبة إليهم في ظل ظروف السن والدوائر التجارية التي لا يمكنهم السيطرة عليها. وفي الجانب الآخر، كان يميل، بحسب المدى الزمني، إلى أن أسباب الفقر كانت تكمن في فشل الشخصية. ومن الصعوبات التي واجهته في تحديد أسباب الفقر، أنه لم يكن قادراً على نسب المسؤولية إلى «عدم الانتظام في اكتساب الرزق، وإلى عدم الانتظام في السلوك»، وإدراك أن «المرء يميل إلى معاقرة الخمرة عندما يكون كسولاً، كما أنه يفقد عمله أيضاً بسبب عادات إدمان الشرب».

بعد أن قسم بوث السكان إلى فئات مختلفة، تمكن من وضع خريطة توزيع تلك الفئات. وأحد أبرز النماذج الدراسية كانت خرائط الفقر التي صنّفت كل شارع بلون مناسب طبقاً لفئته. وفي تلك الدراسة أفصح بوث عن مفهوم وجود عنصر المكان بالنسبة إلى الفقر ـ فإن جيرانك من العوامل التي تحدد ظروفك الخاصة. وتوضح الخرائط أيضاً أهمية الاهتمام الإطار البيئي للفقر. وفي عام 1842، قام إدوين تشادويك (Edwin Chadwick) ، بالربط بين معدلات الوفيات المختلفة والفوارق في ظروف الحياة في المناطق المختلفة. ولكن قبل خرائط بوث، كانت التفسيرات البيئية تميل إلى إبقاء الاهتمام بشكل أساسي على موظفي الصحة المحليين. لذلك أدخل بوث موضوعات بيئية إلى الدراسات الإمبريقية الاجتماعية.

لقد انتُقدت الدراسة الاستقصائية بشدة بسبب منهجها، حيث استخدم بوث زوار مجلس المدرسة ـ وأولئك الذين أخذوا على عاتقهم التأكد من حضور الأطفال إلى المدرسة ـ لجمع المعلومات عن

ظروف أسرهم. ومع ذلك فإن تقديره الاستقرائي من هذه النتائج للأسر التي لا يوجد لديها أطفال يذهبون إلى المدارس، كانت تخمينية. وفضلاً عن ذلك، كانت «تعريفاته» لمستويات الفقر لفئات الأسر المنزلية وصفية، ولم تنتهج معايير محددة. وبالفعل، بقي السبعة عشر مجلداً بأكملهم ـ التي زخرت بالتفاصيل المذهلة ـ عملاً وصفياً بشكل أساس أكثر منه عملاً تحليلياً.

على الرغم من ذلك، أحدثت الدراسة تأثيراً كبيراً في المجتمع الفيكتوري وفي الأبحاث الاجتماعية. فالخرائط هي عبارة عن تفسيرات نظامية للمهن والتحذير من مشكلات العمل غير المنتظم، وإشارة إلى دور عوامل البيئة وعوامل المكان في أسباب الفقر. وتؤكد المقادير الكبيرة من عوامل الفقر التي حددها بوث، أهميتها الواسعة المدى. وكما كانت دراسة بوث حافزاً لدراسة ليويلين سميث الاستقصائية المكررة للندن، فقد كانت كذلك الحافز لدراسة سيبوم راونتري (Seebohm Rown-tree) المؤثرة ليورك (York) التي حاولت تحليل يورك طبقاً لفئات بوث، بينما طورت أيضاً معياراً أكثر نظامية للفقر؛ فضلاً عن ذلك، دفع بحثه ـ حتى بالنسبة إلى بوث نفسه ـ الاهتمام الخاص بحالات الفقر السابقة وتأثير العمل العرضي على قوة العمل ككل. وقد شن بوث حملة بحماس من أجل معاشات تقاعد كبار السن حتى بداية خطة المعاش الحكومي عام 1908.

وبالنسبة إلى القراء المعاصرين، كان اهتمامهم بدراسة «الحياة والعمل» الاستقصائية يكمن في احتوائها على وثائق تاريخية أكثر من كونها مناسبة من حيث المنهجية أو دقة تحليل الفقر. وتبقى الدراسة لا مثيل لها من حيث المدى والقياس، وتكمن أهميتها في ارتباطها بعدد من العناصر المختلفة ـ مثل تحليل الإحصاءات الرسمية عبر بيانات الدراسة الاستقصائية ذاتها ـ وأيضاً: تعدد مجالات مقارباتها: الملاحظة، والتحقق، والحسابات الرقمية والوصف الجغرافي. وتقدم الدراسة أيضاً مصدراً فريداً من نوعه في أن المدونات الأصلية الميدانية ومواد الدعم الأخرى قد تم حفظها، ما ولّد طبقة أخرى من التفاصيل الخاصة بالنتائج التي تم نشرها، وتقديم نظرة متفحصة مباشرة لطرائق الدراسة الاستقصائية التي استُخدمت. والدخول إلى تلك المدونات، الموضوعة في كلية لندن الاقتصادية، وأيضاً إلى الإصدارات المباشرة للخرائط، أصبح ممكناً بواسطة موقع واسع الانتشار على الإنترنت ، الذي يقدم نظرة متفحصة رائعة لنماذج حياة لندن في نهاية القرن التاسع عشر.

انظر أيضاً: هيلين بوزانكيت ، بنيامين سيبوم راونتري، بياتريس ويب.

أهم الأعمال:

The Life and Labour of the People in London . 17 vols. London: Macmil-
.lan, 1902-3

قراءات إضافية:

.Mary Booth. Charles Booth: A Memoir . London: Macmillan, 1918

Josie Harris. Booth, Charles (1840-1916)}, in: H. C. G. Matthew and B. Harrison, eds. Oxford Dictionary of National Biography: In Association with the British Academy: From the Earliest Times to the Year 2000 . Ox-
.ford: Oxford University Press, 2004

Ernest P. Hennock. Concepts of Poverty in the British Social Surveys from Charles Booth to Arthur Bowley, in: M. Bulmer, K. Bales and K. Kish Sk-
lar, eds. The Social Survey in Historical Perspective . Cambridge: Cam-
.bridge University Press, 1991

Rosemary O'Day and David Englander. Mr Charles Booth's Inquiry: Life and Labour of the People in London Reconsidered . London: Hambledon
.Press, 1993

هيلين بوزانكيت (Helen Bosanquet)

كانت هيلين بوزانكيت (ني داندي née Dendy) صاحبة نظرية اجتماعية اهتمت بالفقر، وكانت رائدة في ممارسة الأعمال الاجتماعية المعاصرة. ولدت هيلين في مانشستر عام 1860، وأكملت تعليمها عام 1889 في كلية نيونهام، في كامبردج، حيث درست العلوم الأخلاقية. وبعد تخرجها، انتقلت إلى لندن وعملت سكرتيرة إقليمية للجنة شوريديتش (Shoreditch Committee) بجمعية المنظمة الخيرية (Charity Organisation Society) . واستمرت في العمل فيها بقية حياتها النشطة. وقد قادها اهتمامها بالفلسفة الأخلاقية إلى الجمعية الأخلاقية بلندن (London Ethical Society) ، حيث قابلت الفيلسوف برنارد بوزانكيت الذي تزوجت منه في العام 1895. بعد زواجها تخلت بوزانكيت عن العمل مدفوع الأجر، وأمضت وقتاً أطول في تدوين أفكارها ورؤاها. فتولت تحرير Charity Organisation Review (وهي لسان حال جمعية المنظمة الخيرية) بين عامي 1909 و1921، وهي عضو جمعية المنظمة الخيرية. مات برنارد عام 1923، فكتبت مذكرات حياته، وماتت هي في العام 1925.

تعد «مشكلة الفقر» دليلاً حياً على الحرمان والفساد السياسي وسط الترف، وهو موضوع برز في أواخر العصر الفيكتوري. وقد بحث أصحاب النظريات الاجتماعية والناشطون في تفسيرات هذه الظاهرة. فنظرت جمعية المنظمة الخيرية إلى هذه المشكلة باعتبارها مشكلة «الفقراء» أنفسهم. وبحث العاملون في الجمعية عن حلول من خلال منهج احترافي فعال للمنح الخيرية. فبينما شددت الجمعية على التنسيق الفعال لجهد حب البشر على المستوى المحلي، حوّلت هيلين تركيزها إلى الاهتمام بالعمل بفاعلية مع طالبي الصدقات من أجل تعزيز اكتفائهم الذاتي على المدى البعيد. وقدم برنارد وهيلين بوزانكيت، تعزيزاً نظرياً لهذا العمل، وعرّفا بوضوح دور ومهارات تقصي السيرة (دراسة الحالة).

هناك نقاشات تقول إنه يمكن رفض روح الجمعية وفلسفتها باعتبارهما رجعية من دون المزيد من الاهتمام، وذلك بسبب معارضتها القوية للأعمال الخيرية غير المخطط لها وتشديدها على الاقتصاد

ومسؤولية الأسرة. وعلى الرغم من ذلك، فإن تطوير الجمعية لتقصي السيرة، وإنشائها تدريباً على العمل الاجتماعي الاحترافي مع كل من العناصر المتخصصة والعامة، كان أمراً مبتكراً ومركزياً لتطور دولة الرخاء البريطانية. هذه الازدواجية في النظرية المحافظة المعززة للممارسة التقدمية لم تعكس على الرغم من ذلك بشكل تام تعقيد منهجية جمعية المنظمة الخيرية في التعامل مع الفقر. وقد كانت هناك بشكل واضح عناصر تدعو إلى عدم التدخل في جمعية المنظمة الخيرية، ولا تتعاطف بصرامة مع الفقراء، بالنظر إليهم كفئة منعزلة، وترى أن كل الإعانات محفزات مقوضة للعمل، وأن كل تطبيقات الدعم تستحق الشجب أخلاقياً. لكن المبادئ وممارسة الجمعية التي عبرت عنها هيلين بوزانكيت كانت أكثر تعقيداً (انظر على سبيل المثال: Social Work in London).

أكدت بوزانكيت إمكانية التطوير والمواطنة النشطة للمعدمين. وكونها كانت متفائلة بإمكانات أسر طبقة العمال، وبصفة خاصة نساء الطبقة العاملة، أكدت أنه يجب دعم الأفراد والأسر لتعاملوا ويرفعوا من مستوى سوء أقدارهم. لقد كان من المهم فهم سبب الفقر في إطار قدرة الفرد على التعامل معه، ويجب بعدها على متطوعي الجمعية أو (متقصي السيرة) أن يعملوا مع الأفراد وأسرهم للتركيز على زيادة فهمهم لمآزقهم وعلى حلول الفقر طويلة الأجل، ومساعدتهم على اتخاذ الإجراء المناسب. وربما يشمل ذلك تشجيع الهجرة من الأماكن التي نتجت منها البطالة بسبب التغير الصناعي أو توفير التعليم لرخاء الطفل.

بالنسبة إلى بوزانكيت، كان من الضروري أن تعرف الطبقات المختلفة بعضها بعضاً (انظر: Rich and Poor).

وبدلاً من «القيادة بالقدوة»، أكدت بوزانكيت أن على متقصي السيرة أن يفهم منظور المتلقين لمساعدته. ومع ذلك، توقعت أيضاً من متقصي السيرة أن يتعامل من خلال فهم صحيح لمأزق الذين يتعامل معهم وأسبابهم من خلال دراسة مفصلة بما في ذلك السؤال عن الأسرة والجيران.

لقد كانت كرامة الفرد مهمة لبوزانكيت، ولكن منهج عمل الحالة يتناقض مع ما كان يعتبر أنه إهانة وإعانات غير كافية. ومع ذلك، كان هناك اعتراف بسيط بالطبيعة التطفلية للدراسات التفصيلية وحجم الاستياء من ذلك التطفل. وكان يتم اعتبار وحدة الأسرة أساساً لتطور الفرد ومصدراً للاعتماد

التبادلي والمسؤولية (انظر كتاب The Family). كان ينظر إلى أي اغتصاب لأدوار الأسرة من قبل الدولة على أنه خطير ومثبط للإنتاجية. لذلك، تمت مقاومة الوجبات المدرسية المجانية بقوة على الأسس التي تقول إنها تقوض مسؤولية الوالدين. ومع ذلك حاول عاملي الحالة أنفسهم دعم العلاقات الأسرية الملائمة، وقد كان هناك إمكانية تمزيق حياة الأسرة بواسطة إصدار أحكام قضائية تمس أدوار الأسرة الملائمة.

احتاج التشديد على الكفاءة العالية لمرشدين اجتماعيين لتشخيص ـ على المستوى الأسري ـ أسباب الفقر، ومن بعد ذلك دعم أعضاء الأسرة لتحسين مستواهم، إلى محترفين مدرَّبين. وفي عام 1903، أُسِّست مدرسة جمعية المنظمة الخيرية لبدء تدريب مرشدين اجتماعيين محترفين في المملكة المتحدة. وكانت بوزانكيت مؤثرة في تحديد ما يتم تعليمه، وأن يغطي التدريب كل من المهارات التطبيقية والتعليم الأكثر عمومية. وقد تم دمج المدرسة في كلية لندن الاقتصادية عام 1912، وتم تطبيق الكثير من نماذج مناهجها واتجاهاتها في التدريب على العمل الاجتماعي داخل دولة الرفاهية ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وجهت بوزانكيت خبرتها في الحياة بين الفقراء منذ بداية عملها مع جمعية المنظمة الخيرية. وأحضرت تلك الخبرة إلى تحليلها لأسر طبقة العاملين، وقدمت أمثلة تتناسب مع كتاباتها. ولم يكن من غير المناسب، وبالنسبة إليها، أن تدون مقولات عامة على أساس حكايات، إذ كانت فلسفتها، وليس دراستها هي التي قادت إلى تفسيراتها. وبالفعل، انتقدت بوزانكيت محاولات التوصل إلى تفسيرات عرضية من خلال عرض «الحقائق». وكانت تشكك بشدة في الإحصاءات. ولذلك أعطت الأولوية «لمعرفتها» على الأدلة المقدمة التي قدمتها نتائج راونتري عام 1901، حول مدى الفقر في مدينة يورك. ومن خلال مقاومتها فكرة أن العاملين في أعمال منتظمة يمكن ألا يملكوا مداخيل كافية بشكل مناسب لدعم أسرهم، وهو الأمر الذي سيقوض الكثير من الأسس الذي حاولت الجمعية أن تفعله، فإنها عارضت بقوة كلاً من طرائقه ونتائجه.

لقد تم تعيين بوزانكيت في اللجنة الملكية حول قوانين الفقر عام 1905، لمراجعة أعمال نظام بدلات الدولة والتي اعتبر أنها ترزح تحت ضغوط كبيرة. وقد عملت بياتريس ويب جنباً إلى جنب مع بوزانكيت. وبينما كانت بوزانكيت القوة الدافعة وراء تقرير الأغلبية، كتبت ويب تقرير

الأغلبية، وهاجمت بوزانكيت في سيرتها الذاتية. وتركز اهتمام تقرير الأغلبية على الاستمرار العمل بـ «قانون الفقراء» كنظام ملجأ أخير، حتى لو لم يكن بالضرورة بالطريقة العقابية المبالغ فيها. (باستثناء ما يتعلق بالقادرين جسدياً، والذين «ينفرون من العمل»). وقد تم التشديد على أن قانون الفقر يجب أن لا يقدم إلى غير الفقراء، وأنه يجب القيام بكل جهد لتشجيع تطور الشخصية، وكذلك تجنب الفقر الشديد، من خلال توسيع منهج عمل الحالة.

ومع ذلك جاءت المناشدة من أجل توسيع تقصي السيرة في وقت كان النشاط التطوعي يتراجع، وليس بسبب الزيادة الوشيكة لرفاهية الدولة والتطورات الرئيسية فيها، وهو ما كان على خلاف مع وجهة نظر الجمعية بخصوص المجتمع الصالح. وبحلول وقت تقديم اللجنة تقريرها عام 1909، أُقرت معاشات التقاعد وتم البدء بتقديم الوجبات المدرسية. واستمر العمل الاجتماعي الاحترافي، بل إنه تزايد ليكون جزءاً من ـ فضلاً عن كونه بديلاً لتطوير رخاء الدولة.

انظر أيضاً: تشارلز بوث، بنيامين سيبوم راونتري، بياتريس ويب.

أهم الأعمال:

.Rich and Poor (as Mrs Bernard Bosanquet). London: Macmillan, 1896

.Social Work in London, 1869-1912 . 1914. Brighton: The Harvester, 1973

.The Family . London: Macmillan, 1915

قراءات إضافية:

Jane Lewis. Women and Social Action in Victorian and Edwardian Eng-
.land. Cheltenham: Edward Elgar, 1991

Royal Commission on the Poor Laws. The Poor Law Report of 1909: A Summary Explaining the defects of the Present System and the Principal

Recommendation of the Commission, so Far as Relates to England and .[.Wales (The Majority Report). London: HMSO, [n. d

غابريال تارد (Gabriel Tarde)

يعد غابريال تارد، أكبر منافس لدوركهايم في نهاية القرن التاسع عشر، ولكن وجهة نظره الاقتصادية أخفقت حين فرضت مدرسة دوركهايم هيمنتها على تطورات علم الاجتماع (السوسيولوجيا) الفرنسي. وقد أعاد بعض علماء النفس النشوئيين المعاصرين في السنوات الماضية اكتشاف، ومناصرة منهج تارد المتميز. ويعتقد هؤلاء العلماء أن التفسيرات السوسيولوجية لسلوك الإنسان تهمل الغرائز الوراثية التي توجه أفعال الإنسان، وميل البشر إلى تقليد أفعال الآخرين. وتُعتبر أفكار تارد أكثر تعقيداً مما يوحي به مؤيدوه الحاليون من علماء النفس النشوئي. والحقيقة أن كثيراً منهم يؤمن بشدة بالمنهجية الاجتماعية التي كان يرفضها تارد أحياناً.

ولد تارد عام 1843م، وعمل محامياً. وقد اهتم بعمل المجموعة الإيطالية لعلم الجريمة برئاسة سيزر لومبروسو (Cesare Lombroso) ، ورافائيل غاروفالو (Raffaele Garofalo) ، وإنريكو فيري (Enrico Ferri) ، التي كانت تسعى إلى تفسير العمليات الإجرامية انطلاقاً من العوامل العرقية والبيئية المرتبطة بها. وعلى الرغم من إعجابه بأسلوبهم البحثي عن قوانين السلوك الاجتماعي، فقد رفض تارد حتميتهم البيولوجية والبيئية، وأكد بدلاً من ذلك أهمية الردود الفردية الاجتماعية. ويرى تارد أن الأشخاص يتعلمون من خلال محاكاتهم لأفعال المحيطين بهم، وأن نزعتهم الاجتماعية للتصرف هي التي تفسر حدوث ارتفاع وانخفاض معدل الجريمة في تعداد سكاني معين ووسط بيئي محدد. وعلى أساس أعماله الأولى في علم الجريمة المقارن والفلسفة الجنائية، فقد تم تعيينه مديراً للإحصائيات الإجرامية بوزارة العدل، وهو المنصب الذي سعى إلى نشر أفكاره من خلاله.

كان تارد قد بدأ بتعميم رؤيته إزاء موضوع السلوك الإجرامي إلى جميع صور السلوك البشري. وفي عام 1890م، قام بنشر كتاب قوانين المحاكاة (The Laws of Imitation) واستخدم فيه نموذج الأفعال البشرية والتفسيرات الاجتماعية لوضع تفسيرات عامة للمؤسسات الاجتماعية، والصراع الاجتماعي في كتبه المتتالية. وقد تم تلخيص هذه النظريات في كتاب القوانين الاجتماعية (Social

Laws) في العام 1898م. وفي هذه الأعمال ـ التي كانت تنشر في الوقت نفسه الذي كان يقوم فيه دوركهايم بتطوير نظرياته عن الانتحار وقوانين المنهج السوسيولوجي ـ وضع تارد صيغة للفردانية الميثودولوجية التي يتم فيها تفسير التنوعات في الظاهرة الاجتماعية، انطلاقاً من عدم تنوع النزعات النفسية على الرغم من تشكلها اجتماعياً.

لقد كانت فردانية تارد منغرسة في اعتقاده بوجود ميل طبيعي للمحاكاة والتقليد. فمن خلال المحاكاة يمكن للابتكار أن ينتشر بين مجموعة ما في المجتمع أو في المجتمع بالكامل. ومع غياب العوائق الطبيعية والاجتماعية، تنتشر الابتكارات بسرعة بصورة منتظمة. وفي الحالات الاجتماعية الحقيقية توجد دوماً تلك العوائق التي تمنع انتشار الابتكارات، فينحصر معدل ونزعة الانتشار في قنوات محددة. ومن الممكن أن لا يتمكن الأفراد من الإفلات من دوائر تفاعل وتزامل محددة. وقد اعتبر تارد أن تلك العوائق الاجتماعية تشمل العوائق النفسية مثل مواقف الكبرياء والتحامل العنصري الطبقي. ومن الطبيعي أن يقوم الناس بتقليد من يعجبون ويتماهون بهم، بينما يكونون أقل تقليداً لمن يعادونهم أو يشكون بأمرهم.

وترتبط هذه الحواجز النفسية عند تارد بالانقسامات الاجتماعية وعدم المساواة الاجتماعية من حيث القوة والمكانة. وقد بحث تارد، متأثراً بنظريات النخبة التي وضعها كل من غامبلوفيتز (Gumplowicz) ، وموسكا (Mosca) وباريتو، التوزيع غير المتكافئ للسلطة السياسية والتفاضل الاجتماعي الناتج لنخبة مسيطرة من جماهير خاضعة لها. وفي أواخر القرن التاسع عشر، نشر تارد كتاباً بعنوان تحول السلطة (La Transformation du pouvoir) حول تطوير القوى الاجتماعية. وألقى الضوء في هذا الكتاب على هذه التفاضلات، واعتبر فيه أنه يجب رؤية عمليات المحاكاة تتشكل وتتقيد بسبب عدم المساواة في السلطة. فيميل الناس إلى تقليد سلوك من هم أعلى منهم في التركيب الاجتماعي، ويرون فيهم نماذج للمحاكاة. إن نزعة الأفراد لمحاكاة من هم أعلى منهم اجتماعياً أقوى من نزعات أفراد الطبقات العليا في المجتمع محاكاة الطبقات الأدنى. فعلى سبيل المثال، تنتقل الابتكارات من النخبة إلى الجمهور شيئاً فشيئاً كتقاطر الماء.

وقد أوضح تارد أنه نتيجة للمحاكاة تنتشر الابتكارات بشكل سريع: فمع كل دورة تقليد، يزداد عدد الناس الذين يتبنون الابتكارات أضعافاً مضاعفة. وتنتشر موجات «قطر التقليد» بمعدلات متزايدة

جداً. وتنتشر الابتكارات التي تحدث في مواقع مختلفة من خلال موجات متداخلة فتشكل شبكة معقدة من ترابطات المحاكاة.

وفي أوائل القرن العشرين، ترك تارد وزارة العدل، وأصبح بروفسوراً في الكوليج دو فرانس حيث درّس مواد عن تشكيل الرأي الاجتماعي وفي مجال علم النفس الاقتصادي. وأظهر تارد في دراسته عن الرأي العام أن بث الأفكار من خلال شبكات النشر التي قام بتخطيطها، يمكن أن يؤدي إلى إجماع اجتماعي داخل المجموعة؛ فالأفكار التي تتكون داخل النخبة تنتشر أُسيّاً في المجتمع بأسره. وبعض إجماع المجتمع محدود بسبب عوائق الاتصال التي تضمن تفاضل المواقف والآراء حول مراكز السلطة والامتيازات. وقد أكد تارد، متأثراً بغوستاف ليبون (Gustav Le Bon) ، تأثير المحاكاة في المتفرجين. فيتحرر الأفراد، في أوضاع مشحونة بالعواطف التي تتولد لدى المتفرجين، والذين يعتبر فعلهم الجماعي عاملاً سياسياً مهماً، من كثير من القيود الطبيعية ويكونون أكثر عرضة لتأثير وإيحاءات الآخرين. ولم يستطع تارد تطوير تلك الأفكار إذ إنه مات في العام 1904م.

لقد حالت هيمنة أفكار دوركهايم على علم الاجتماع في فرنسا، من نشر تارد لأفكاره بشكل ناجح. ومع ذلك، فقد تابع العلماء في كل من أمريكا وبريطانيا نظرياته المتعلقة بالنزعة إلى المحاكاة، وبنى آخرون من المهتمين بانتشار الإبداعات والرأي العام على آرائه. وعلى الرغم من ذلك، ظل تارد دائماً شخصية هامشية ضمن علم الاجتماع. ويعكس هذا اعتماده على الميول البيولوجية غير المفسرة للمحاكاة كعامل أساس في نظريته الاجتماعية. وعلى الرغم أنه كان لديه الكثير ليقوله عن نتائج المحاكاة، إلا أنه عجز عن شرح سبب حصول الإبداع، وعجز كذلك عن شرح السبب الذي يجعل الأفراد يحاكون أفكاراً وممارسات محددة. ويواجه الأفراد كثيراً من السلوكيات في الآخرين الذين يتعاملون معهم، وعليهم أن يختاروا أي السلوكيات عليهم محاكاتها. ولم يذكر تارد الكثير عن العوامل التي تجعل الأشخاص يختارون أمراً دون آخر.

لا يتناول إعادة اكتشاف قوانين تارد في المحاكاة، عن طريق علماء النفس النشوئيين، علاج هذه المشكلات. فاعتماد تارد على الطباع الموروثة هو بالتحديد سر انجذابه الكبير إليها. ويوضح علماء النفس النشوئي، أن التطور الثقافي ينتشر من خلال وحدات إعادة الإنتاج الثقافي حيث يحاكي الأفراد استجابة بعضهم البعض الثقافية. وهذا الاحتفاء، وإن لم يكن مقصوداً، الذي يقر بأهمية

عمليات التواصل الاجتماعي من قبل طريق علماء النفس النشوئيين يفشل في حل مشكلة تارد في فشله في تفسير حدوث المحاكاة. ولا يمكن لأي غريزة متوارثة أن تفسر في ذاتها الاختيارات الثقافية التي يجب أن يقوم بها البشر.

انظر أيضاً: لودفيغ غومبلوفيتز ، جيتانو موسكا ، فيلفريدو باريتو.

أهم الأعمال:

.La Criminalité comparée. Paris: F. Alcan, 1886

.Penal Philosophy . 1890. New Brunswick, NJ: Transaction, 2001

.The Laws of Imitation. 1890. New York: H. Holt, 1903

Monadologie et sodologie . 1893. Paris: Empêcheur de penser en rond, 1999.

.La Logique sociale . Paris: F. Alcan, 1895

.L'Opposition universelle . Paris: F. Alcan, 1897

.Social Laws . 1898. New York: Macmillan, 1899

.La Transformation du pouvoir . 1899. Paris: Le Seuil, 2003

.L'Opinion de la foule . 1901. Paris: Presses Universitaires de France, 1989

.Psychologie economique . 2 vols. Paris: Félix Alcan, 1902

يمكن الاطلاع على مقتطفات مهمة ومفيدة من أعمال تارد في:

Terry N. Clark, ed. Gabriel Tarde on Communication and Social Influence .. Chicago: Chicago University Press, 1969

ويمكن الاطلاع على النسخ الإلكترونية للنصوص الكاملة على الموقع:

.

قراءات إضافية :

Everett M. Rogers. 1962. The Diffusion of Innovations . 5 th edn. New .York: The Free Press, 2003

إدوارد تايلور (Edward Tylor)

كان السير إدوارد برنيت تايلور، بعد هربرت سبنسر، رائد نظرية النشوء في القرن التاسع عشر. وكان تايلور جامعاً ومنسقاً مذهلاً للبيانات الإثنوغرافية من كافة أنحاء العالم، كما قدمت كتاباته نتائج دراسته لهذه البيانات عرضاً للتتاليات النشوئية للسمات والممارسات الثقافية. ويبدو أن ابتكار العمل الميداني الأنثروبولوجي المنظم قد جعل من منهجية تايلور وأسلوبه غير ذي علاقة، وهذا ما عززته ردود الأفعال المبتسرة ضد نظرية النشوء.

ولد إدوارد برنيت تايلور في لندن عام 1832م. وكان قد قابل في أثناء سفره إلى المكسيك وهو في العشرين من عمره، أحد الهواة الأنثروبولوجيين الذي بث فيه الرغبة في متابعة أبحاثه في علم الأساطير والفنون الجميلة والدين. وبعد ذلك بفترة وجيزة انتهى من إنتاج كتاب عن الثقافة المكسيكية، ومن تجميع دراسات عن الحضارة القديمة، قبل إنتاج كتابه الرائع الثقافة البدائية (Primitive Culture) في العام 1871م. وقام في وقت لاحق بإنتاج نسخة مختصرة له كأول كتاب تعليمي حول هذا الموضوع: الأنثروبولوجيا (Anthropology) . وبناءً على هذه الكتب والمصنفات، وعلى الرغم من عدم حصوله على درجة علمية، فقد أصبح تايلور محاضراً، وفي وقت لاحق أستاذاً للأنثروبولوجيا في جامعة أكسفورد. وتقاعد في العام 1909م، وتوفي في العام 1917م.

لقد كان تعريف تايلور للثقافة هو التعريف المفهومي المعتمد للأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا. ووفقاً لتايلور، تتكون الثقافة من كلية المعرفة والتعبير الإيماني العاطفي، إضافة إلى القوانين الشرعية والعرفية للسلوكيات والمهارات المتعددة والعادات المكتسبة من قبل الأفراد في مجتمع معين. ولا يوجد فرق بين الثقافة الفنية والتعبيرات الأساسية، فكلها مصقولة من خلال العضوية في المجتمع. يجب أن يتم فهم كل ثقافة كظاهرة بينة ومستقلة، تتطور وفقاً لمبادئها الصحيحة. إن انتشار السمات الثقافية حقيقة واقعية، ولكنها ثانوية. كما إن النشوء الاجتماعي هو عبارة عن عملية نشوء ذاتية. وإضافة إلى ذلك، فإن هذا التطور له اتجاه انتقائي. وبينما من الممكن حدوث انحلال ثقافي، فإن

النزعات طويلة الأمد تتخذ منحىً تقدمياً: يصبح من الممكن تمييز الانتقال من الأشكال الدنيا إلى الأشكال العليا للسمات الثقافية.

رفض تايلور تقصي حقائق الهواة لمصلحة التحليل المنهجي للتغيّرات المشتركة باستخدام أسلوب المقارنة. فقد تميز أسلوبه بمقارنة السمات الثقافية التي اكتُشفت في تشكيلة من المجتمعات، وذلك لتقدير ما سمّاه بالالتئام بينها. وقصد بذلك ما اعتبره الكتّاب المتأخرين والمتقدمين رياضياً بالعلاقة المتبادلة. اعتبر تايلور أنه متى ما كانت السمات الثقافية مترابطة معاً، أو مترابطة بوجه عام بطريقة عيش معينة، فإن هناك تجانساً بين الظروف الاجتماعية يتفق مع الأنماط الثقافية. ولبرهنة ذلك، استخدم تايلور المعايير الإحصائية للتغيّرات المشتركة في الحياة الاجتماعية. كما قام بدراسة المدى الذي يمكن القول فيه أن عوامل متراكبة محددة تحدث أكثر مما هو متوقع بافتراض أنها تتباين بشكل مستقل عن بعضها بعضاً. كما أكد أنه حيثما حدث تراكب، فمن المعقول أن نفترض حدوث اتصال سببي بينها. ومن المعروف، أن تايلور استخدم هذا الأسلوب لتوضيح العلاقة السببية بين منظمة تحريمية مزدوجة، والأنظمة التصنيفية لمصطلحات النسب.

ترى نظرية تايلور النشوئية العناصر الثقافية كتوابع لعمليات الانتقاء الطبيعي التي شكلت النموذج الكلي للتطور الاجتماعي. وهناك مراحل معينة للنشوء الاجتماعي غير المتنوعة عبر المجتمعات البشرية، وقد ميّز تايلور بين «وحشية» صيّادي العصر الحجري والحاصدين من المراحل «البربرية» التالية، حين أصبح إنتاج المعادن مسيطراً، وبين المرحلة الأخيرة من «المدنية». ولم يكن لديه الكثير ليقوله عن التغيرات عبر هذه المراحل، أو عن أي تسلسل للمراحل داخل الشكل «المتمدن» للمجتمع.

انظر أيضاً: ليونارد هوبهاوس ، هربرت سبنسر.

أهم الأعمال:

Anahuac: Or Mexico and the Mexicans . 1861.

Researches into the Early History of Mankind and the Development of Civilization. 1865.

Primitive Culture . 1871. London: John Murray, 1920.

Anthropology . 1881. New York: David Appleton, 1897.

فرديناند تونيس (Ferdinand Tonnies)

لم يعد فرديناند تونيس، وهو أحد الشخصيات الرائدة في علم الاجتماع الألماني لجيل كامل، معروفاً جيداً مثل أقرانه فيبر وسيميل اللذين كان لهما أعمالهما الواضحة في علم الاجتماع. وقد كان تونيس أحد الشخصيات الأساسية في تشكيل الجمعية الاجتماعية الألمانية (German Sociological Society) ، وتولى رئاستها لسنوات عديدة، كما أنتج كتاباً رائداً عن نظرية الاجتماع العامة. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يُذكر اليوم لمقارنته بين «الجماعة» و«المجتمع»، وعلى نحو خاطئ، بسبب تمسكه بالصورة الرومانسية للمجتمعات القديمة. وفي الحقيقة فإن وجهة نظر تونيس عن المجتمع كانت متأثرة بشكل كبير بميوله الاشتراكية، كما أنه كان ينتقد الماضي كما كان ينتقد المستقبل.

وُلد تونيس في العام 1855م في ولاية شليسفيغ ـ هولشتاين (Schleswig-Holstein) ، في أسرة ذات خلفية مَزارعية غنية. ودرس في عدة جامعات، ونال درجة الدكتوراه من جامعة توبنغن. وفي أثناء دراسته، طوّر تونيس ميوله السياسية الاشتراكية. وبسبب آرائه السياسية، لم يمنح كرسياً في الجامعة حتى العام 1913م، عندما تم تعيينه في جامعة كيل قبل وقت قصير من تقاعده الرسمي من التدريس الجامعي. وفي أواخر العشرينيات، عاد تونيس إلى جامعة كيل في منصب فخري، واحتفظ بإنتاجه المثمر والمؤثر في هذا العلم. وقد وضعه بروز الحزب النازي وتزايد المعارضة لأي سياسات اشتراكية أو يسارية تحت ضغوط كبيرة. وأقنعه هانز فريير، أحد مؤيدي النازية، بالانسحاب من رئاسة الجمعية الاجتماعية، تفادياً لأي انتقاد قد يوجه إلى الموضوع، كما عُزل من منصبه الجامعي في العام 1933م، وهو العام نفسه الذي فقد فيه العديد من اليهود والاشتراكيين المتخصصين في علم الاجتماع مناصبهم، وتم نفيهم من البلاد. مثلت هذه الموجة من الإقالات في ظل النظام النازي، نهاية الفترة التكوينية في علم الاجتماع الألماني، التي عاش تونيس في معظمها. وتوفي بعد ذلك بثلاث سنوات، أي في العام 1936م.

تُرجم الكتاب الذي أدى إلى شهرة تونيس بأوجه مختلفة منها Community and Society Community and Association ، وتمت طباعته قبل سنوات من وضع دوركهايم نظريته

النسبية عن العلاقة بين التضامن الآلي والتضامن العضوي. وأتبع تونيس هذا العمل بدراسات عن هوبز وماركس في سلسلة من المقالات المطولة حول هذه المواضيع، كالعادات والتقسيم الطبقي الاجتماعي، وأيضاً بكتاب عن تشكيل الرأي العام. كان مدافعاً كبيراً عن علم الاجتماع الوصفي والإمبريقي، حيث قام بعمل أبحاث حول الديموغرافيا السكانية وعلم الجريمة. وكان عمله الأخير عبارة عن تعريف ممنهج للنظرية الاجتماعية، أبرز فيه الأفكار الرئيسية لعمله، كما صاغ أفكاراً واضحة عن الأفكار المفهومية والميثودولوجية التي كان يتشاطرها على نطاق واسع معاصروه من علماء الاجتماع.

يتعارض أشهر أعمال تونيس مع نموذجين مثاليين من النسق الاجتماعي تم ترتيبها على التوالي، العلاقات العامة Gemeinschaftlich Relations ، للتضامن المجتمعي، والعلاقات Gesell-schaftlich ، لعلاقات الترابط الحسابي والتعاقدي. واعتبر الأول في العديد من المناطق الريفية والزراعية في الماضي، حيث يشغل الأفراد أدواراً مماثلة، ويتبعون أساليب عيش مماثلة لأساليب جيرانهم. ويشجع التجانس، والتماثل على وجود تضامن عاطفي مبني على القيم والهموم المشتركة. ومن جهة أخرى، تعتبر العلاقات الترابطية من سمات السوق والعلاقات التجارية للمدن والبلدات التي تدهور فيها التضامن التقليدي، وأُنشئ فيها انقسام معقد للعمل يرتبط فيه الأفراد على نحو محض من خلال الترابط المالي، والحسابات العقلانية لمكاسبهم وأرباحهم الذاتية.

لم يكن التناقض فريداً بالنسبة إلى تونيس. فقد برزت أفكار مماثلة في نظريات النشوء للسير هنري ماين (Henry Maine) (الذي قارن بين مجتمعات «الوضع» و«العقد»)، ولويس مورغان (Lewis Morgan) (الذي قارن بين المجتمع والمواطنة). وفي الواقع لقد وُصفت نهضة المجتمعات الحديثة فيما مضى بالعبارات نفسها من قبل كتّاب مختلفين مثل هوبز وهيغل، كما كانت أمراً محورياً بالنسبة إلى فهم ماركس لخصوصية المجتمع الرأسمالي. وبشكل أبسط، أصبحت جزءاً بديهياً من معرفة المتخصصين الاجتماعيين المعاصرين في شكل المقارنة بين التقليدية والحداثة. وكان عمل تونيس مميز ومهم، ذلك أنه رفض مذهب النشوئية، ولأن عرضه الواضح لأشكال النظام الاجتماعي كنماذج مثالية خالصة. ولا وجود لهذه النماذج في الواقع، ولكنها تصف

النزعات داخل كل المجتمعات، وبذلك يمكن استخدامها كأدوات تحليل في مجال واسع من الدراسات الاجتماعية.

كان تونيس يرى أن لكل من هذه النماذج جذوره في التوجهات المميزة نحو السلوك الاجتماعي. ويتميز العمل الموجه نحو بناء واستمرارية العلاقات المجتمعية بالدوافع التي وصفها تونيس بأنها تتضمن الإرادة «الأساسية» أو «الطبيعية»: تُحفّز إرادة الفرد عن طريق الالتزام العاطفي المتجذر في شخصية المرء وطبائعه. ومن جهة أخرى، فإن السلوك الاجتماعي الموجه نحو الارتباطات الترابطية، ينطوي على إرادة «عقلانية» أو «تعسفية»، وهي إرادة تعكس الاستعداد والقدرة على الاختيار بين البدائل بناءً على الكفاءة والمصلحة. ويتشابه هذا الالتزام مع الالتزام الذي وضعه فيبر بين العمل التقليدي والعمل العقلاني الأدواتي.

سعت أغلب أعمال تونيس اللاحقة إلى توضيح التميز المفهومي المتعدد الذي انحدر إلى مقارنة فردية بين المجتمع والرابطة (الاجتماعية)، ولاستنباط هذه المفاهيم من خلال رؤيته للعمل وتوجهاته من خلال الإرادة. كانت فردانية تونيس الميثودولوجية على غرار ميثودولوجية فيبر. وكانت، بالفعل، افتراضاً عاماً للكثير من علماء علم الاجتماع من الجيل نفسه. وبالنسبة إلى كل هؤلاء الكتاب، كانت أنماط العمل الفردي عبارة عن العناصر التي يمكن من خلالها بناء كيانات معقدة من العلاقات الاجتماعية. وقد تم الاعتقاد بأن الأفراد يبنون علاقات اجتماعية من خلال أفعالهم ما يتيح لهم تنظيم حيواتهم، وعلى علماء الاجتماع الاعتراف بذلك في تصوراتهم النظرية. يجب ألا تعتبر الهياكل الاجتماعية شيئاً مادياً، وألا تعامل كأشياء كائنة بحد ذاتها بمنأى عن الأعمال الفردية. وبناءً عليه، يجب أن تفهم جميع المفاهيم الاجتماعية أنها تغيير لتعقيدات الأفعال التي قد يراها الفاعلون، وسط ظروف معينة، كأنها منفصلة عنهم، وبالتالي، تبدو كمن يمارس تأثيراً سببياً على الأفراد. في الواقع، ينفرد التمثيل الذاتي للهياكل بالقدرة على تقييد الأعمال الفردية، ولا تبذل الهياكل نفسها أي قوة عرضية على الإطلاق.

حدد تونيس ثلاثة أنواع متميزة من «الكينونات» البنيوية التي تنشأ من خلال العمل الاجتماعي، ويمكن لكل منها أن يأخذ شكلاً مجتمعياً أو ترابطياً. وأبسط هذه الكينونات الاجتماعية هي «العلاقات» التي يمكن لتونيس أن يميز من بينها الرفقة الأخوية والأسرية من العلاقات المجتمعية

من العلاقات التعاقدية والتبادلية المجتمعية. ويمكن العلاقات الاجتماعية أن تتكتل في شكل جمعيات، ويمكن كذلك أن تظهر ككيانات ذات وجود تعاوني يشعر الأفراد من خلالها بكونهم «أعضاء». والمقارنة التي يصفها تونيس هنا، هي بين الأشكال المجتمعية للدول، والأمم الاجتماعية من جهة، والأشكال الترابطية للطبقات الاجتماعية والمجتمع المدني من جهة أخرى. كما عرف تونيس أخيراً «الشركات» والمنظمات أن لديها حقيقة جماعية أقوى، كما إنها تكتسب صفة العامل المؤثر بموجب قوانينها الدستورية وهيئات صنع القرار فيها. وتشتمل المنظمات المجتمعية على الطوائف والكنائس، في حين تشتمل المنظمات الترابطية على المؤسسات التجارية، وجماعات الضغط والأحزاب السياسية.

انظر أيضاً: إميل دوركهايم، جورج سيميل، ماكس فيبر.

أهم الأعمال:

Community and Association . 1887. London: Routledge & Kegan Paul, 1955. New translation as Community and Civil Society . Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

Thomas Hobbes: der Mann und der Denker . 1910. 2 nd expanded ed. Stuttgart: F. Fromann. 1 st ed. published 1879-81.

Custom . 1909. New York: Free Press, 1961.

Karl Marx: His Life and Teachings . 1920. East Lansing, MI: Michigan State University, 1974.

A Theory of Public Opinion . 1922. Lanham, MD: Rowman and Littlefield, 2000.

Estates and Classes. 1931. In: John Scott, ed. Class , vol. 1. London: Routledge, 1996.

Einführung in die Soziologie . 1931. Extracts in Werner J. Cahnman and Rudolphe Heberle, eds. Ferdinand Toennies, on Sociology: Pure, Applied, and Empirical . Chicago: University of Chicago Press, 1971.

قراءات إضافية:

Werner J. Cahnman, ed. Ferdinand TA New Evaluation . Leiden: E. J. Brill, 1973.

أليكسيس دو توكفيل (Alexis De Tocqueville)

يبدو أن صيت أليكسيس دو توكفيل، يزداد مع مرور الوقت. ويناقض الفيض الكبير من تحرير أعماله وترجمتها حقيقة الحماس المتزايد لكتاباته الراقية المفعمة بالحيوية. وفي حين ساهم توكفيل في وضع النظريات الاجتماعية عن طريق تصوره لأسباب الدمقرطة العالمية ونتائجها، إلا أنه لم يكن باحثاً نظرياً. وبما أن توكفيل كان رجل سياسة ورحالة له صلة بنوعية كبيرة من الناس فقد كانت أعماله الكتابية تعكس حياته. ولد توكفيل عام 1805م، في أسرة نورمندية أرستقراطية. وكان حساساً تجاه تغير الوقائع الاجتماعية والسياسية في فترة ما بعد الثورة الفرنسية عام 1789م. وقد عانى أفراد أسرته الحبس والإعدام والإجلاء وخسارة الممتلكات خلال عهد الإرهاب الذي تلا الثورة. ولم تمنعه الديمقراطية وانتزاع السلطة من الطبقة الأرستقراطية من الدراسة ليصبح قاضياً، وانتُخب عضواً في مجلس النواب، كما سافر كثيراً إلى أمريكا الشمالية والجزائر وعدد من البلدان الأوروبية. وتوفي في العام 1859م.

كان لنشاط توكفيل السياسي وأسفاره أثر في كتاباته، كما احتوت أغلب نصوصه على تجاربه الشخصية في نشر الديمقراطية. وتزامنت فترة توليه منصب عضو في مجلس النواب مع رحلتيه إلى الجزائر، ويكشف بعض من كتاباته الأخيرة المرتكزة على هاتين الرحلتين، أنه كان مؤيداً للإمبريالية الفرنسية حتى لو انطوت على العنف. وفي كتاباته عن الجزائر، حاول توكفيل التوفيق بين مُثل الدمقرطة للاحتلال الفرنسي، والمصالح والاهتمامات المختلفة للمستوطنين وسكان البلاد الأصليين. وكانت أسفاره الشهيرة جداً في أمريكا الشمالية بصحبة غوستاف بومونت (Gustave Beau-mont) عامي 1831 و1832م، والتي قام فيها ظاهرياً بإجراء أبحاث تتناول مساجين الولايات المتحدة، بمثابة حجر أساس لدراسات هائلة عن عادات الشعوب المختلفة في أمريكا الشمالية. كما ساعدت مواجهاته في أسفاره على نقل الخواص المعرفية الشخصية والغنائية إلى كتاباته، مقارنةً مع رحالة القرن التاسع عشر الأوروبيين مثل هارييت مارتينيو (Harriet Martineau) وفرانسيس ترولوب (Frances Trollope) . وقد دوّن توكفيل العديد من المحادثات مع مختلف الفئات من

الأمريكان بمن فيهم الخدم والفلاحين والسجناء وموظفي الحكومة. حتى أنه التقى بالرئيس أندرو جاكسون (Andrew Jackson) الذي وصفه بأنه لم يكن إنساناً عبقرياً. وكانت إحدى الاختلافات الرئيسة بين الصورة التي رسمها للولايات المتحدة والجزائر، أنه على الرغم من إعجابه بالمشروع الأنكلوسكسوني لاستعمار أمريكا الشمالية، غير أنه لم يوافق عليه، مع أنه وافق وأيد المشروع الاستعماري الفرنسي للجزائر.

تصف أعمال توكفيل في مجملها كيفية تفاعل الأفكار مع المؤسسات الاجتماعية، وكيف تؤدي إلى حدوث تغير اجتماعي وسياسي في الولايات المتحدة وفرنسا وإنكلترا. ومن خلال ذلك، قام توكفيل بتطوير السوسيولوجيا المقارن حيث توضح الفوارق وأوجه التشابه بين البلدان المختلفة العادات القديمة والتوجهات المستقبلية في التاريخ. وبعد سقوط الأرستقراطية والنظام الملكي في فرنسا، أصبحت الديمقراطية وسلطة طبقة التجّار، والعادات الأقل تعصباً للموروثات القديمة هي المهيمنة. غير أن بريطانيا كانت استثناء، حيث انتقلت البلد نقلة حضارية من دون ثورة، وذلك بدمج المؤسسات الديمقراطية داخل الهيكل الاجتماعي الإقطاعي الأساس. وعلى العكس من ذلك، قامت فرنسا بالقضاء على نظامها الإقطاعي باستخدام العنف، كما قامت بإنشاء نظام ديمقراطي قائم على المساواة من خلال نشر عقيدة الحرية العالمية. أمّا الولايات المتحدة، فقد قامت بإنشاء نظام ديمقراطي اجتماعي يختلف عن هاتين الدولتين الأوروبيتين من دون أي إبادة للإقطاعية؛ إذ إنها لم توجد أصلاً في المستعمرات الأمريكية. وبوجه عام حوّل الاستعمار الأوروبي في الجزائر والأماكن الأخرى الديمقراطية في الواقع إلى مشروع عالمي.

لقد ترسخ اعتقاد توكفيل أن العالم الجديد يكشف بشكل واضح عن مستقبلٍ عالمي، في مجلديه بعنوان الديمقراطية في أمريكا (Democracy in America) ، اللذين نُشرا في العام 1835م والعام 1840م، ونالا العديد من الأوسمة، وبيعا بشكل مربح، وساهما في انتخاب توكفيل إلى العديد من المناصب الأكاديمية المرموقة. وفي هذا العمل قام توكفيل بتوضيح سبب كون الولايات المتحدة فريدة من بين الأمم الغربية، وهو كونها ديمقراطية تماماً لم تلطخها الإقطاعية قط. فمن دون توريث المناصب فيها، كان كل أمريكي مواطناً متساوياً مع الجميع أمام القانون. وقد كفل الدستور الفدرالي الأمريكي حق المواطنة ودعم هذا الحق اقتصادياً بمراجعة النظام القانوني الإنكليزي لحقّ البكور

في الإرث، وذلك بتقسيم التركة بالتساوي بين الأبناء. أدى ذلك إلى ضعف سلطة امتلاك الأراضي الموروثة وأدى إلى تعزيز سلطة المال كقاعدة متطورة للتميز الاجتماعي. وأكد توكفيل أنه بمنح حق التصويت في الانتخابات للرجال منذ بداية الجمهورية (الأمريكية)، فإن الحكومة كانت نتاج نظام ديمقراطي مبني على مشاركة المواطنين. ونشأ نظام سياسي من الأسفل إلى الأعلى بدءاً بالبلدة، ثم المقاطعة، فالولاية، فالحكومة الفدرالية. وكان لكل ولاية إداراتها الخاصة ودستور خاص بها، إضافة إلى جمعيات المواطنين؛ كل ذلك كان بمثابة سلطة موازية لسلطة الحكومة الفدرالية. وإضافة إلى ذلك، منحت حقوق أساسية للمواطنين «ثابتة» بموجب الدستور الفدرالي. وبإيجاز تام، كانت أمريكا، وفقاً لتوكفيل دولة لامركزية مبنية على منح الحقوق التي شرعتها الإرادة العامة.

يمكن أن يعتبر ذلك إقراراً صريحاً للديمقراطية، ولكن توكفيل كان متناقضاً في هذا الشأن. فقد كان توكفيل قادراً على بث روح التعاطف مع خصائص النظم القديمة والحديثة، في حين كان يخضع كل منها أيضاً للنقد الشديد. ويتضح ذلك جلياً من خلال فهمه للنظام في الولايات المتحدة من جهة، ولكن ما يثير الشفقة من جهة أخرى، هو تعقيبه على النظام الفرنسي في كتابه النظام القديم والثورة (The Old Regime and the Revolution) ، الذي أشار فيه إلى أن عقائد الثورة شبه الدينية أخفت الماضي ومنعت الناس من التعلم من التاريخ. وبالنسبة إلى توكفيل، كان الماضي والحاضر متلازمين، وأن التاريخ الإقطاعي الفرنسي كان ضرورياً في فهم الكثير من استمرارية الثورة. وبتبنيه منهجاً نسبياً، كان توكفيل قادراً على تأكيد أن أحد أشكال الحكم الديكتاتوري قد استبدل بآخر، في ظل ملكية مطلقة، غير مجدية في الغالب، ولكن مبتكرة أحياناً؛ إذ إن اللامساواة استُبدلت بالمساواة الشكلية في ظل الاستبداد الديمقراطي لنظام دولة عقلاني. وبصورة مفارقة، تم تمكين الثورة الديمقراطية، ودُمرت الحرية.

من جهة أخرى افترض توكفيل أن النظام الديمقراطي خلق توجهات ثقافية وسيكولوجية مميزة. وكانت إحدى أفكاره الأكثر تأثيراً في هذا الصدد هي مذهب الفردانية التي كانت سمة شخصية انتشرت بسرعة بين الأمريكان، على الرغم من انتشارها المتنامي في فرنسا. وقد وُصفت الفردانية بأنها «شعور ناضج هادئ يوجه كل فرد في المجتمع إلى فصل نفسه عن كتلة زملائه والعزوف عن أسرته وأصدقائه، ولذا فبعد تشكيله دائرته الصغيرة، يمكنه أن يترك المجتمع بوجه عام برغبته.

وقد دل هذا النمط الشخصي على تغيير جذري بعيداً عن الأنسجة الاجتماعية والزمنية للعلاقات الإقطاعية. كان خطر الفردانية يكمن في استغراق الأمريكان الزائد في التفكير أن أجيال المستقبل يمكن أن تكون ضحية إشباع الرغبات الفورية. وما زال الترابط المستمر بين الفردانية وهدم الترابط الاجتماعي في الولايات المتحدة، موضوع بحث علماء الاجتماع المعاصرين من الأمريكان، بما فيهم روبرت بيلا (Robert Bellah) وروبرت بوتنام (Robert Putnam) وأميتاي إيتزيوني (Amitai Etzioni) ، الذين وضعوا مقترحات مستقبلية لتواصل أخلاقيات الشعب المتجددة.

ميزت الديمقراطية شكل المجتمع الأمريكي ككل، وتشكّلت بفعل الظروف التاريخية والجغرافية الفريدة التي سمحت بوجود فردانية لا يكبح جماحها، وبإبداع ثقافي. ونشأت هذه الصفات في ظل اتساع الملكيات نفسها بشكل أكثر سرعة، وهو ما خلّف في بعض الأحيان انطباعاً قوياً في ذهن توكفيل خلال أسفاره. وأشاعت المساحة المجردة المتاحة للمستعمرين في نفوس الأمريكان إحساساً بالإمكانات والطموح الشخصي المتقد. كما قدمت الأراضي فرصة للمرء هناك من أجل تحسين ظروفه. وبمجرد أن كانت الأراضي تُصادَر من الهنود الحمر سكانها الأصليين، كانت تصبح عرضة للادعاء والامتلاك. وذلك يعني أن جماهير الأمريكان كانت لديها القدرة على الانتقال خلال تحويل ما كان بالنسبة إليهم أشبه بالبرية، بواسطة فأس حطّاب ومحراث مزارع. وكانت هذه الإمكانات قد حرم منها أغلب الأوروبيين؛ إذ إن إزالة الأشجار والإنتاج الزراعي لنظام القرية الإقطاعي، لم يترك لهم أي قطعة أرض لادعائها. وبدورها أحدثت البرية نزعات ثقافية أمريكية معينة مثل تعظيم الطبيعة (وهو ما جرى التعبير عنه في فنون التصوير الطبيعي بالنزوع الطبيعي والفلسفة المتعالية)، وعدم راحة الضمير والتقوقع والتطبيق العلمي.

يسلط كتاب الديمقراطية في أمريكا الضوء على العديد من إخفاقات النظام الديمقراطي الكبيرة بشكل لا يمثل الولاء غير المتمحور للولايات المتحدة. ومن بين هذه الأمور، ربما كان طغيان الأغلبية من أكثر الأمور الملحة. وفي العديد من الفقرات التي استبقت ميشيل فوكو، أكد توكفيل أن التحكم الاجتماعي في الملكية المطلقة يتم تحقيقه عن طريق العقاب القاسي. وأما النظام الديمقراطي من جهة أخرى، فإن الجسد يبقى فيه حراً نسبياً، ولكن تبقى الروح مستعبدة بواسطة المزاجيات الشعبية للأغلبية. وإن أي خطيئة اجتماعية هي خطيئة في حق المجتمع نفسه؛ إذ إن المجتمع لا

يقوم على فرض ملك ما، بل على قواعد الأغلبية. ولذا يتم خلق ضغوط لجعل التحكم الاجتماعي داخلياً، ويتم التعبير عنها في صورة ترسيخ الولاء للرموز المشتركة، والتعبير الدائم «عن استحسان الذات». حينئذٍ، تصبح الفردانية ذاتها في الواقع أحد أشكال المطابقة، وتتقلص مساحة الرأي المقبول لدرجة صرح معها توكفيل بأنه «لا توجد حرية للرأي في أمريكا». وتنبع هذه السخرية من وجهة نظر توكفيل أن الولاء لإرادة الأغلبية قد تمكن من إخماد أي رغبة في إظهار أي انتقادات للنظام الاجتماعي نفسه. وكان الامتثال للأعراف الاجتماعية إحدى النزعات التي أدركها توكفيل في بلاده. وأشار في أحد أعماله النظام القديم (The Old Regime) ، إلى أن النظام الإقطاعي الأقل انضباطاً ومركزية يسمح بالتنوع الثقافي، في حين أن المجتمع الديمقراطي الحديث ـ الذي تهيمن عليه الدولة القوية، والبيروقراطية، ومدينة باريس، والسلطة الاقتصادية للبرجوازية ـ شجع على التجانس الاجتماعي و«الفردانية الجماعية». وبالمثل، فقد تم التعبير عن أشكال جديدة لسلطة الدولة، «لكن ليس من خلال سلطة مطلقة مدمرة، وإنما عن طريق تحويلها».

عندما درس توكفيل العلاقات العرقية الأمريكية، قدم أيضاً عيباً آخر في قانون الأغلبية مستحضراً صوراً من المجتمعات المعتمة الموجودة بشكل متوازٍ مع النظام الديمقراطي الأمريكي. فقد كان السكان السود والهنود الحمر مرتبطين بالنظام الديمقراطي من دون أن يشكلوا جزءاً منه؛ فبالنسبة إلى الهنود الحمر، كان ذلك نتيجة نسبية لانتزاع الملكية المستمر منهم، وهو الأمر الذي على الرغم من كونه أمراً مؤسفاً، وافق عليه توكفيل جون لوك بأن الهنود الحمر كانوا صيادين أكثر من كونهم مزارعين، كما إنهم احتلوا الأرض من دون امتلاكهم لها. وكانت مثل هذه القوانين مسجلة في القانون الممؤسس ديمقراطياً، ولم تغب هذه الازدواجية الديمقراطية عن المتحدثين الهنود الذين صادفهم توكفيل. وكما أشار توكفيل في عبارة تتردد غالباً إلى أنه من المستحيل إبادة أناس باحترام أكبر للقوانين البشرية. وبوجود هذه القوانين التي تدعمهم، أدى زحف المستوطنين نحو الغرب الأمريكي إلى فصل الهنود الحمر عن أراضيهم. وتعززت هذه الوحشية عندما شاهد توكفيل جزءاً من «قافلة الدموع» (Trail of Tear) التي طُرد فيها هنود الشوكتاو من أراضيهم إلى منطقة عبر الميسيسيبي.

كان المستوطنون قد توارثوا النموذج الإنكليزي للإدارة الإمبريالية محتفظين بـ «سلطة القانون» وازدراء الفلاحين البيوريتاني للهنود الحمر. وعلى العكس من ذلك كان البيض والسود يعيشون في ظل رابطة لا يمكن نقضها. فقد شكّل الرق، «وهو أكبر البلاءات التي كانت تهدد الاتحاد»، شخصية العبيد وأسيادهم على حد سواء، وشوّه كلا الطرفين وأصابه بالخزي. حتى إن احتمالية إلغاء الرق (كان موجوداً قبل كتابات توكفيل بنحو 30 عاماً) قدمت مجرد حرية زائفة. فقد كان العبيد السابقون قد جُرّدوا من إنسانيتهم لدرجة أن آثار الرق كانت ستبقى مصدراً دائماً لاستياء الأحفاد. وعلى الرغم من اعتقاده «أنه في حال تمكن القانون من إلغاء الرق، فالرب وحده يمكنه أن يمحو ما خلّفه من آثار»، فقد تنبأ توكفيل بتفاقم الصراع العنصري في الولايات المتحدة في القرن العشرين. ولكن على الرغم من تعاطف توكفيل الجلي مع العبيد والهنود الحمر، إلا أنه تراجع عن عن نظرية التطور الاجتماعي باعتبار اندثارهم أمراً محتوماً.

تزايدت أهمية المفارقات والاستبصارات العديدة في كتابات توكفيل كمصادر لفهم العمليات الاجتماعية المعقدة التي تنتقل من خلالها المجتمعات إلى الديمقراطية وتواصل العمل بها. كما قدم توكفيل وصفه للفوارق الدقيقة للمكاسب والخسارات التي تتسبب بها الديمقراطية، حتى عندما تُفرض بالقوة، وهي قضية ذات صلة معاصرة مفزعة. وقد أثبتت دراساته الدقيقة عن الولايات المتحدة وفرنسا، بأنها تنبؤات مذهلة. فمن المعروف أن توكفيل تنبأ بقيام الثورة الاشتراكية في فرنسا عام 1848م، قبل أسابيع قليلة من حدوثها، كما تُذكر ملاحظاته مراراً عن الولايات المتحدة كمجتمع مغلق في الوقت الحالي.

انظر أيضاً: هاريت مارتينيو.

أهم الأعمال:

Democracy in America. 1835-40. Trans., ed. and with an intro. by Harvey C. Mansfield and Delba Winthrop. Chicago: University of Chicago Press, 2000.

The Old Regime and the Revolution . 1856. Ed. and with an intro. by François Furet and Françoise Mélonio; trans. by Alan S. Kahan. Chicago: .University of Chicago Press, 1998

Writings on Empire and Slavery . Various dates. Ed. and trans. by Jennifer .Pitts. Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 2001

قراءات إضافية:

George Wilson Pierson. Tocqueville in America . Baltimore, MD: Johns .Hopkins University Press, 1996

Sheldon Wolin. Tocqueville Between Two Worlds: The Making of a Polit- .ical and Theoretical Life . Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001

فرديناند دو سوسور (Ferdinand De Saussure)

ولد فرديناند دو سوسور عام 1857م، وهو المعروف بأشهر آثاره محاضرات في علوم اللغويات العامة (Course in General Linguistics) التي نُشرت في العام 1913م بعد وفاته بفترة قصيرة. ويعتمد هذا الكتاب على ملاحظات لمحاضرات ألقاها في جامعة جنيف في الفترة ما بين العام 1907م و1911م. وعلى الرغم من أن سوسور نفسه لم يترك سوى نصوص قليلة من دراسته، إلا أن الكتاب وُضع عن طريق تجميع محاضراته من الطلاب الذين حضروها. وبسبب التباين الكبير في المحاضرات في المناسبات الثلاث التي ألقيت فيها، فلا يمكن القول إنها تقدم نظرية سوسور المعتمدة في اللغة. ومع ذلك يعتبر كتاب محاضرات في علوم اللغويات العامة عملاً ثورياً يُفتخر به، ليس بالنسبة إلى اللغويين كمصدر موثوق في التحليل اللغوي، ولكن أيضاً في تطوير مقاربة بنيوية متميزة للعلوم البشرية والاجتماعية. ولا يمكن أن يتصور أحد أن تكون أعمال علماء النظرية البنيوية وما بعد البنيوية مثل كلود ليفي ـ ستراوس (Claude Lévi - Strauss) وجاك لاكان (Jacques Lacan) ورولاند بارثيز (Roland Barthes) ولويس ألتوسير (Louis Althusser) وجاك دريدا (Jacques Derrida) وإرنستو لاكلو (Ernesto Laclau) ، من دون البذور التي ساهم سوسور بوضعها.

تقدم نظرية سوسور في اللغة أربعة تعارضات مفاهيمية أساسية. أولها ، أنه فضّل دراسة السينكرونيك (Synchronic) (الآنية) على دراسة الدياكرونيك (Diachronic) (التزامنية) في اللغة، فالأولى عبارة عن نظام يبحث في المصطلحات المترابطة من دون الإشارة إلى عامل الزمن، بينما تبحث الثانية في مجال التطور النشوئي للغة. ولكن ذلك لا يعني أن سوسور تجاهل تحوّلات اللغة كما لو كانت نظاماً كاملاً «متجمداً في الزمن» ذلك أن التحوّل اللساني يمكن أن يُمثّل على الإطلاق. ومن دون المفهوم السينكروني لا يوجد وسيلة لرسم التحولات من المعتاد. ثانيها ، يؤكد سوسور أن اللغة هي نظام إشارات (العلامات) للتعبير عن الأفكار ـ اللغة (Langue) ـ تحتوي على قواعد لغوية متفق عليها في حال أراد الناس التواصل بشكل مفهوم. وللأهمية تختلف اللغة جدياً

عن الحديث أو الكلام (Parole) ؛ إذ إن الأخير يشير إلى المحادثة التي لها أداءات فردية. ولذلك يقارن سوسور بين الجوانب الاجتماعية والفردية للغة، ويفرق بين ما يعتبره ضرورياً وما هو ممكن ومحتمل فقط. وبمعنى آخر، إن أي استخدامات فردية للغة (أي حدث كلامي) يمكن أن تحدث فقط إذا تشارك المتكلمون أو الكتّاب في نظام لغوي معين.

وينشأ ثالث التعارضات المفهومية من أحد مكونات اللغة الأساسية عند سوسور: العلامة اللغوية. توحد العلامة بين شكل الصوت الدال (Signifier) والمدلول (Signified) . مثلاً العلامة dog [كلب] تتكون من دال يبدو مثل d-o-g (وتظهر في الكتابة كذلك dog) ومفهوم dog يرمز إليه الدال. وتتعلق القاعدة الرئيسة لنظرية سوسور بـ «الطبيعة الاعتباطية للإشارات»، ويعني بها أنه لا توجد علاقة طبيعية بين الدال والمدلول. بمعنى آخر، لا توجد هناك أسباب ضرورية لارتباط الرمز dog بالمفهوم dog : ببساطة هذه هي وظيفة اللغة التي نستخدمها وعُرفها. ولا يعني ذلك أن اللغة تسمي أو ترمز إلى الأشياء في العالم ببساطة، كما يمكن أن يفترض هذا المفهوم الاسمي أن اللغة ببساطة تتكون من كلمات تشير إلى أشياء في العالم. ومثل هذه الفكرة تدل على اتصال محدد، على الرغم من أنه اعتباطي في نهاية المطاف، بين الكلمات كأسماء، وبين المفاهيم التي تمثلها والأشياء التي يرمز إليها في العالم. ولكن بالنسبة إلى سوسور فالمعنى والمغزى متلازمان كلياً في اللغة نفسها. حتى إن المدلولات لا تسبق الكلمات، ولكن تعتمد على أنظمة اللغة ومدلولاتها. وبعد ذلك يدّعي سوسور أن الكلمات في اللغات، أو حتى في قواعد اللغة، تبين مفاهيمها ومقاصدها بدلاً من أن تكون مجرد علامات لأشياء معطاة مسبقاً. فاللغة عبارة عن «نظام مصطلحات اعتمادية تنتج فيها قيمة كل مصطلح من الوجود المتزامن للآخرين». هذا المفهوم الترابطي والتفاوتي للغة يعني أن مصطلح ° mother » (الأم) لم يشتق معناه من إشارته إلى نوع موضوع ما، ولكن لأنه يختلف عن " father " (الأب) و« grandmother » (الجدة) و« daughter » (البنت)، وبعض المصطلحات الأخرى ذات الصلة بالموضوع.

ولكي تتضح مفارقة أن الكلمات تشير إلى أفكار ولكنها يجب أن تتصل بكلمات أخرى لكي تكتسب معانيها، قام سوسور بتقديم مفهوم القيمة اللغوية. فقد شبّه اللغة بلعبة الشطرنج، موضحاً أن أي قطعة شطرنج، الملك مثلاً، ليس لها أهمية خارج سياق اللعبة؛ إذ تكون أحد المكونات الحقيقية والمادية

التي لها قيمة داخل اللعبة فقط. وفضلاً عن ذلك، فإن خصائص القطعة المادية المعينة سواء كانت بلاستيكية أو خشبية أو كونها تتخذ شكل رجل يركب حصان أو لا، كل ذلك لا يؤخذ في الاعتبار. وتتحدد قيمتها ووظيفتها فقط بقوانين الشطرنج والعلاقة الأساسية بينها وبين قطع الشطرنج الأخرى في اللعبة. وكذلك تتشكل القيمة اللغوية؛ إذ تمثل الكلمة فكرة معينة من جهة، ولكن من جهة أخرى يجب أن تتضاد الكلمة مع الكلمات الأخرى المقابلة لها. وذلك يعني أن قيمة الكلمة لا تتحدد بمجرد الفكرة التي تمثلها، ولكن على العكس من ذلك، فإن قيمتها تكمن داخل النظام الذي يشكل اللغة.

وتنوج هذه الأفكار في مبادئ سوسور النظرية في أن اللغة تضم اختلافات من دون مصطلحات ثابتة. وهنا ينبغي أن لا ينظر إلى اللغة أنها ذات أفكار وأصوات وُجدت قبل النظام اللغوي، و«لكن الاختلافات المفاهيمية والصوتية هي التي صدرت من النظام اللغوي. وتقل أهمية الفكرة أو المادة الصوتية التي تتضمنها الدلالات، عن أهمية الدلالات المحيطة بها». وعلى الرغم من ذلك، يتم في الحال تصنيف تأكيد أن اللغة نظام خالٍ من الاختلافات؛ إذ يؤكد سوسور أنها لا يمكن فهمها إلا إذا تم دراسة الدال والمدلول كل على حدة. وعندما تكون الدلالة مشتركة، فإنه يمكن الحديث عن كيان إيجابي يعمل داخل النظام الخاص بالقيم:

عندما نقارن العلامات ـ المصطلحات الإيجابية ـ ببعضها، لا نستطيع أن نتكلم عن الاختلافات إذ إن التعبير لن يكون مناسباً وذلك أنها ستطبق فقط في المقارنة بين شكل الصوتين مثل الأب (Father) والأم (Mother) ، أو بين فكرتين مثل الفكرة الدالة على (Father) والفكرة الدالة على (Moth-er) ، فكلا العلامتين لهما دال ومعنى، وليستا مختلفتين، لكنهما تتميزان عن بعضهما. وترتكز الميكانيكية الكلية للغة على مثل هذا النوع من التضاد وعلى الفروق الصوتية والمفهومية المتضمنة.

وخلاصة القول، تدّعي نظرية سوسور الاصطلاحية والارتباطية في اللغة أن هوية أي مكون هي ناتج للاختلافات والتضاد الناشئ داخل هيكل النظام اللغوي.

وبذلك، فوفقاً لسوسور، تتألف اللغة من أنظمة من الاختلافات والعلاقات التي تحدد الهوية اللغوية الناتجة عن الاختلافات بين الدال والمدلول. وتتألف العلاقات بين العلامات لتكون سلسلة متتالية من الكلمات مثل الجمل والعبارات. وفي هذا الصدد يقدم سوسور التقسيم النظري الرابع ، بين ترتيب

القيم الترابطية والنسقية في اللغة، التي جمعت بين طرائق ترتيب الكلمات في تتابع خطي (من جمل وعبارات) أو طريقة استبدال كلمة مكان أخرى في التتابع اللغوي. وبالنسبة إلى الجملة (The cat sat on the mat) (جلست القطة فوق الحصيرة)، فإن كل مصطلح يكتسب معنى يتعلق بما يسبقه أو يتبعه في الجملة. وهذا هو الترتيب النسقي في اللغة. ومع ذلك، يمكن أن تحل المصطلحات الأخرى محل أي واحدة من هذه؛ فيمكن أن تُستبدل 'Cat` (قطة) بـ 'rat` (فأر) أو 'bat` (خفاش) أو 'gnat` (بعوضة). وعلى نحو مماثل يمكن أن نستبدل 'mat` (حصيرة) بـ 'carpet` (سجادة) أو 'table` (طاولة) أو 'floor` (أرض). وهذا ما يسميه سوسور بالترتيب الترابطي للغة، وهو مستمد من طرائق اتصال العلامات بعضها ببعض في الذاكرة.

تظهر هذه المبادئ من الترتيب النسقي والترابطي في كل مستويات اللغة، وهي تتراوح ما بين اقتران الأصوات المختلفة وارتباطها داخل الكلمات، وبين ترتيب الكلمات في جمل أو محادثات. وهكذا يقدم سوسور تحليلاً للعلاقة داخل المستويات المختلفة للغة وبينها، بينما يستمر في توظيفه للمبادئ الأساسية نفسها. وبالنظر إلى دعوة سوسور إلى السيميولوجيا (علم الإشارات أو العلامات) التي يمكن أن نتصور من خلالها، كعلم يدرس دور العلامات كجزء من الحياة الاجتماعية، أن يعمل ذلك على تطوير مقاربة بنيوية فريدة في العلوم الاجتماعية. ويتضح ذلك من أعمال كل من كلود ليفي ستراوس الذي يؤكد أن العلاقات الاجتماعية في المجتمعات البدائية يمكن أن تعتبر كما لو كانت أنسجة لغوية أو أوامر رمزية. ويتضح أيضاً من أعمال رولاند بارثيز في عرض هذه الظاهرة أنها متنوعة مثل التشعب الاجتماعي، والأيديولوجيات السياسية، والأساطير، والعلاقات الأسرية، والنصوص الأدبية، وألعاب المصارعة، كأنظمة من العناصر المترابطة. ويظهر تأثير سوسور الجلي في تفسير جاك لاكان البنيوي لنظريات فرويد. وعلى الرغم من ذلك أكد لاكان استمرار اختفاء المدلول في ظل الدال، وذلك يتسبب بمشاكل بالنسبة إلى رسوخ المعنى، ويمهد الطريق أمام مقاربة «ما بعد البنيوية» في العلاقات الاجتماعية. وقد اضطلع في النظرية الأخيرة بعض الباحثين مثل جاك دريدا وجوليا كريستيفا (Julia Kristeva) وإرنستو لاكلو وسلافوج زيزيك.

انظر أيضاً: إميل دوركهايم.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Louis Althusser, Ro-
.land Barthes, Claude Lévi-Strauss

أهم الأعمال:

Course in General Linguistics . 1916. Originally lectures of 1907-11. Lon-
.don: Fontana, 1974

قراءات إضافية:

.Jonathan Culler. Saussure . London: Fontana, 1976

Roy Harris. Language, Saussure and Wittgenstein: How to Play Games
.with Words . London: Routledge, 1988

.David Howarth. Discourse . Buckingham: Open University, 2000

إميل دوركهايم (Emile Durkheim)

يعد إميل دوركهايم بالإضافة إلى كارل ماركس وماكس فيبر أحد أهم ثلاث شخصيات ذات تأثير فريد في تطوير وإنشاء السوسيولوجيا؛ إذ يعده الكثير من علماء الاجتماع أحد مؤسسي علم الاجتماع الأكاديمي. وعلى خلاف ماركس وفيبر، فقد حدد دوركهايم مهنته أنها مهمة تطوير علم الاجتماع كعلم مقبول ذي قدر داخل عالم الجامعة، وقد نجح في أداء هذا الدور المحترف.

ولد دوركهايم في 15 نيسان/أبريل عام 1858م، بمدينة إبينال عاصمة مديرية فوسجس بمنطقة اللورين في فرنسا. وقد كان والده كبير حاخامات فوسجس وهوت ـ مارن، وكان على دوركهايم اتباع نهج آبائه وأجداده في تولّي منصب كبير الحاخامات. وبغض النظر عن تجربة قصيرة غامضة في ظل تأثير مديرة مدرسة كاثوليكية، فيبدو أن دوركهايم هجر جميع المعتقدات الدينية فور انتهاء دراسته. وعلى الرغم من اتخاذه العقل أساساً لنظريته فيما بعد، فقد أعطى للدين مكانة ظاهرة في علم الاجتماع، بل اعتبره عنصراً أساسياً لفهم الحياة الاجتماعية. وربما لأنه لم ينسَ الروابط الاجتماعية التي كانت تربط مجتمع اليهود داخل الإلزاس واللورين، والتي ازدادت قوة بعد ظهور معاداة السامية عقب الاحتلال البروسي في العام 1870م.

على الرغم من أن دوركهايم كان طالباً متميزاً خلال فترة دراسته في إبينال فقد واجه ـ على ما يبدو ـ صعوبة للالتحاق بمدرسة النخبة نورمال سوبريور في باريس. ومع ذلك فقد استفاد بعد دخوله المدرسة من خبرة أساتذة متميزين أمثال الفيلسوف شارلز رينوفييه (Charles Renou-vier) والفيلسوف إميل بوترو (Emile Boutroux) والمؤرخ فوستل دو كولانج (Fustel de Coulanges) . كما شارك دوركهايم في مناظرات فلسفية وتاريخية كانت تقام بين الطلاب الذين أصبح بعضهم أعلاماً فيما بعد؛ أمثال ـ صديق عمره ـ عالم الاجتماع جان جور (Jean Jaures) ، والفيلسوفين هنري برغسون (Henry Bergson) وموريس بلوندل (Maurice Blondel) ، والمؤرخ هنري بير (Henry Berr) وكاميل جوليان (Camille Julian) ، وعالم النفس بيار جانيت. وبعد إتمام دراسته قضى دوركهايم فترة وجيزة درّس خلالها الفلسفة في المدارس الثانوية.

وفي العام 1887م، تم اختياره لتدريس العلوم الاجتماعية وعلم التربية بجامعة بوردو حيث أدخل أول مادة في علم الاجتماع في فرنسا. وعند بلوغه الخامسة والثلاثين، نال درجة الدكتوراه من جامعة باريس عن رسالته حول توزيع العمالة في المجتمع، ومع أنها كانت أقصر رسالة باللغة اللاتينية، إلا أنها عالجت فكرة مونتيسكيو «الفصل بين السلطات». وقد كانت أول مقالة منشورة عن الفلسفة الألمانية وعلم الاجتماع. وقد جذبت تلك المقالات انتباه لويس ليرد، مدير التعليم العالي بفرنسا في ذلك الوقت الذي كان مستاءً من التقدم الألماني في علم الاجتماع، وكان يتمنى تطوير التعليم في الجمهورية الثالثة على أساس عقلي علمي، وهو على ما يبدو المبدأ الذي يدعو إليه دوركهايم ويؤيده. وقد كانت بداية دوركهايم المؤثرة لنشر مذهبه الاجتماعي من خلال تدريب المعلمين بفرنسا. وقد اتسع مجال تأثيره بعد تعيينه أستاذاً للتدريس في جامعة السوربون في باريس عام 1902م، ولكن لم يكن منصبه، حتى عام 1913، هو الذي أبرزه في علم التربية والاجتماع، وإنما أحرز دوركهايم تقدمه عندما أصبح تدريسه للتاريخ ونظريات التعليم بفرنسا جزءاً إلزامياً من برنامج تدريب المدرسين. وقد أطلق بعض النقاد على آرائه اسم مذهب الدوركهايمية.

لقد ادخر دوركهايم مكانته داخل السوربون بما حققه من إنجازات قيمة خلال خمسة عشر عاماً في جامعة بوردو، والتي تعد من أخصب فترات حياته عطاء، سواء من حيث تنوع الموضوعات التي تناولها أم الكتب التي كتبها في هذا المجال. وإضافة إلى محاضراته العلمية التي ألقاها، وتناول فيها الأسرة، والانتحار، ومباحث علم الاجتماع القانونية والسياسية، والتضامن الاجتماعي، وعلم النفس، وعلم الجريمة، والدين، وتاريخ الاشتراكية، وتاريخ النظريات الاجتماعية. وتشمل منشوراته تقسيم العمالة في المجتمع (The Division of Labour in Society) ودراسة عن مونتيسكيو، و قواعد النهج السوسيولوجي (The Rules of Sociological Method) و الانتحار (Suicide) . كما نشر مقالات في مجالات مماثلة مثل زنا المحارم، وتمثيل الفردية والجماعية، وتعريف الظاهرة الدينية، وقانوني النشوء الجزائي، والطوطمية. كما أنشأ واحدة من أوائل الصحف المتخصصة في علم الاجتماع في العالم، وهي صحيفة لانّيه سوسيولوجيك (L'Année Sociologique) . وتعكس مساهمات دوركهايم ما مر به من مشكلات وقضايا ومناظرات في عصره. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت لها أهمية دائمة. وقد طرح دوركهايم المسائل المتعلقة بمنهج التطور الاجتماعي والمنهج العلمي لعلم الاجتماع وطرائق البحث الاجتماعية،

وأظهر الحاجة الماسة إلى دقة البحث بدلاً من كونه مجرد مبادئ عامة. كما أوضح أهمية القيم في علم الاجتماع، وجوانب علم الاجتماع الاقتصادية والقانونية، والتوجيه والتضامن الاجتماعي، والتفكير البدائي والمتحضر، والسمات الاجتماعية للمعرفة والإدراك، وعلم النفس الجماعي، وعلم الأخلاق، والديمقراطية والدولة، وطرائق التعليم ومشاكله.

ومن أشهر أعماله: تقسيم العمالة في المجتمع ، قواعد النهج السوسيولوجي ، الانتحار ، دراسة في علم الاجتماع والأشكال الأولية للحياة الدينية . وفي كتابه تقسيم في المجتمع ، برهن دوركهايم أن المجتمعات قد تحولت من مجتمعات بسيطة ـ حيث التضامن البدائي الذي يقوم على أساس عدم تخصيص الأدوار والوظائف ـ إلى مجتمعات معقدة حيث التضامن العضوي الذي يقوم على تبادل الأدوار المتخصصة، واعتماد كل منها على الآخر. وطبقاً لقواعد النهج السوسيولوجي، فإن علم الاجتماع يدرس الحقائق الاجتماعية التي تتميز بأنها سمات عامة للمجتمع، وكونها ناتجة عن الكبحين الشخصي والفعلي للسلوك الفردي. وتوضح دراسته للانتحار، درجات الاختلاف في عدد حالات الانتحار باختلاف البلاد والمناطق والمجموعات طبقاً لدرجة التكامل الاجتماعي والأخلاقي لدى تلك الحالات. وهذه الدرجة المنخفضة جداً من التكامل قد تنشأ عن فقدان المبادئ المشتركة (أنومي) أو العزلة والذاتية الشديدة (إيغويزم)، وعدم الانخراط في العلاقات الاجتماعية. وفى كتابه الأشكال الأساسية للحياة الدينية ، استخدم دوركهايم أمثلة من الديانات الطوطمية للأمريكيين والأستراليين الأصليين، ليوضح أن المفاهيم والرموز والمعتقدات الأساسية للمجموعات تنعكس على تنظيمات اجتماعية قديمة وحاضرة. وقد خدمت فكرة المجموعات الدينية المؤلفة فكرة إعطاء مجموعة من المجتمع هوية مشتركة وولاء حماسي.

من الممكن أن يبدو تعريف علم الاجتماع كدراسة للحقائق الاجتماعية، كما يظهر في البحث الميثودولوجي الذي يضمه كتاب قواعد النهج السوسيولوجي ، أمراً واضحاً في الوقت الراهن، ولكن نجاحه يرجع إلى إصرار دوركهايم على أن هناك عوامل مكبوتة ومقيدة بالنسبة إلى الطبيعة الاجتماعية يجب أخذها في الاعتبار عند تفسير السلوك البشري. لقد كافح دوركهايم ضد الاتجاه السائد لقصر تلك التفسيرات على علم النفس أو الأحياء. أما الأعمال الجوهرية الثلاثة التي نُشرت خلال حياته فهي تقسيم العمالة في المجتمع ، و الانتحار ، و أشكال الدين الأولية ، وهي تتشابه

في بنائها، وتختلف في مواضيعها وبياناتها. ويتم تقسيم كل عمل إلى ثلاثة أجزاء: الأول ، يعطي فيه تفسيراً لموضوع العمل. و الثاني ، يوضح فيه التفسيرات المختلفة للظاهرة، وعادة ما تكون ذات طابع نفسي أو فردي. وحينئذ يستخدم خليطاً من المناظرات والبيانات لعرض عدم ملاءمة تلك التفسيرات الناقصة والحاجة إلى تفسيرات اجتماعية تقوم على الأسباب الاجتماعية لتلك الظاهرة الاجتماعية؛ فعلى سبيل المثال، يرفض دوركهايم فكرة أن تقسيم العمالة في المجتمع تنشأ من السعي خلف تحقيق المزيد من السعادة والرفاهية، أو أن الانتحار عملية ناشئة عن عدم اتزان العقل، أو أن الدين ناتج من وجود قوة كونية أو طبيعية. وفي النهاية يضع في كل مسألة تفسيره الاجتماعي؛ إذ يفسر الحقائق الاجتماعية ـ كنمو قسم خاص من العمالة أو معدلات الانتحار أو الديانات الطوطمية والطقوس ـ كأي حقيقة اجتماعية أخرى تخضع للشروط الاجتماعية نفسها. وفي كتابه تقسيم العمالة ، يعتبر أن نمو السكان والكثافة السكانية والكثافة المعنوية تسبب في زيادة الاختلاف وتخصيص الوظائف والحاجة الماسة إلى التضامن العضوي الذي يقوم على تكامل الأجزاء. ويتباين ذلك مع التضامن الميكانيكي للمجتمعات الأكثر بساطة التي تعتمد على وحدة أجزائها وسيادة الوعي الجماعي عن ذلك الفردي. ويفسر هذا أيضاً التغير المتطور في الشخصية في حالة القانون والعقوبات من شخصية مقموعة في ظل التضامن البدائي، إلى شخصية لها سمات مجتمعات التضامن العضوي. ويحدد في الانتحار ، أن معدلات الانتحار تتفاوت من حيث كونها بين جماعات مثل الكاثوليك أو البروتستانت، أو بين المتزوجين وغير المتزوجين، أو بين الأغنياء والفقراء، أو في حالات الأزمات القومية أو الهدوء والأمن، وهي تتعلق باختلاف تحديد دوافعها بشكل عام بأربعة (أسباب) أنواع من عدم التوازن في العلاقة بين الفرد والمجتمع: اثنان يتعلقان بمدى درجة التكامل الجماعي أو التفاعل معه (إيغويزم ـ أقل من اللازم، الترايزم ـ أكثر من اللازم)، والاثنان الآخران يشيران إلى درجة الانتظام الأخلاقي (أنومي ـ أقل من اللازم، فيتالزم ـ أكثر من اللازم)؛ وفى كتابه أشكال الدين الأولية أثبت دوركهايم أن الدين يقوم بدور أساس في ربط الناس ببعضهم بعضاً، ولذا فهم في الحقيقة يقدسون المجتمع ذاته.

وبعيداً عن تأثرها بطريقة دوركهايم الاجتماعية، تكتظ هذه الدراسات بما يثير الفكر وينأى عن المشاعر والأحاسيس؛ ففي كتابه تقسيم العمالة ، يقول دوركهايم إن العقاب على الجريمة إنما وُضع ليؤثر في من يلزمهم القانون من المواطنين أكثر من المجرم نفسه. ومن بين اكتشافات الانتحار ،

نجد أنه عندما يحكم شخص ما أن الزواج ضار بالمرأة العقيمة، فهذا حكم عليها بالانتحار، وآخر يرجح أن الازدهار الاقتصادي يزيد من حالات الانتحار أكثر من الثورات والحروب. ويستخدم كتاب أشكال الدين الأولية للحياة الدينية، كدليل على وجود الطوطمية بين الأستراليين والأمريكيين الأصليين، ويوضح وظيفة الدين الاجتماعية، لكنه يوضح أيضاً أن أفكارك الدينية لا تمثل فكراً جماعياً عن ترتيب المجتمع ذاته فحسب، بل إن هناك أيضاً أفكاراً عن المسافة والوقت والزمن.

إن أكبر دليل على أهمية أفكار دوركهايم الاجتماعية، أنها لا تزال تثير الاهتمام حتى يومنا هذا، باتخاذه مرجعاً استشهادياً في كثير من المناظرات والتطورات النظرية الجديدة. إن أحد الاتجاهات التي يمكن لمس وجود تأثير لها عند إعادة قراءة أعمال دوركهايم هو ما يسمى بـ «الدورة الثقافية»، التي يتداولها علم الاجتماع في أواخر القرن العشرين. وأكثر من أي عالم اجتماع آخر من علماء الاجتماع الأوائل، فقد قدم دوركهايم أدوات فهم مفيدة لاستثمار العمليات والإنشاءات الرمزية التي تهتم بصنع المعنى وإعادة قولبته. وكمثال على ذلك نظرته البعيدة المعنية بالمجتمعات ثنائية الطبقات مثل الديني والدنيوي، والنقي والملوث، ونحن والآخر، كما تم تناولها في كتاب أشكال الدين الأولية ، وكتاب التصنيف الأولي الذي شاركه فيه ابن أخيه مارسيل موس (Marcel Mauss) . وقد أدى ذلك إلى تكوين قاعدة التحليل الإنشائي التي أنشأها كلود ليفي ـ ستراوس وغيره، والتي تعمقت داخل العلوم البشرية والاجتماعية.

توفي دوركهايم في العام 1917م. ومن بين الأعمال التي تم نشرها بعد وفاته ولفتت الانتباه إليه، الأخلاق المهنية والأخلاق المدنية (Professional Ethics and Civic Morals) ، و نشوء علم التربية (The Evolution of Educational Thought) ، وقد أثبت الأول علاقة خاصة بالمناظرات الحديثة بالمجتمع المدني، بينما وجد أن الأخير له علاقة بدراسات أيديولوجية التعليم والمعاهد. إن علم الاجتماع السياسي عند دوركهايم، والذي كان يعد حديث العهد، يعد الآن نظرية اتصالية بين السياسات وهي نظرية حديثة تماماً. إنه يميز بين الوظائف الإدارية والإلزامية والمخابراتية في المؤسسات السياسية ومؤسسات الدولة. وتُعتبر مناقشة وظائف مخابرات الدولة في كتاب الأخلاق المهنية والأخلاق المدنية ـ والتي تهتم بتشكيل مجموعة ممثلين يتميزون بدرجة عالية من الوعي والتفكير، وبذلك يستخلصون ويهذبون مُثل ومعتقدات الجماهير التي تم التفكير بها مسبقاً

ـ ذات صلة خاصة بالأيديولوجية والرؤى والجو العام للمجتمع المدني. وأما بالنسبة إلى الروايات والمحادثات التي تظهر في المحيط العام والمجتمع المدني، فإن فكرة دوركهايم عن الشفرات الثنائية مفيدة. وكمثال لمسلسل سياسي أمريكي حديث يمكن إخضاعه لتحليل دوركهايم هو أزمة ووترغيت التي شوهدت كدراما عامة لطقوس التطهير تتضمن روايات تتكون من مجموعتين من سمات الخير والشر. وأيضاً من مفاهيم دوركهايم المثمرة هو لحظات أو مسلسلات «الفوران الجماعي». وقد استخدم دوركهايم أمثلة تتدرج من الدين البدائي حتى الثورة الفرنسية لشرح اللحظات الديناميكية المبدعة المحتملة. ولم تقم هذه الثورة لإعادة إنتاج المجتمع من خلال خبرة الإحساس المتقد بهوية جماعية فحسب، بل لإعادة بناء التضامنات الاجتماعية في مواقف معينة. وقد لاقى هذا النوع من تحليل دوركهايم نقداً في خطواته الأولى بزعم أن دوركهايم كان عليه أن ينادي بتغيير المجتمع بدلاً من إعادة إنشائه. إن نظرية دوركهايم في إحياء الدين والاهتياج الجماعي، قد ظهرت مرة أخرى في النظريات الحديثة. لقد تبين أن الاتجاه المعاصر نحو العزلة الزائدة غير مناسب لكثير من الناس الذين يتفاعلون مع التدين والتحركات الجماعية التي تدعو إلى «البقاء دافئين معاً» في مواجهة رياح التمدن الباردة، وتجربة العزلة عن النظام السياسي الاقتصادي. كما إن كتابات دوركهايم عن التربية الأخلاقية والقيم الأخلاقية لها علاقة وثيقة بمناظرات قامت بين الفلاسفة السياسيين المتنافسين حول الانعزالية والمجتمعية، وبخاصة في وجه الضغوط الليبرالية الحديثة. وكذا بدأ بعض الاقتصاديين المعاصرين في التفاعل ضد الليبرالية الجديدة في الاقتصاد، وحبذوا أخذ الجانب المعياري في السلوك الاقتصادي كما هو مذكور في كتاب الأخلاق المهنية والأخلاق المدنية ، وفي مناقشته للأشكال غير الطبيعية في كتاب تقسيم العمل في المجتمع . وأخيراً اكتشفت مجموعة أفكار في التربية الأخلاقية ترتبط بمناظرات حديثة حول نظرية ميشال فوكو عن الحكومة وأشكال الحكم الذاتي في المجتمع الليبرالي الديمقراطي. وعلى الرغم من أن دوركهايم وفوكو لم يتفقا على معيار يمثل التوازن في العلاقة بين الفرد والمجتمع، إلا أنهما ركزا على أهمية تطوير أشكال التنظيم الأخلاقي التي تقوم على قيادة النفس كما يدعو إليه المجتمع الديمقراطي الليبرالي الحديث.

انظر أيضاً: موريس هالبواكس ، مارسيل موس ، ألفريد رادكليف ـ براون.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Basil Bernstein, .Mary Douglas, Talcott Parsons, Georges Gurvitch, Claude Lévi-Strauss

أهم الأعمال:

The Division of Labour in Society . 1893. Trans. G. Simpson. New York: Macmillan, 1933. New translation by W. D. Hall. London: Macmillan, .1984

The Rules of Sociological Method . 1895. Trans. Sarah A. Soloway and John H. Mueller. Chicago: University of Chicago, 1938. New translation .by W. D. Halls. London: Macmillan, 1982

Socialism and Saint-Simon . 1895-6. Trans. Charlotte Sattler. Yellow .Springs, OH: Antioch Press, 1958. First Published in French, 1928

Suicide: A Study in Sociology . 1897. Trans. John A. Spaulding and George .Simpson. Glencoe, IL: Free Press, 1952

Primitive Classification (with M. Mauss). 1903. Trans. Rodney Needham. .London: Cohen & West, 1963

Sociology and Philosophy . 1898-1911. Trans. D. F. Pocock. London: Co- .hen & West, 1956. Published in book form in French, 1924

Education and Sociology . 1903-11. Trans. Sherwood D. Fox. Glencoe, IL: .Free Press, 1956. Published in book form in French, 1922

The Elementary Forms of the Religious Life . 1912. Trans. J. W. Swain. .London: Allen & Unwin; New York: Macmillan, 1915

Moral Education . 1912. Trans. Everett K. Wilson. Glencoe, IL: Free Press, .1961. Published in book form in French, 1925

The Evolution of Educational Thought . 1913. Trans. Peter Collins. London: Routledge & Kegan Paul, 1977. Published in book form in French, .1938

Professional Ethics and Civic Morals . c.1917. Trans. Cornelia Brookfield. London: Routledge & Kegan Paul, 1957. Published in book form French as .Leçons de sociologie , 1950

قراءات إضافية:

Steven Lukes. Emile Durkheim: His Life and Work . London: Allen Lane, .1973

William S. F. Pickering, ed. Emile Durkheim: Critical Assessments of Leading Sociologists . third series, London and New York: Routledge, .Taylor and Francis, 2001

.Ken Thompson. Emile Durkheim , revised ed. London: Routledge, 2002

دبليو إ. ب. ديبوا (W. E. B. Dubois)

كانت مشكلة القرن العشرين هي مشكلة لون العرق؛ العلاقة بين الأعراق داكنة لون البشرة والأعراق ذات البشرة الفاتحة، في كل من آسيا وأفريقيا، وفي أمريكا وجزر البحر.

لا يزال ديبوا يُعتبر المفكر الأمريكي الأفريقي الأكثر شهرة في القرن العشرين. ولم يزل كثير من علماء الاجتماع والتاريخ والسياسة والآداب والفلسفة، والتخصصات البينية الحديثة في مجال الدراسات الأفريقية ـ الأمريكية، والدراسات الثقافية يقدّرون كثيراً من المفاهيم والمنهجيات والنظريات التي ساهم فيها ديبوا. وقد كانت مساهمات ديبوا الأولى في مجال علم الاجتماع ـ على الرغم من أنه أصبح من الناحية الفكرية أكثر بكثير من مجرد عالم اجتماع؛ إذ عمد ديبوا إلى نشر كتب في التاريخ والروايات والمقالات والشعر، إضافة إلى تحرير الدوريات؛ فقد كان مثال المفكر في أواخر القرن التاسع عشر، من حيث اتساع معرفته في العديد من العلوم، وسبر غورها. ولا تزال تركته مستمرة؛ إذ من المستحيل أن ترجع اليوم إلى أشهر المجلات أو الصحف أو الدوريات الأفريقية ـ الأمريكية، من دون أن تجد إحالة على ديبوا.

لقد كان عمل ديبوا استجابة للظروف المتقلبة التي واجهتها الولايات المتحدة والعالم أجمع في سبعينيات القرن التاسع عشر حتى ستينيات القرن العشرين. ومن الصعب الحكم على مساهماته بشكل مستقل لكونه أمريكي ـ أفريقي؛ عاش في فترة قوانين الفصل العنصري في الولايات المتحدة، حيث ساد العنف والتمييز العنصري ضد السود هناك، وفي مستعمرات الإمبراطوريات البريطانية والفرنسية والبرتغالية. ولقد قام ديبوا بعمله الذي طالب فيه بالمساواة في فترة كان الأمريكيون الأفارقة يُخصَون ويُعدمون من دون محاكمات قانونية، وذلك بدراية كاملة من المسؤولين الحكوميين. كان لهذه الحقائق الاجتماعية تأثير مباشر عليه، وكان عمل حياته بشكل كبير استجابة لتحليله لهذه الحقائق. وشأنه شأن معظم المفكرين السود الذين ذاع صيتهم خلال المئة عام الماضية، سافر ديبوا عبر القارات والبلدان، كما لو أن المسافة لم تكن ذات أهمية على الإطلاق. وكان يعتبر أن السفر عبر الشتات الأفريقي (المناطق والدول خارج أفريقيا حيث السكان من أصل أفريقي) أمر أساس لمهماته.

ولد ديبوا في العام 1868، في بلدة صغيرة في بارينغتون الكبيرة بمساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية، وقامت أمه بتربيته بمفردها. وحاز ديبوا درجة البكالوريوس في العام 1888 من جامعة فيسك (جامعة فصل عنصري للأمريكيين الأفارقة فقط)، وحصل على البكالوريوس الثاني، وعلى درجة الماجستير والدكتوراه كذلك من جامعة هارفرد، وكان بحث تخرجه أساساً في التاريخ وعلم الاجتماع. وقضى ديبوا أيضاً حوالى عامين في جامعة برلين، التي كانت في ذلك الوقت المركز الأكثر تبجيلاً في العالم لدراسة التاريخ. وعلى الرغم من حصوله على درجة الدكتوراه من هارفرد، فلم تعيّنه أي جمعية بيضاء كأستاذ. وكان أول عمل له في كلية صغيرة للسود ـ وهي ويلبيرفورس ـ حيث درس اللاتينية واليونانية. ودرّس الموضوعات نفسها في جامعة بنسلفانيا قبل أن ينتقل إلى جامعة أتلانتا لتدريس علم الاجتماع وللقيام بأبحاث في علم الاجتماع السلوكي. وقضى عقوداً عديدة يدرس هناك بين عامي 1897 و1910، ومن ثم بين عامي 1934 و1944.

بدأت لديبوا حياة مهنية أخرى في العام 1910، عندما أصبح محرراً لجريدة إخبارية تابعة لمؤسسة متعددة الأعراق جديدة أنشأتها الجمعية الوطنية لتطوير الملونين (NAACP) وتحدى في هذه الجريدة ظلم نظام جيم كراو (Jim Crow) للفصل العنصري، وناشد الطبقة المتوسطة من السود باسم كل السود، وأقام منتدى لعدد متنوع من كتابات السود عن التاريخ والسياسة والثقافة والفن. وقد مارس دوراً في نهضة هارلم (Harlem Renaissance) في عشرينيات القرن العشرين، وهي فترة إبداع ونشر غير مسبوقين للأمريكيين الأفارقة في مجالات الفن والآداب والسير الذاتية والموسيقى. ونشر في جريدته لعدد من المؤلفين البارزين مثل لانغستون هوغز (Langston Hughes) وكونتي كولين (Countee Cullen) . كما أسس جريدة أكاديمية هي جريدة فيلون (Phylon) في العام 1940، وكان محرراً لهذه الجريدة من العام 1940 حتى العام 1944.

يعتبر ديبوا عالم الاجتماع الأسود الأول في مجال علم الاجتماع، وكذلك أول عالم اجتماع أمريكي ملون يُجري دراسة استقصائية على نطاق واسع. وقد نشرت هذه الدراسة في فيلادلفيا نيغرو (Philadelphia Negro) .

وكانت الدراسة عبارة عن استقصاء لظروف السود في فيلادلفيا أُجري في تسعينيات القرن التاسع عشر، وكان كثير من الاستقصاءات في هذه الدراسة قد قام به ديبوا نفسه. لقد كانت السوسيولوجيا

كعلم في طور الطفولة، وقد أُلهم ديبوا كثيراً بالتطبيق الواعد للمعرفة العلمية على قضايا عويصة تتعلق بتنظيم علم الاجتماع، والاستقرار، والنزاعات. وقد رأى أن دراسة السود عبر العالم هي طريقة من طرائق توضيح مبادئ علم الاجتماع وتطبيقها، وكذلك للمساهمة معرفياً لحل المشكلات الاجتماعية للعلاقات العرقية.

لقد ساهم ديبوا بعدة مفاهيم أساسية كانت مبدعة في ذلك الوقت، ولم تزل مركزية للتحليلات السوسيولوجية حتى يومنا هذا. ويبقى اللون المفهوم الأكثر أهمية كفكرة ملحة لتفسير عدم المساواة بين الأعراق؛ وبينما تنبأ كل من دوركهايم، وفيبر، وماركس ـ لأسباب مختلفة ـ بتراجع الوعي العرقي في التنظيم الاجتماعي للمجتمعات الغربية، غير أن ديبوا رأى العكس. فالعرق سيظل سبباً صلباً ملاماً للتقسيم الاجتماعي. ففي بداية القرن الحادي والعشرين، يجد السود في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ـ على الرغم من بعض المكاسب المهمة ـ أنفسهم في فقر وبطالة وفي السجون اكثر من البيض. وبما أن العرق يبقى الجانب الأساس للتنظيم الاجتماعي، فمن الواضح أن لون البشرة لا يزال يشكل حياة الناس.

إن أغلب ما ساهم به ديبوا في علم الاجتماع تم تجاهله في أيامه. ولم يرحب به في مؤتمرات علم الاجتماع، ولا في كبرى دوريات علم الاجتماع. ولكن ذلك تغير الآن، وتم الاعتراف حالياً بديبوا كأحد أكثر المساهمين أهمية في علم الاجتماع الأمريكي. فقد شمل الاجتماع السنوي لجمعية علم الاجتماع الأمريكية الذي عقد في العام 2005، عدة جلسات عن ديبوا ونُظمت جولات ميدانية في الأحياء التي أجرى فيها ديبوا دراسته في فيلادلفيا نيغرو .

إن أكثر كتب ديبوا شهرة هو أرواح القوم السود (The Souls of Black Folk) ، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات نُشرت في العام 1903. وكانت تلك المقالات في جزء منها عن سيرته الذاتية، وجزء عن التاريخ والثقافة، ومسائل فلسفية وجزء عن السوسيولوجيا. وتوسع فيها في مفهومين كانا بارزين في عمله «الوعي المزدوج» و«العُشر الموهوب». وفي سياق تحديه لنفاق الفصل العنصري والعنف ضد السود في الولايات المتحدة، والوعد بالمساواة والإنسانية والحرية لكل البشر، استخلص ديبوا هذه النتائج عن الأفارقة الأمريكيين:

يشعر المرء بازدواجيته؛ أمريكي زنجي؛ وروحان؛ وفكران لا يتوافقان؛ وفكرتان كلها تتصارع داخل جسد أسود واحد، ولا يمنعه من التمزق سوى القوة الكامنة التي يملكها.

يظل هذا المفهوم للوعي المزدوج أحد أكثر المفاهيم تمحيصاً وشمولاً في تقييم حياة السود في الولايات المتحدة اليوم. وجادل ديبوا بمفهوم «العُشر الموهوب» أن على المتعلمين تعليماً عالياً من الأفارقة الأمريكيين الموهوبين أن يتحملوا مسؤولية قيادة السود الأقل حظاً في المطالبة لرفع مستوى الأعراق. فقد عاش ديبوا حياته الخاصة كقدوة لجهد كهذا. وفيما تحدى آخرون مثل عالم الاجتماع فرانكلين فرازييه (Franklin Frazier) ، فكرة أن على الأغنياء مساعدة الفقراء، رأى ديبوا في الأغنياء السود في النصف الأول من القرن العشرين شكلاً من أشكال «برجوازية السود» تعيش بشكل مثير للشفقة بتقليد الأغنياء البيض، وازدراء الفقراء السود. ولا يزال هذا المفهوم مهماً وأكثر المفاهيم إثارة للنقاش في علم اجتماع الأفارقة الأمريكيين في الوقت الراهن فيما يتعلق بدور التقسيمات الطبقية.

لقد كتب ديبوا العديد من الكتب عن أفريقيا وعن الأفارقة عبر العالم، وبنى على عمل ألكسندر كروميل (Alexander Crummel) وإدوارد بليدين (Edward Wilmot Blyden) ، وهما أول كاتبين أفريقيين أمريكيين بارزين يكتبان في هذا الموضوع. وقد نشر ديبوا كتاباً قصيراً أطلق عليه الزنجي (The Negro) ، وآخر أطلق عليه العالم وأفريقيا (The World and Africa) . وقد وثّق هذان الكتابان دورَ الأفارقة في نشر الحضارات. وكتب مقالات عديدة عن التاريخ والثقافة والفنون الأفريقية نُشرت في دورية NAACP . وتعزز هذه المساهمات الكثير من الأعمال التي أُنجزت في أقسام دراسات الأفارقة الأمريكيين في الوقت الحاضر.

وبالتزامن مع أنشطته الأكاديمية، شارك ديبوا في الحملات الاجتماعية والسياسية للمساواة بين الأعراق. وفي الولايات المتحدة، حيث واجه السود التمييز العنصري والعنف، شعر ديبوا بحاجة ملحة إلى التعامل مع أنشطة سياسية. فكتب يقول: «لا يمكن لأي شخص أن يكون عالماً هادئاً، وبارداً، ومنعزلاً بينما يُعدم الزنوج من دون محاكمات ويقتلون ويجوّعون». وتحدّى ديبوا الكولونيالية والإمبريالية في الإمبراطوريات الأوروبية التي هيمنت على معظم القارة الأفريقية. كما ساعد في إنشاء «الأفريقانية الشاملة» كحركة ثقافية سياسية عالمية. وعززت الأفريقانية

التنظيم الجماعي العالمي للسود من أجل تحقيق الاستقلالية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عن الأوروبيين. وكان الهدف الرئيس لهذه المنظمة القضاء على الاستعمار في أفريقيا. وقد مارس ديبوا دوراً حيوياً في تنظيم أول مؤتمر للبلدان الأفريقية الذي عُقد في باريس في العام 1919، إضافة إلى مساهمته في العديد من المؤتمرات اللاحقة. وقد تم تكريمه في مؤتمر الاتحاد الأفريقي في العام 1945. وأصبح في أثناء عمله ذاك زميلاً، وصديقاً، ومستشاراً لبعض أبرز زعماء القرن من السود بما فيهم كوامي نكروما (Kwame Nkrumah) ، أول رئيس لغانا، وجومو كينياتا (Jomo Kenyatta) ، وأول رئيس لتنزانيا.

ومع ذلك، دخل ديبوا في صراعات مع عدد من الزعماء السود. وعارض الفلسفة السياسية التي أتى بها بوكر ت. واشنطن (Booker T. Washington) ، وهو من أبرز الشخصيات الأمريكية من أصل أفريقي في نهايات القرن التاسع عشر. كان واشنطن يحث السود على التخلّي عن حقوقهم السياسية، والتركيز على التقدم الاقتصادي في العمل الزراعي. وشعر ديبوا أن القبول المؤقت بمثل هذا الأمر سيسفر عن قبول دائم، ومن هنا كان التصادم المتكرر بين الشخصيتين. وقد أدى ديبوا دوراً مركزياً في تأسيس حركة نياغرا (Niagra Movement) التي بدأت في العام 1905، وشملت مجموعة من أبرز المفكرين والتربويين والنشطاء السود، الذين عمدوا إلى إنشاء حركة مضادة لحركة واشنطن. وقد حرص هؤلاء على تشجيع المواجهة والتحريض العنصريين، كسبيل للقضاء عليهما.

كما كان لديبوا نزاعه مع ماركوس غارفي (Marcus Garvey) ، زعيم أكبر حركة للسود في تاريخ القرن العشرين ـ الرابطة العالمية لتحسين أوضاع الزنوج ـ والتي بلغت أوجها في عشرينيات القرن الماضي. وعلى الرغم من أن ديبوا وغارفي كانا موالييْن للنزعة الأفريقية، إلا أنهما اختلفا في مبادئهما وتوجهاتهما. وكان ديبوا يتمتع بدرجة عالية من التعليم، والتحفظ، وكثيراً ما كان متغطرساً ومتعالياً، فيما كان غارفي ينتمي إلى الطبقة العاملة، وينطلق من خلفية نقابية، وتعليم أساسي محدود. إلا أن بشرة ديبوا فاتحة اللون في مقابل بشرة غارفي الداكنة كانت عقبة في طريقه بصورة أو بأخرى، حيث عمد غارفي إلى اتهام السود ذوي البشرات الفاتحة بأنهم يرتقون على حساب ذوي البشرات الداكنة. ثم اندلعت الاختلافات السياسية وتفاقمت بسبب الاعتداءات الشخصية، وبقي

الرجلان عدوين مدى الحياة. وتصادم ديبوا كذلك مع والتر وايت (Walter White) ، رئيس الجمعية القومية لتقدّم الملوّنين (NAACP) .

إضافة إلى إحباط ديبوا من إخفاق البحث الأكاديمي المحايد في تحقيق التغير الاجتماعي، كان مستاء بالقدر نفسه من إخفاق النداءات الموجّهة إلى المجموعات المهيمنة في المجتمع الأمريكي الرأسمالي العنصري. وقد بدأ اهتمامه بماركس بينما كان طالباً في برلين. وبمرور الوقت أظهر عمله تأثره المتزايد بالماركسية. وظهر تأثره بها جليّاً في أحد أهم كتبه Black Reconstruction in America . وكان ديبوا على صلة وثيقة ببول روبسون (Paul Robeson) الذي شاركه كثيراً من أفكاره الاشتراكية ونزعاته الأفريقية. وقد قام بزيارة الاتحاد السوفياتي في العام 1926، عندما كان عمر الاتحاد تسع سنوات.

لقد أدى تعاطف ديبوا مع الاتحاد السوفياتي، واندماجه مع المفكرين اليساريين وأفكارهم ـ بصفة خاصة الاهتمامات الدولية؛ كالسلام والأسلحة النووية ـ إلى ضعف تأثير أعماله بحلول منتصف القرن. وكان معظم السود آنذاك يولون اهتماماً أكبر بالحقوق المدنية وإنهاء عزلة جيم كراو، فيما رأى بعضهم بعض التناقضات في أعمال ديبوا. فعلى سبيل المثال، مناداته المستمرة بالتضامن العنصري، وبخاصة فيما يتعلق بمساعدة فقراء السود من قِبل أغنيائهم. وقد أغفل هؤلاء الذين سارعوا بانتقاد ما بدا تناقضاً في أعماله أن تحليلاته امتدت لتسعة عقود، وتضمنت تلك الحقبة حربين عالميتين، واستقلال الهند ومعظم بلدان أفريقيا والكاريبي، واختراع السيارة والطائرة. ولا ننسى أن القليل من المفاهيم أو التحليلات يمكنه تجاوز الخصوصية التاريخية والاجتماعية، وربما يجدر بنا أن نتذكر كلمات جون مايناردكينيز (John Maynard Keynes) : «يا سيدي.. عندما تتغير الحقائق، يتغير رأيي.. فماذا عنك؟».

تكمن قوة أعمال ديبوا كما نراها اليوم، ليس فقط في مساهماتها الدائمة، وإنما أيضاً في كونها تذكيراً للعلاقة بين الفكر الاجتماعي والتطبيق الاجتماعي؛ فقد جازف ديبوا في عمله وفي كتاباته؛ فكثيراً ما تعرض لاتهامات مختلفة بكونه من النخبة، وأنه انفصالي، وشيوعي؛ حتى أنه حُرم من تمويلات أبحاثه وتعليمه بسبب موقفه المتطرف والمعارض تجاه واشنطن، ثم في وقت لاحق بسبب مبادئه الاشتراكية. وأخيراً اضطر إلى التقاعد من جامعة أدانتا في العام 1944، وفُصل من عمله في

(NACCP) في العام 1948، بل وتعرض للاتهام والسجن لفترة وجيزة، وحُرم من اقتناء جواز سفر من الحكومة الأمريكية لمعظم سنوات منتصف القرن. وقد تعرضت حياة ديبوا للخطر المباشر عدة مرات من قِبل عنصريين بيض، وبخاصة قبل الحرب العالمية الثانية. وكثيراً ما اضطر إلى الهرب من مكتبه لتجنب اغتياله. وفي العام 1958، حصل ديبوا على جواز سفره، فطاف بالاتحاد السوفياتي والصين الشيوعية. ثم زار غانا في العام 1960، في حفل تنصيب أول رؤسائها، كوامي نكروما. وفي العام 1961، انضم ديبوا إلى الحزب الشيوعي، وغادر الولايات المتحدة نهائياً إلى غانا، وشرع في عمله The Encyclopaedia Africana . ثم تخلّى عن جنسيته الأمريكية في العام 1963، وأصبح من مواطني غانا، حيث مات بعد ذلك بستة أشهر في 27 آب/أغسطس 1963، عن عمر بلغ الخامسة والتسعين. ولو أن ديبوا عانى الكثير، فقد تلقى الكثير من التكريم كذلك، ولم تزل أعماله وكتاباته وقدرته على الجمع بين التحليل المعقّد والعمل والبصيرة السياسية ومهاراته واسعة النطاق في مختلف التخصصات مصدر إلهام للطلاب والباحثين والنشطاء.

أهم الأعمال:

The Philadelphia Negro . 1899. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1996.

The Souls of Black Folk . 1903. New York: Library of America, 1986.

The Negro . 1915. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2001.

Black Reconstruction in America . 1935. New York: Free Press, 1998.

The World and Africa . 1947. New York: International Publishers, 1979.

قراءات إضافية:

David Levering Lewis. W. E. B. Du Bois: Biography of a Race, 1868-1919 .. New York: Henry Holt, 1993

David Levering Lewis. W. E. B. Du Bois: The Fight for Equality and the .American Century 1919-1963 . New York: Henry Holt, 2000

Michael B. Katz and Thomas J. Sugrue, eds. W. E. B. DuBois, Race and the City: The Philadelphia Negro and Its Legacy . Philadelphia: University .of Pennsylvania Press, 1998

ألفريد رادكليف - براون (Alfred Radcliffe-Brown)

ولد ألفريد ريجينالد براون (والذي لقب نفسه فيما بعد برادكليف) عام 1881م، وتخرج عام 1905م، كأحد أفراد أول كوكبة لأول برنامج للطلاب في مرحلة ما قبل التخرج في بريطانيا شمل تعليماً أساسياً للأنثروبولوجيا. وأنشئ هذا البرنامج في جامعة كامبردج بجهود اثنين من علماء الطبيعة هما وليام ريفرز (William H. R. Rivers) وألفريد س. هادون (Alfred C. Haddon) . وكان هدفهما تقديم دراسة علمية دقيقة للأنثروبولوجيا النشوئية التأملية عند الفيكتوريين. وفي العام 1910 تبنى رادكليف ـ براون نظرية دوركهايم في علم الاجتماع، وتخلى عن أفكار إعادة البناء التاريخي الخاصة بمعلميه. وقام بالتعاون مع برونسلو مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) ، بتأسيس علم الأنثروبولوجيا الاجتماعي الحديث المبني على ركيزتين من العمل الإثنوغرافي الميداني المكثف والتحليل الهيكلي أو الوظيفي للاصطلاحات الدوركهايمية.

كان رادكليف واعياً تماماً بدوره الريادي في العلوم المتخصصة. وكان الكثير من منشوراته في الأصل عبارة عن محاضرات عامة، خُصصت لعرض وتوضيح خطة دراسته النسبية في علم الاجتماع. ومن ثم نشر علمه الجديد في جميع أنحاء العالم. واحتل الكرسي الأول في الأنثروبولوجيا الاجتماعية في الإمبراطورية البريطانية في جامعة كيب تاون، وشغل في جامعة سيدني وأكسفورد الكرسي الأساس في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وعمل سفيراً لهذا العلم في جامعة شيكاغو وفي جامعات أخرى في كل من البرازيل والصين ومصر.

لقد تأثّر رادكليف ـ براون، الذي كان يُتّهم إعجاباً أكثر منه استحباباً بأنه متغطرس وفظ، بطريقة حياة الطبقة الإدواردية العليا وزيّها (حيث تميز بنظارته المونوكل أحادية الزجاج)، على الرغم من تربيته وسط بيئة متواضعة وتربيته على يد أمه الأرملة. وحين اضطر إلى مغادرة كلية الملك إدوارد في برمنغهام، والتي حصل فيها على منحة دراسية وهو في سن الخامسة عشر. وبعد عمله كأمين مكتبة لبضع سنوات، درس لمدة قصيرة في جامعة برمنغهام، ونال بعدها منحة تعليمية لكلية ترينيتي في كامبردج، وفيها اجتاز امتحانات العلوم النفسية والمعنوية. وفي الفترة ما بين العامين 1906م

و1908م، قام بدراسة ميدانية في جزيرة أندامان. وفي العام 1910م، شرع بعمل بحث ميداني في أستراليا، حيث دار عمله بالتحديد حول أنظمة النسب والزواج المعقدة للسكان الأصليين. وعلى مدى العقدين التاليين قام بنشر سلسلة من المقالات عن النسب في أستراليا، جُمعت في مقالة طويلة بعنوان «التنظيم الاجتماعي للقبائل الأسترالية، التي أصبحت واحدة من نقاط الإحالة الرئيسة في النقاشات حول النسب لجيل كامل.

كان هدف رادكليف ـ براون مثل هدف ريفيرز، وهو جعل الأنثروبولوجيا الاجتماعية علماً إمبريقياً، وذلك بالانتقال من الملاحظات إلى التصنيف والتعميم. ويبدأ عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة «أي منطقة محلية ملائمة ذات حجم مناسب» ويركز على «شبكة العلاقات التي تصل السكان بعضهم ببعض، وتصلهم بالآخرين في مناطق أخرى». وتمثل الحياة اليومية المادة الخام، ولكن العالم الإثنوغرافي يهتم حقيقة بتصوير الشكل المجرد، أي «الشخص»، و«الدور الاجتماعي» وتحديد ملامحهما بواسطة العرف والقانون. ومن خلال «شبكة العلاقات» ينتهي الإثنوغرافي إلى وجود شبكة دائمة من العادات والتقاليد. يموت الرئيس وتتزوج البنت وتترك منزلها وتولد الأطفال، ولكن تبقى تقاليد رئيس القبيلة وتقاليد الأسرة والعائلة. تمثل هذه الخصائص الثابتة من العادات والتقاليد للأشخاص والمجموعات، صورة هيكلية في المجتمع. تكون الصورة الهيكلية عادة في حالة توازن ويعمل أفرادها معاً بانسجام. وكان التناظر الوظيفي الذي فضله متماشياً مع هيكلية العضوية البيولوجية.

لقد ألمح رادكليف ـ براون ذات مرة أن القيم والعادات الاجتماعية لم يؤسسها الأنثروبولوجي، ولكنها تتعلق بما يقوله الناس عن الأعراف في مجتمع معين وما يفعلونه. ومع ذلك فقد ألمح بوجه عام إلى أنه إذا كان على الإثنوغرافي البحث وراء تدفق العملية الاجتماعية إلى أن يصل إلى وصف الخصائص الدائمة للصورة المجتمعية، فينبغي للمراقب أن يبحث وراء ما أخبره به الناس للتنبؤ بالحقيقة والغاية الأساسية للشعائر والعادات. ويمكن أن تسمع راوياً يقول إن التضحية تطعم الأسلاف، ولكن الغرض الحقيقي، وكذلك المعنى الحقيقي أيضاً وراء هذه الشعيرة، هو التآزر للمحافظة على شكل المجتمع وهيكليته. لذا فإن عبادة الأسلاف تحافظ على قيم المجتمع الأبوي وتثير العواطف التي تعتمد عليها الحياة الأسرية. و«الوظيفة» هي عبارة عن تأثير مؤسسة، أو

عادة أو تقاليد أو اعتقاد أو أحد أشكال الأنشطة الاجتماعية المنتظمة، مثل مراسم جنازة أو محاكمة أو عقاب مجرم في كل جزء من أجزاء المجتمع أو عملية الحياة الاجتماعية.

ولتحديد هذه الوظيفة يبدأ الإثنوغرافي بإجراء مقارنة بين العادات المماثلة أو المعتقدات في المجتمع. فعلى سبيل المثال أصر سكان جزيرة أندامان على مراسم البكاء في بعض المناسبات عند اللقاء بعد فراق لمدة طويلة أو عند حصول صلح بين متخاصمين أو في الجنائز أو في الأفراح أو المراحل المختلفة في حفلة طقوس معينة. وتمثل كل هذه الأمور علاقات اجتماعية توقفت وأصبحت على وشك التجديد. ومن الواضح أن مراسم البكاء هي إحدى مظاهر طقس انتقال شخص من شخصية اجتماعية إلى شخصية اجتماعية أخرى. ويوحي ذلك أن تكون مهمتها تحديد المرحلة الانتقالية، لإعلان وضع المشاركين الجديد أو إرضاء الناس بالتغييرات الجديدة التي طرأت في حيواتهم.

ويعتبر ذلك مجرد تقريب أولي. فالخطوة الثانية هي الاستمرار في إجراء المزيد من المقارنات بين المجتمعات الأخرى. وأصر رادكليف ـ براون أن التعميم لابد من أن يتم على أساس المقارنة المنهجية. واشترك هو بنفسه في مقارنات في إحدى المجالات الثقافية، بين سكان أستراليا الأصليين، حيث حدد سلسلة من أنواع أنظمة النسب، ترتكز كلها في النهاية على مبادئ متشابهة. ويمكن بناء دراسة عالمية أكثر طموحاً عن أنظمة النسب أو الأنظمة السياسية أو الدينية. لكن الهدف الأخير يتمثل بوضع قوانين للمجتمع يمكن أن تكون في الواقع حول المظاهر العالمية للنسب أو الدين أو التعليم.

لقد سار رادكليف ـ براون على خطى مارسيل موس نفسها، وهو ابن أخ دوركهايم، الذي كان يطبق مفاهيم دوركهايم على المواد الإثنوغرافية. وعلى الرغم من أن برنامجهما الوضعي ـ مراقبة وتنظير ومقارنة وتعميم ـ قد أصبح أسلوباً قديماً، فلا يزال إرث دوركهايم فعالاً للغاية، خصوصاً في دراسة الأديان، ولا يزال تأثير مقالات موس باقياً. ولذا ربما يكون من المدهش أن تعرف أن كتابات رادكليف ـ براون النظرية لم تلقَ اهتماماً في سبعينيات القرن الماضي (إذ توفي في العام 1955م)، بل وربما فقدت شعبيتها تماماً. ويُحتمل أن تكون بعض نظرياته المحددة افتراضية مثلها مثل نظريات موس. وخير مثال على ذلك، علاقات المزاح. فمن المحتمل أن يحدث المزاح الآثم

في الظاهر غالباً عندما يكون الناس متحدين كأفراد من الطبقة نفسها أو مجموعة من بيئة واحدة، ولكن معارضين كأفراد لمجموعة منافسة في بيئة أخرى. ويتم إبطال هذا التضارب بواسطة طقوس الإقصاء (التجنب)، أو الضحك الشكلي. وكمثال آخر، نظرية رادكليف ـ براون الناضجة الخاصة بالطوطمية كنظام تصنيف يروض الفطرة، لامتصاصها داخل النظام الاجتماعي. وتقريباً، كما لو كان ذلك للتعويض عن تجاهل أكثر أعماله الطموحة تقريباً، اعتُبر رادكليف ـ براون أحد أجداد «نظرية التشابك الاجتماعي»، على الرغم من أن مساهمته في حقيقة الأمر كانت أقل من المصطلح نفسه.

انظر أيضاً: إميل دوركهايم، برونيسلو مالينوفسكي، إدوارد إيفانز ـ بريتشارد. انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Mary Douglas

أهم الأعمال:

.The Andaman Islanders . 1922. New York: Free Press, 1964

The Social Organisation of the Australian Tribes. Oceania 1 and 2, .1930-1931

.A Natural Science of Society . 1937. Glencoe, IL: Free Press, 1957

Structure and Function in Primitive Society . 1935-40. London: Cohen and .West, 1952

إن مقالات رادكليف ـ براون الهائلة تعتبر من أهم إنجازاته، ومن المقتطفات الأدبية الملائمة:

.(Adam Kuper, ed. The Social Anthropology of Radcliffe-Brown (1977

قراءات إضافية:

Adam Kuper. Anthropologists and Anthropology: The Modern British .School . London: Routledge, 1996. ch. 2

George W. Stocking, Jr. After Tylor: British Social Anthropology .1888-1951 . London: Athlone Press, 1995. ch. 7

سيبوم راونتري (Seebohm Rowntree)

اشتُهر راونتري بتطويره قياس «علمي» للفقر، مرتكزاً على عدم كفاية دخل الأسرة لسد الحاجات الأساسية. ومع ذلك فقد قام أيضاً بأبحاث في قيمة الأرض والزراعة، وكان نشطاً ومبدعاً في مجالات العلاقات العملية والإدارة. وشُهد لأعماله الأخيرة بالريادة في دراسة رد الفعل.

ولد بنيامين سيبوم راونتري في العام 1871، في أسرة راونتري، وهي أسرة كويكر (وهي أحد أفراد جماعة بروتستانتية)، منتجة للشوكولاتة في مدينة يورك. ودرس الكيمياء لفترة وجيزة في مانشستر، وعندما كان في الثامنة عشرة من عمره عاد للعمل في شركة راونتري للكاكاو مع والده وشقيقه الأكبر. وظل يعمل بنشاط في الشركة لبقية حياته. وكان والد سيبوم، جوزيف راونتري الذي أسس تجارته الخاصة بصنع الكاكاو من منشئه كعمل تجاري أساس يتعلق بإنتاج المشروبات الخفيفة، وصولاً إلى مشروع ضخم لتجارة الحلوى والشوكولاتة. وكان جوزيف راونتري كويكرياً ملتزماً ذا مصالح كثيرة واعتقادات ليبرالية راسخة وحسّ اجتماعي قوي ولديه اهتمامات برعاية مصلحة القوة العاملة لديه سواء اقتصادياً أو اجتماعياً أو فكرياً. وقد ورث سيبوم الكثير من مصالح والده واهتماماته. وقد استمرت أدواره الإدارية في تجارة الكاكاو، واعتقاده الديني، وحسّه الاجتماعي، في تأكيد اهتماماته وأنشطته البحثية حتى وفاته في العام 1954.

في العام 1899، شرع سيبوم راونتري بمباشرة دراسات اجتماعية كان لها أثر عميق في تطور الأبحاث الاجتماعية ومفهوم الفقر. وقام متأثراً بدراسة تشارلز بوث عن الفقر في لندن، بدراسة شاملة عن طبقات الأسر العاملة في مدينة يورك. وفي دراسة أجراها من منزل إلى منزل استجوب خلالها 11.560 أسرة، وقام بدراسة أحوال ووسائل المعيشة للطبقة العاملة من السكان. وكما أوضح هينوك، فقد سلك سيبوم مسلك بوث بتعريف الفقير بأنه ذلك الذي يعيش في حاجة وظروف سيئة واضحة. وعلى الرغم من ذلك، قام بالتمييز بين من يعيشون في فقر مدقع ومن يعيشون في فقر لأن دخلهم لا يكفي احتياجات أسرهم الأساسية، وكذلك من يعيشون في فقر ثانوي بحيث تكون دخولهم أعلى، وبذلك يمكن الاستدلال على وجود هدر في النفقات. كما قام بالتركيز على أسباب الفقر فقط عند من

يعيشون في فقر مدقع. أما الاعتبارات الأخرى للفقر الثانوي فقد تضمنتها أعماله حديثاً. وللتحقق ممن كانوا يعيشون في فقر مدقع، قام بعمل تقديرات للحد الأدنى للنفقات للحفاظ على الصحة البدنية للأسر بمختلف مكوناتها. وكان هذا التقدير مبني على أساس سد الاحتياجات الغذائية بأقل تكلفة ممكنة، مع بساطة الملابس، وأقل قدر ممكن من الوقود والضوء والكماليات مثل الصابون وما شابه. وكما أشار قائلاً إن النفقات الضرورية للتنمية البشرية والأخلاقية والجوانب الاجتماعية للطبيعة البشرية لن تؤخذ بعين الاعتبار في هذه المرحلة من الدراسة. ولم يهمل الحاجات الأخلاقية والاجتماعية للطبقات العاملة. فعلى العكس من ذلك، فإن كتاباته وابتكاراته في أعمال راونتري للكاكاو، تشهد على إيمانه بأهمية دورهم الحيوي. ومع ذلك فقد كان مهتماً بإثبات أن الفقر الذي أحصاه لا يمكن الحد منه عن طريق المغالاة في التوفير الذي كان شعار التفكير المعاصر المتعلق بالفقر كمشكلة اجتماعية. وقام بعمل مقارنة بين «خط الفقر» و«الدخول الحقيقة»، ووجد أن أكثر من 15 في المئة من الطبقة العاملة من السكان (ونسبة 10 في المئة من إجمالي السكان) يعيشون تحت هذا الخط. وقد بين راونتري بأن الأجور المنخفضة تعتبر مسبباً لما يزيد عن نصف نسبة الفقر المدقع، إلى جانب مسؤولية الأسر الكبيرة عن الخمسة في المئة من الزيادة. وأوضحت تحقيقاته أن الفقر لم يكن مصير غير المحظوظين مثل الأرامل أو المسرفين فقط.

لقد نشرت هذه الدراسة عام 1901م بعنوان الفقر: دراسة لحياة مدينة (Poverty: A Study of Town Life) . وكانت استنتاجاتها مذهلة ومثيرة للجدل، وقرئت بكثرة، وظهرت الطبعة الثانية منها بسرعة. وقوبلت مقاربة هذا الكتاب بالدعم من الإصلاحيين، وبالمعارضة ممن أصروا على أن الفقر قضية مسؤولية شخصية فردية. كما أدرك أهمية مسار الحياة واستمرار الفقر لرفاهية الأسر والأفراد وبؤسهم. وقد أبرز سرده للفترات المتعاقبة للحاجة والراحة النسبية خلال حياة الفرد، الجوانب المهمة للفقر، وتستمر الإحالة عليه في الأبحاث المطولة المعاصرة.

لقد كان لكتاب الفقر أهميته نظراً إلى منهجيته. فقد كانت منهجية راونتري في المقارنة بين الدخول والحاجات، حافزاً لكثير من الدراسات المشابهة في البيئات الحضرية الأخرى. وقد استغل آرثر باولي (Arthur Bowley) الموظف الإحصائي هذه المنهجية في عمل دراسة مقارنة عبر عدد من المدن، والتجأ إلى اختيار عينات بدلاً من التغطية الشاملة التي قدمها راونتري. وعندما أعاد

راونتري إحصائيته عن الفقر في العام 1936م (انظر كتاب الفقر والتقدم) استمر في إحصاء كل طبقات الأسر العاملة. ومع ذلك اضطر على مضض بعد أخذ عينات من بحثه، إلى الاعتراف بإمكانية كون العينات بديلاً تطبيقياً للتغطية السكانية. وشمل بحثه الثالث في مدينة يورك في العام 1950م واحداً من تسع عينات. وتبدو رؤى راونتري المنهجية بديهية بصورة فطرية أكثر من التطور العلمي الرياضي، أو تبدو متأثرة بالتطورات الإحصائية، على الرغم من اهتمامه بالقوى العددية وطبيعتها المقنعة.

وفي الوقت الذي تم فيه وضع خط الفقر كمؤشر توضيحي بدلاً من كونه الحد الأدنى للعيش، رأى راونتري قدرة خط الفقر على تطوير حد أدنى حقيقي يمكنه أن يأخذ في الحسبان الإنفاق الفعلي على أمور مثل الشاي ونوادي المرضى. كما سلط الضوء على هذا الحد الأدنى، مجادلاً بكونه أساس الحد الأدنى للأجور (وهو محل اهتمامه الرئيس)، في كتابه عن حاجات الإنسان للعمل (The Human Needs of Labour) . وقد كان لهذا العمل تأثير في تقرير وليام بيفيريدج في العام 1942م عن التأمين الاجتماعي والخدمات المصاحبة (تقرير بيفيريدج). وكان راونتري على اتصال وثيق ببيفيريدج طوال عام 1942م. واستفاد بيفيريدج من الحد الأدنى لراونتري لإثبات معدلات دفوعات التأمينات الاجتماعية.

أثبت كتاب الفقر ، أن راونتري باحث اجتماعي شديد التدقيق وكثير الاهتمام ولديه مهارات تصلح لكل المجالات. واحتوت أبحاثه اللاحقة على قيمة الأرض (بمساعدة فيسكاونت أستور (Viscount Astor))، التي قام بالعديد منها بناء على حث الزعيم الليبرالي دافيد لويد جورج، الذي كان على علاقة وطيدة به خلال العقد الثاني والثالث من القرن العشرين. واحتوت تلك الأبحاث على سلسلة من الدراسات الزراعية. وفي حقبة العشرينيات والثلاثينيات، أصبح راونتري أيضاً مهتماً بشكل متزايد بالبطالة، وقام بأبحاث في هذا المجال. واكتشف فيها أن مدفوعات التأمين لم تؤثر عكسياً كما يدعي بعضهم. وقدم أيضاً حلولاً قومية، بل محلية للبطالة المتجذرة في المناطق الكئيبة.

وبالإضافة إلى أبحاثه الاجتماعية بقي راونتري نشطاً في صناعة الكاكاو. كما واصل نموذج والده بالتجديد والاهتمام بمصلحة القوى العاملة لديه، وبتقديم معاشات تقاعد وعلاوات أسرية وتقاسم الأرباح وتطوير الإجراءات الديمقراطية، وعمل نظام لسماع الشكاوى، والعمل بشكل وثيق مع

الاتحادات. وقام كذلك بنقل هذه الاهتمامات إلى المجال القومي. فخلال الحرب العالمية الأولى كان مسؤولاً عن الرفاهية الصناعية في منصب في وزارة الذخائر الحربية. وكانت العلاقات الصناعية الجيدة من اهتماماته الرئيسة، وهو ما عبر عنه في كتاب العامل البشري في الأعمال التجارية (The Human Factor in Business) . واعتبر الصناعة بمثابة تحالف بين الإدارة والعمال في المجتمع ككل. وشارك مباشرة في جهدي مصالحة كبيرين في إضرابات عامي 1919م و1926م. وفي العام 1919م، افتتح أول كلية إدارة في سلسلة من الكليات، التي سميت فيما بعد كليات أكسفورد للإدارة.

وفي العام 1951م، في نهاية حياته، قام راونتري بنشر إحصائيته الثالثة عن الفقر في مدينة يورك وهي بعنوان الفقر ودولة الرفاهية (Poverty and the Welfare State) ، وكذلك عملاً عن كيفية استغلال وقت الفراغ والاستجمام بعنوان الحياة الإنكليزية وأوقات الفراغ (English Life and Leisure) . وانتُقد كلا العملين نظراً إلى منهجيتهما، وتم عرض الدراسة الجديدة عن الفقر بأنها تجاوزت الحد المقبول للتفاؤل في تقييمها لدور دولة الرفاهية في تقليل نسبة الفقر. وعلى الرغم من ذلك، تعكس الحلقة الأخيرة من دراسات راونتري عن الفقر، وهي الفقر ودولة الرفاهية ، تغييرات في مستوى المعيشة ودولة الرفاهية ومفاهيم الفقر منذ العام 1899م. وعلى العكس من ذلك، تعتبر دراسة الحياة الإنكليزية وأوقات الفراغ أول تعبير كامل في حياة راونتري الطويلة، عن السلوك الاجتماعي والأخلاقي للشعب. وتمثل كلاهما العديد من اهتماماته وقلقه ومنهجه في أبحاثه الاجتماعية وقدرته على إثبات وقبول التحدي في التحقيق في الأمور الاجتماعية المهمة المستقبلية. وفضلاً عن ذلك، فقد نقلتا التفاؤل نفسه في المستقبل الذي حفّزه طوال حياته.

انظر أيضاً: تشارلز بوث.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , William Julius Wilson.

أهم الأعمال:

.Poverty: A Study of Town Life . London: Longmans, Green & co., 1901

.Unemployment . London: Macmillan, 1911

How the Labourer Lives . With May Kendall. London: Thomas Nelson, .1913

.The Human Needs of Labour . London: Thomas Nelson, 1918

.The Human Factor in Business . London: Longmans Green & co., 1921

.Poverty and Progress . London: Longmans, Green & co., 1941

Poverty and the Welfare State . With G. Russell Lavers. London: Long- .mans, Green & co., 1951

English Life and Leisure . With G. Russell Lavers. London: Longmans, .Green & co., 1951

قراءات إضافية:

Anthony B. Atkinson, J. Corlyon, A. K. Maynard, H. Sutherland and C. G. Trinder. Poverty in York: A Re-Analysis of Rowntree's 1950 Survey. Bul- .letin of Economic Research , 33, 1981

Asa Briggs. 1961. Social Thought and Social Action: A Study of the Work of Seebohm Rowntree, 1871-1954 . London: Longmans, Green Rowntree, .(Benjamin) Seebohm'. The Dictionary of National Biography

Ernest P. Hennock. Concepts of Poverty in the British Social Surveys from Charles Booth to Arthur Bowley. In Martin Bulmer, K. Bales and K. Kish Sklar, eds. The Social Survey in Historical Perspective . Cambridge: Cam-
.bridge University Press, 1991

Stephen Jenkins and Alan Maynard. The Rowntree Surveys: Poverty in York since 1899}. In C. Feinstein, ed. York 1831-1981: 150 Years of Scientific Endeavour and Social Change . York: Ebor Press/The British As-
.sociation for the Advancement of Science, 1981

John H. Veit-Wilson. Paradigms of Poverty: A Rehabilitation of B. S.
.Rowntree. Journal of Social Policy , 15, 1986

فلوريـان زنانيكي (Florian Znaniecki)

نال زنانيكي تكريماً مزدوجاً لكونه عضواً مفكراً مؤسساً لمدرسة شيكاغو لعلم الاجتماع، ومؤسساً لأكاديمية علم الاجتماع في بولندا. وكان اسمه مقترناً في أمريكا وأوروبا الغربية باسم وليام توماس (William Thomas) ، الذي تعاون معه في مشروع الفلاح البولندي في أوروبا وأمريكا (The Polish Peasant in Europe and America) . واستمرت مساهماته السوسيولوجية فيما أُطلق عليه علم الاجتماع «الإنساني»، وهو منهجية تضع خبرات الفرد العامل في محور الاهتمام، وذلك أثناء حياته التي قضاها في أمريكا وبولندا.

نمت منهجية فلوريان زنانيكي الثقافية من تنشئة علمية زاخرة، إذ وُلد زنانيكي في بولندا في العام 1882م. وتعلم الكثير من اللغات الأوروبية قبل أن يصبح شاعراً تُنشر أعماله، وطالباً في جامعة وارسو. كما أدت أنشطته الثقافية المناهضة لروسيا إلى طرده من الجامعة، وإلى قضائه فترة من الترحال والزيارات الدراسية إلى العديد من الجامعات في أوروبا، بما في ذلك فترة أمضاها تلميذاً لسيميل. وبعد حصوله على درجة الدكتوراه من جامعة كراكاو، منعته أنشطته السياسية المستمرة من الحصول على منصب أكاديمي، فأصبح مديراً لجمعية حماية المهاجرين البولنديين. والتقى، بهذه الصفة، في العام 1913م بعالم الاجتماع الأمريكي وليام توماس، وهو أحد الأعضاء الأساسيين في مدرسة شيكاغو. وأدى اهتمام توماس بالمجتمعات المهاجرة في شيكاغو إلى قيامه بالعديد من الرحلات إلى أوروبا بحثاً عن أصولهم الاجتماعية والثقافية وتأثيرها في عمليات الصهر والأمركة. وبناءً على اقتراح توماس، سافر زنانيكي إلى شيكاغو، وبذلك بدأت رحلة أحد أهم أبحاث التعاون في علم الاجتماع التاريخي.

تطورت أعمال زنانيكي الأولى في جامعة شيكاغو كاستجابة براغماتية وتقدمية ضد اتجاه التجريد النظري لمفكري علم الاجتماع الأوائل في أوروبا وأمريكا. وقد أضفت أعمال روبرت بارك (Robert Park) ووليام توماس على البحث سرداً أكثر دقة للاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية التي اتسمت به الثورة الصناعية والمدنية السريعة، والتي عززت أغلبها القوى العاملة المهاجرة

المختلطة ثقافياً. كما تأثر البحث بالإصلاحيين الاجتماعيين والمحسنين، الذين كان أكثرهم من النساء مثل جين آدمز، وبمطالبتهم بمنهجية أكثر واقعية وإمبريقية للرفاهية من دون أي تداعيات أخلاقية أو دينية. ورأى البحث أيضاً، بوجود جورج هربرت ميد، مفهوم الذات حجراً أساساً مهماً في فهم كيفية الجمع بين القيم الاجتماعية المتنافرة من أجل التوصل إلى استيعاب التغير الاجتماعي السريع، والدمج الثقافي الحساس. وانسجم زنانيكي في تلك البوتقة مع الأشخاص والأفكار.

كان التناقض في محور الاهتمام في كتاب الفلاح البولندي ، هو مشكلة اعتماد الفرد على المنظمة الاجتماعية والثقافة، واعتماد المنظمة الاجتماعية والثقافة على الفرد، كما أبرزها في «الملاحظات الميثودولوجية». ففي حين كان هدف دوركهايم شرح شمولية السلوك البشري المتوقع بصرف النظر عن الدوافع الفردية البشرية، فقد كان التحدي التأويلي الذي تناوله زنانيكي وتوماس كان تقلبه المتأصل ومرونته في وجه التغير. وتطلب ذلك نوعاً مختلفاً لمنهجية البحث الإمبريقي، وليس بحثاً في القواسم الإحصائية. وأدت محاولة فهم المعاني الفردية إلى البحث عن القيم المشتركة ثقافياً وعن الممارسات «خارج» عقل أي فرد معين ـ أي «التعريفات المشتركة» التي تشكلت بفعل الأفكار الدينية والموروثات الثقافية للسيادة القومية ـ وكذلك إلى البحث عن دليل للتفسيرات الفردية في سياقات بعينها. كما استُمد المقدار الضخم من المادة العلمية المقدمة في الكتاب (الذي يتكون من 15000 وثيقة تم اختبارها، وتحتوي على 60 في المئة من إجمالي العمل) من سلسلة مصادر مختلفة: رسائل المهاجرين، ورسائل إلى جمعيات المهاجرين في بولندا، ومقالات الصحف، ومذكرات تاريخ الأفراد، ومعلومات من مؤسسات المهاجرين البولنديين في الولايات المتحدة. واستمر تقديم الأدلة لقرن تقريباً، وذلك لتوفير دليل ذي معنى متنقل على إصرار الفرد والقدرة الجماعية على التحول التنظيمي في وجه الصراع والمعاناة الاجتماعيين.

لم يجد زنانيكي نفسه كعالم اجتماعي مهاجر الحياة سهلة، فعاد في العام 1920 إلى بولندا، حيث أصبح أستاذاً في جامعة بوزنان، ومؤسساً لجمعية علم الاجتماع البولندية. وتناول علماء اجتماع شيكاغو في أعمالهم المتتالية مفهوم «تعريف الحال»، كما عرفه زنانيكي في الفلاح البولندي والمواد البولندية التي جمعها، وأضيف إليها مادة مماثلة من مجموعات مهاجرة أخرى، مثل المهاجرين الإيطاليين واليهود والاسكندينافيين. وأصبح هذا المفهوم، من حيث مساهمات زنانيكي،

مقدساً لدرجة أصبح يشار إليه بشكل خاطئ بـ «قول توماس المأثور»، وذلك إذا ما عرّف الناس حالهم كحقيقة، فإنهم حقيقة في عواقبهم: حجر أساس نظري لنظرية التفاعلية الرمزية».

كتب زنانيكي أثناء العقود التالية العديد من الكتب (نُشرت باللغتين البولندية والإنكليزية). وتناولت هذه الكتب علم الاجتماع التربوي، وعلم النفس الاجتماعي، وحول منهجية علم الاجتماع . وفسر زنانيكي في العمل الأخير مفهوم «معامل الإنسانية»، وهي فكرة أن البيانات الثقافية دائماً ما تكون لـ «شخص ما»، وبذلك فهي «تنتمي إلى خبرات نشطة لشخص آخر، وهي بذلك نتيجة تلك الخبرات». وكان أكبر أعماله الأعمال الاجتماعية (Social Actions) ، عملاً مهماً، على الرغم من استثنائه، إبداعياً ذا أثر كبير في تطوير نظرية علم الاجتماع الأمريكية. ومثالاً على ذلك، أعمال تالكوت بارسونز عن العوامل المتميزة للعمل الاجتماعي للإنسان «الحامل للثقافة». وكانت أعمال زنانيكي أيضاً مصدراً معترفاً به للتأثير على سبيل المثال في أعمال هوارد س. بيكر. وفي عام 1938م، أصبحت التحديات المنهجية، التي أثارها استخدام الوثائق المجمعة بصورة انتقائية، الموضوع الرئيس لأحد المؤتمرات الأساسية، الذي نُشرت وقائعه في مجلد حرره وقدم له هربرت بلومر (Herbert Blumer) ، مؤكداً استمرار النقاش حول صحة وموثوقية مثل تلك المناهج.

في الوقت الذي غزت فيه ألمانيا بولندا عام 1939، أثار موقف زنانيكي كبولندي وطني وأكاديمي المخاطر، وأُجبر على العودة إلى الولايات المتحدة. وأمضى ما تبقى من حياته أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة إلينوي. وفي ذلك الوقت كان قد أصبح من العلماء المشهورين، وكتب من منطلق أدواره الاجتماعية المتعددة، بعض النصوص الكلاسيكية. وفي عام 1952م، نشر آخر أعماله الرئيسة، وهو كتاب الجنسيات الحديثة والعلوم الثقافية (Modern Nationalities and Cul- tural Sciences) . ولم يرجع إلى بولندا قط، وتوفي في العام 1958م. ولم يتم الاحتفاء بمساهماته في علم الاجتماع الإنساني في مسقط رأسه مرة أخرى حتى انهيار الشيوعية في العام 1989م.

تجاوز إرث زنانيكي علم الاجتماع نفسه؛ إذ يعتمد الرأي العام المعاصر ودراسة السوق بما فيها الأدوات المنهجية، مثل مجموعات النقاش، بشكل أساس على مفهوم تعريف الحال كوسيلة للتحقق من الاستجابات الجماعية، كما هو الحال في أغلب الأعمال المعاصرة في علم الاجتماع النوعي. ويرجع كثير من الفضل فيما يعتبر اليوم مسلَّمات في علم الاجتماع، إلى زنانيكي وإصراره على أن

تفكير البشر الفردي يجب سماعه وفهمه، نظرياً وعملياً، إذا ما كان علينا تقدير استجاباتهم للتغير الاجتماعي.

انظر أيضاً: جورج هربرت ميد ، جورج سيميل.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Howard S. Becker

أهم الأعمال:

The Polish Peasant in Europe and America . 1918-20. With W. I. Thomas. vols. I and II, Chicago: University of Chicago Press, 1918; vols. III-V, Bo-.ston, MA: Badger, 1919-20

كما نشرت الطبعة الثانية في جزأين مختصرين من قبل:

.Alfred A. Knopf, New York, 1927

.Cultural Reality . Chicago: University of Chicago Press, 1919

.The Laws of Sociology . Chicago: University of Chicago Press, 1925

.The Method of Sociology . 1934. New York: Octagon Books, 1968

Social Actions . New York: Farrar and Reinhart (with the Polish Sociolo-.gical Institute, University of Poznan), 1936

The Social Role of the Man of Knowledge . New York: Columbia .University Press, 1940

Cultural Sciences, Their Origin and Development . Urbana, IL: University .of Illinois Press, 1952

Modern Nationalities: A Sociological Study . Urbana, IL: University of .Illinois Press, 1952

كما يمكن إيجاد مقتطفات من أعماله في:

On Humanistic Sociology: Selected Papers . Ed. and with a biographical .intro. by Robert Bierstedt. Chicago: University of Chicago Press, 1969

قراءات إضافية:

Herbert Blumer, ed., 1939. Critiques of Research in the Social Sciences 1: An Appraisal of Thomas and Znaniecki's The Polish Peasant in Europe and .America . New Brunswick, NJ: Transaction, 1979

وليام سامنر (William Sumner)

كان وليام غراهام سامنر، أبو علم الاجتماع الأمريكي، أول من قدم فصلاً دراسياً حول علم الاجتماع في أي جامعة. وفي سعيه إلى وضع علم للمجتمع مثل أسلافه أوغست كونت وهربرت سبنسر، قاوم سامنر استخدام لفظ السوسيولوجيا (Sociology) نظراً إلى قربه اللغوي من لفظ الاشتراكية (Socialism) ، وهو ما كان يعارضه فكرياً وسياسياً. ولذا استخدم بدلاً منه لفظ علم المجتمع (So-cietology) ، وهو مصطلح لم يفهمه الجميع.

ولد سامنر عام 1840م، والتحق بجامعة يال في العام 1859م، فدرس الفلسفة والتاريخ والرياضيات واللغتين اليونانية واللاتينية. وسافر بعد تخرجه إلى إنكلترا وألمانيا للدراسة، ثم عاد إلى نيوهافن حيث عُيّن قسيساً في العام 1869م.

ومع ذلك لم يدم عمله كقسيس طويلاً. ففي العام 1872م، عُيّن سامنر أستاذاً للسياسة والعلوم الاجتماعية في جامعة يال، وبقي فيها حتى وفاته في العام 1910م. ودرس الاقتصاد أول عشرين سنة من عمله هناك. وفي بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر، تخلى عن إعطاء الفصول الدراسية في الاقتصاد لطلاب الجامعة تماماً، واهتم عوضاً عن ذلك بعلم المجتمع (علم الاجتماع) الجديد الذي كان يوشك أن يصبح علماً معترفاً به أكاديمياً. ودافع سامنر كمؤيد لسبنسر الأورثوذكسي عن حكومة «دعه يعمل» (عدم التدخل) (laissez-faire) في كتابه الذي نشر في العام 1883م، ما الذي تدين به الطبقات الاجتماعية لبعضها بعضاً (What Social Classes Owe to Each Other) . وأوضح سابنر في كتابه هذا أن الطبقات الاجتماعية لا تدين لبعضها بشيء. وساهم ذلك الرأي في تعزيز مكانته كأحد رواد العصر الزخرفي وعلم الاجتماع.

في العام 1875 أو 1876م ـ تتباين الحكايات ـ كان سامنر يُدرس فصولاً في علم الاجتماع في جامعة يال. وكان قد اتخذ من كتاب سبنسر دراسة علم الاجتماع (1873م) كنص أساس لفصوله، ولكن ذلك لم يعجب نوح بورتر (Noah Porter) رئيس جامعة يال بسبب معارضته تدريس أفكار النشوء

في جامعة يال. وباعتماده على الحرية الأكاديمية، كسب سامنر النزاع، وسُمح له بالاستمرار في استعمال نصوص سبنسر للتدريس.

يعتبر كتاب أسلوب الجماعة (Folkways) الذي نشر في العام 1906 من أشهر أعمال سامنر على الإطلاق. فقد تناول في هذا الكتاب مجالات واسعة واستعرض مواضيع كثيرة من بينها أكل لحوم البشر، والإجهاض، وقتل الأطفالِ، وسفاح المحارمِ، والرقِ، والدعارة، والألعاب الرياضيةِ وغيرها. وبحث في كتابه في أسباب التساهل مع هذه الأفعال وغيرها في بعض الأزمنة والأماكن، بينما يتم إدانتها في أخرى.

يرى سامنر أن البشر الأوائل عاشوا حياة وحشية كانت تقودها غريزة البقاء والحصول على الاحتياجات الأساسية للحفاظ على الحياة. وفي هذا القتال البدائي من أجل البقاء، اعتمد البشر على التجارب الخرقاء وعلى الأخطاء. وبما أن البشر كانوا يعيشون في مجموعات صغيرة ـ في البداية صغيرة جداً من حيث الحجم، ومن ثم نمت بازدياد تقنيات الطعام وإنتاجه ـ فإن افراد المجموعات يتعلمون من بعضهم أفضل المنهجيات للتعامل مع حالهم الخاص بهم. وكما أوضح سامنر:

وهكذا تم اختيار الوسائل الأكثر ملاءمة. وقد حققوا الهدف بأفضل الطرق وأقلها جهداً وألماً. ووفقاً للدرب الذي سلكته جهود البشر تطورت العادات والروتين والمهارات. واستمر الكفاح من أجل الوجود، ليس من قبل الأفراد، بل من قبل المجموعات. وأفادت كل مجموعة من تجارب الأخرى؛ وبذلك أصبح هناك تعاون لاختيار الأساليب الملائمة.

ففي مجموعة ما يتبنى جميع الأفراد الأسلوب ذاته لتحقيق المقاصد التي يرومونها. وبمرور الوقت تتحول تلك الأساليب إلى أعراف، وتنتقل إلى الأجيال التالية من خلال المحاكاة والتقليد والسلطات. وقد أطلق سامنر على مجموع تلك الأساليب غير الرسمية التي يستخدمها جميع أفراد المجموعة لتلبية احتياجاتهم مسمى « أسلوب الجماعة ». فأسلوب الجماعة هو قوة اجتماعية تجعل من الأفعال المتكررة والمألوفة لدى أفراد مجموعة ما عادات. وينتج عن هذه العادات ضغط على كل فرد آخر ليتكيّف مع المجموعة. فأسلوب الجماعة هو «أحد القوى الأساسية التي تصنع ماهية المجتمع كما هي عليه».

وبما أن أسلوب الجماعة يتطور على فترات طويلة بانتقاله من جيل إلى جيل، فليس من الصعب ملاحظة أن كبار أفراد المجموعة وأكثرهم خبرة هم الذين يتمتعون بالسلطة ويحظون بالتقدير والاحترام. ولأن المجتمعات البدائية لم تطور تقنيات إنتاج كميات كبيرة من الطعام، فإن أفرادها يميلون نحو تكوين مجموعات صغيرة متميزة عن بعضها داخل المجموعة (مثل القبائل والطوائف... إلخ) وذلك لتشكيل علاقات أقارب وعائلات. وتنشأ داخل هذه المجتمعات روابط قوية داخل كل أسرة أو قبيلة متميزة، ويرافق ذلك عدم الثقة، أو شعور قوي بالعداء تجاه الأفراد الذين لا ينتمون إلى القبيلة أو الأسرة المباشرة. ولهذا السبب، ينزع أسلوب الجماعة لإنتاج تعاطف قوي داخل المجموعة، إضافة إلى عداوة قوية تجاه المجموعات الأخرى.

هنا قدم سامنر مفهوماً آخر أصبح فكرة محورية في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى هي «المركزية العرقية» التي تعني ميل جماعة ما إلى الحكم على غيرها من الجماعات بناء على معاييرها الخاصة. كما إن هناك نزعة إلى الاعتقاد أن أسلوب الجماعة الذي يعتقد به فرد ما هو أفضل أسلوب للقيام بالأمور ولذا، فإن تصرفات وسلوك أفراد مجموعة أخرى تعد فاشلة أو غريبة أو توحي بالعداء. ولذا فإن المركزية العرقية تزيد من أشكال التوتر والعنف بين القبائل والطوائف المنفصلة الموجودة داخل المجتمع.

بمرور الوقت، تبدأ الأساليب غير الرسمية للمعرفة والفعل التي يصوغها ويوجهها أسلوب الجماعة، رسمية أو مقوننة كحقائق، ما يرفع أسلوب الجماعة إلى مستوى جديد يطلق عليه سامنر «الأعراف». وعلى الرغم من أن أسلوب الجماعة يمثل أسلوباً للتعامل، وليس قانوناً، إلا أن انتهاكه يستوجب عقاباً خفيفاً أو ردعاً ما. وأما انتهاك الأعراف فيعتبر أمراً خطيراً يستوجب عقوبة صارمة. وتشتمل الأعراف في أكثرها على المحرمات (taboos) ، وهي الأمور التي يجب عدم القيام بها. ويمكن أن يتم اعتبار كل ما من شأنه أن يضر بالجماعة من المحرمات، سواء كان أكل أنواع معينة من الطعام، أو شن حرب، أو إقامة علاقة جنسية مع شخص غير مناسب (على سبيل المثال، سفاح القربى)، أو إغضاب الرب، والأشباح... إلخ.

ومع مزيد من تطور المجتمعات، على سبيل المثال بالانتقال من الاعتماد على الذات في حل النزاعات إلى تنمية عملاء ضبط رسميين متخصصين في الحفاظ على النظام، والسيطرة على

الجرائم. ويمكن أن تصبح بعض الأعراف مقوننة وممأسسة كقوانين. ويمكن اعتبار القوانين أعرافاً في غاية الأهمية من أجل رفاهية الجماعة؛ إذ يتطلب انتهاكها ردوداً ممنهجة وقياسية. وبدلاً من الاعتماد على الأحكام التمييزية التي يصدرها شيوخ القبائل (أكبر القوم سناً)، فإن الأعراف أو النواهي يجب أن تدون كوثائق حكومية (قوانين)، تنص بوضوح على الأفعال الممنوع القيام بها والعقوبات الواجبة عند ثبوت الجرم.

لقد جادل سامنر بقوة أن أساليب الجماعة هي الوسائل الأكثر أهمية التي يمكن من خلالها خدمة احتياجات أفراد المجتمع. واقترح كذلك أن يتخذ علم الاجتماع أساليب الجماعة محوراً له، أو كموضوع أولي للدراسة. فقد استنتج أن «حياة المجتمع تتكون من وضع أساليب الجماعة وتطبيقها. وأنه يمكن تعريف علم المجتمع بأنه دراسة لهذه الأساليب».

انظر أيضاً: هربرت سبنسر.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Talcott Parsons

أهم الأعمال:

What Social Classes Owe to Each Other . New York: Harper and Brothers, 1883.

Folkways: A Study of the Sociological Importance of Usages, Manners, Customs, Mores, and Morals . Boston, MA: Ginn and Co., 1906.

The Science of Society , 4 vols. With Albert Galloway Keller. New Haven, CT: Yale University Press, 1927.

ويمكن إيجاد بعض المقتطفات في:

Robert C. Bannister, ed. On Liberty, Society, and Politics: The Essential Es-
.says of William Graham Sumner . Indianapolis, IN: Liberty Fund, 1992

هربرت سبنسر (Herbert Spencer)

في منتصف القرن العشرين كرر تالكوت بارسونز (Talcot Parsons) سؤالاً أثاره أحد أصحاب النظريات السياسية قائلاً «من يقرأ الآن لسبنسر؟»؛ إذ اعتبر أن أفكار سبنسر هي أفكار عتيقة في أفضل أحوالها. فقد اقترب بارسونز في أعماله الأخيرة من الأفكار الوظائفية والنشوئية التي أبعدته في البداية عن أفكار سبنسر. ومنذ ذلك الوقت بدأ العديد من أصحاب النظريات في إعادة اكتشاف أفكار سبنسر، وأدركوا أنها أفكار معاصرة على الرغم من كتابتها بلغة عصر أقدم.

ولد سبنسر في عائلة منشقة كنسياً في ديربي في العام 1820م. وكان والده مدرساً نشطاً في الأدب والحلقات الدينية، ويشجع ولده على التفكير الحر. وقد تعلم هربرت على يدي عمه الذي كان يشارك والده في وجهة نظره، وقد نشأ هربرت على الاهتمام بدراسة الفَرَاش والعث، وكان لديه نزعة إلى دراسة الرياضيات والأحياء. وحصل عن طريق صلات عائلته على وظيفة كرسام هندسي ومهندس مدني بسكك حديد لندن وبرمنغهام. وبقي في صناعة السكك الحديد حتى منتصف أربعينيات القرن التاسع عشر حين اكتشف نظريات لييل (Lyell) الجغرافية، وأصبح مقتنعاً تماماً بالتاريخ الطويل لنشأة الأرض وتطورها. وإرضاء لميوله، عمل محرراً مساعداً في مجلة الإيكونوميست (The Economist) . وأتاحت له هذه الوظيفة فرصة لممارسة أعماله الخاصة (التي كان من بينها اختراع أول مشبك ورق). وساعده ميراث من عمه في العام 1853 من تخصيص وقته بالكامل للأبحاث العلمية.

على الرغم من أسلوبه الفردي في الفلسفة والسياسة، فقد كان كتابه الأول يمثل نقداً للنفعية والفردية اللتين كانتا تؤسسان واقع واستقلالية الظاهرة الاجتماعية. ومع ذلك كانت أولى محاولاته في العلوم الإنسانية دراسة علم النفس من خلال أعمال جون ميل ووليام هيويل. وكان في ذلك الوقت قد اكتشف الفلسفة الوضعية لأوغست كونت، وذلك من خلال موجز هارييت مارتينيو (Harriet Martineau) . وأُعجب كثيراً برؤية كونت العلمية الموسوعية. ووضع سبنسر هدفاً لنفسه بوضع «فلسفة تركيبية» عن النشوء، ووضع في العام 1857م خارطة أهم أعمال حياته. فقد كان يرمي إلى وضع سلسلة من

المبادئ العامة، ومن ثم مبادئ علم الأحياء وعلم النفس وعلم الاجتماع والأخلاقيات. وعلى الرغم من إجراء تغييرات طفيفة على خطته بطرائق متعددة، فقد تمكن من إنجاز هدفه الفكري قبل وفاته. ومع أنه لم يكن من أتباع لكونت ـ إذ حدد بشدة تمايز وجهة نظره الخاصة ـ لكنه كان منجذباً إلى تأييده لعلم الاجتماع، وأخذ على عاتقه مهمة تطوير ذلك بطريقته الخاصة. فاستمد مبادئ التنظيم، فكرة النشوء، من قراءته الواسعة في علمي الجيولوجيا والأحياء. وكان سبنسر أول من استخدم لفظة «النشوء» بمدلولها الحديث المتداول الآن.

لقد أنجز سبنسر وضع «الفلسفة التركيبية» التي تضمنت بعض آرائه في الفلسفة السابقة، بمساعدة عدد من المساعدين الباحثين الذين قاموا بجمع المعلومات الإثنوغرافية التي استخدمها كأساس لعمله النظري في علم الاجتماع. ونُشرت هذه المعلومات في سلسلة من المجلدت الضخمة التي استمرت بعد وفاته، وذلك بناء على شروط معينة ذكرها في وصيته. وقد أكمل عمله مبادئ السوسيولوجيا (Principles of Sociology) بموجز صغير عن النهج العلمي سماه دراسة السوسيولوجيا (Study of Sociology) .

اعتبر سبنسر أن جميع الظواهر في حقيقتها هي أشكال مركبة من المادة؛ فالكواكب والجبال والحيوانات والعقول والمجتمعات هي ببساطة أشكال مختلفة من المادة ذاتها. وتتكون الحقيقة من حركة المادة المستمرة، بالإضافة إلى قوى تجاذب وتنافر من شأنها أن تكون تكتلات مادة في حالات متباينة من الاتزان، وعدم الاتزان. ويفسر هذا التحول المستمر اتجاهاً محدداً نحو التركيب المتناسق بصورة متزايدة، وهو ما يطلق عليه سبنسر مصطلح «النشوء». ورأى أن عليه أن يوثق عمليات النشوء لكل هذه الأشكال المختلفة من الظواهر.

حدد سبنسر ثلاثة مستويات لتنظيم المادة: المستوى غير العضوي، والمستوى العضوي، والمستوى فوق العضوي. وتتعامل الفيزياء والكيمياء مع المادة الخامدة (غير المتحركة)؛ بينما يتعامل علم الأحياء وعلم النفس مع الظواهر الحية العضوية؛ وتصور العقول والأجساد والعلاقات البينية البيئية للأجساد الشكل العضوي للاعتماد البيني. ومع ذلك يتعامل علم الاجتماع مع الظواهر التي تتجاوز المستوى التنظيمي العضوي، كما إنه يتناول أشكالاً مختلفة من الترابط البيني. إن الروابط التي تربط الظواهر العضوية هي روابط مادية مباشرة تسمح بتدفق الطاقة والقوى داخلها. بينما الروابط

فوق العضوية، فتشتمل على الخطاب اللغوي والتأثير البيني للأفراد من خلال تعبيرات عاطفية وفكرية.

إن المجتمع بالنسبة إلى سبنسر هو كائن حي من نوع خاص، على الرغم من أنه يرفض اقتراح أنه مساوٍ فقط لكينونة عضوية. إنه كائن حي، أو نظام، ما دامت له خصائصه المميزة التي تختلف عن صفات كل جزء من أجزائه الفردية. إنه متأصل في العقلية الجماعية أو الروح الجماعية، وهذا يختلف تماماً عن العقلية الفردية التي يدرسها علم النفس. ففي حالة المجتمع ليس هناك «حس اجتماعي» مركزي يتمتع بوعي خاص، ولكن التركيبات الدائمة المستقرة الناشئة عن تفاعل العديد من الأفراد هي نماذج اعتماد بيني متواترة تحافظ عليها العواطف والأفكار التي يشترك بها الأفراد، والتي يستمدون منها شخصياتهم وحوافزهم النموذجية.

ترتبط حركة التراكيب فوق العضوية بالمحيط المادي (المناخ والجيولوجيا والبيئة) وبالسمات البيولوجية والنفسية للأفراد، ولكنها تظهر المستوى المستقل للسبب الاجتماعي الذي ينتج من خلاله تفاعل القوى الاجتماعية تغيراً مسارياً. والتطور الاجتماعي ناتج عن «التكامل» و«التوحد». ومع ذلك تزداد المجتمعات، مثل غيرها من العضويات، تعقيداً كلما ازداد حجمها، كما يصبح أفرادها أكثر تخصصاً وأكثر اعتماداً على بعضهم. ولذا فإن عمليات التكامل تكملها عمليات التفاضل.

لقد نشأت جميع المجتمعات الكبيرة من مجموعات صغيرة من الصيادين ملتمسي الأعلاف، مثل تلك المجموعات التي أكد سبنسر وجودها بين قبائل البوشمن في كلاهاري (Kalahari Bush-men) وسكان أستراليا الأصليين (الأبورجينز)، وسكان جزر أندامان (Andaman) . وتنمو تلك المجموعات إلى فدراليات مثل قبائل كومانشي (Comanche) وداكوتا (Dakota) وإيروكواس (Iroquois) . وتنمو هذه الفدراليات بدورها إلى مجتمعات «تجمعات مضاعفة» مثل المملكة المصرية واليونان التقليدية. وتعتبر التجمعات المعاصرة أحد أكثر أشكال المجتمعات تعقيداً. وفى كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع يزداد تكامل الأفراد والمجموعات، وينمو اعتمادهم على بعضهم بصورة كبيرة.

وفي الوقت نفسه، تصبح المجتمعات متفاضلة بصورة أكبر، وهو ما يرى سبنسر أنه يتناول عمليتين متمايزتين من التقسيم الطبقي والتخصص الوظيفي. والتقسيم الطبقي هو العملية التي تنفصل من خلالها ـ الهيئة الحاكمة ـ الطبقة الحاكمة أو الصفوة عن عامة المجتمع. وكانت الأشكال الأولى من التقسيم الطبقي تعتمد على الجنس، مؤسسة عدم المساواة بين الرجال المسيطرين والنساء التابعات. وفيما أصبحت المجتمعات أكثر تعقيداً، تم استبدال التفاضل الجنسي بتفاضل آخر يتم على أساس الموارد الاقتصادية والسياسية، وأصبحت التراكيب الطبقية أكثر تعقيداً. وأما التخصص الوظيفي، فقد تمثل في اختلاف المجتمعات في نظم متميزة، أو كوكبة من الأنشطة المتعلقة بمهام محددة. وتكون الهيئات العائلية، والرسمية والسياسية والاقتصادية والدينية والمهنية والصناعية، والمسارات الوظيفية الأساسية أي مجتمع تام التفاضل. وعلى الرغم من ذلك، فهذه مترابطة مع أنظمة أكثر وظيفية، أو «كيانات»، تتمتع كل منها بقدر أكبر أو أقل من التماسك والاستقرار.

إن الكيانات الأساسية التي تتطور، فيما تنشأ المجتمعات، هي «نظام رعوي» و«نظام منَظِّم» تتصل من خلال «نظام توزيعي» متداخل. ويتضمن النظام الرعوي للمجتمع تلك الأجزاء المعنية بالنشاطات الإنتاجية التي شكَّلها التوزيع المحلي والإقليمي للموارد عبر الفضاء. ويتكون النظام المنظِّم من الأجزاء التي تعنى بشؤون الحكومة، والعلاقات الداخلية في المجتمع، التي تتراوح بين الأنظمة التجارية والمالية التي تنظِّم النشاطات الصناعية والتوزيعية، وصولاً إلى الدولة المركزية، والهيئات العسكرية التي تنظم جميع المجتمعات.

في المجتمعات الكبيرة يسعى النظام المنظِّم إلى السيطرة. وهذه المجتمعات هي مجتمعات «عسكريتارية»، يمكن فيها للحكام المستبدين مباشرة الحكم عن طريق هيكلية صارمة من المرؤوسين والمسؤولين وتقسيم طبقي حاد للحكام من قبل كل أعضاء المجتمع. ومن ناحية أخرى فإن المجتمعات الحديثة الأكثر تعقيداً، فإنها تظهر سيطرة النظام الرعوي، وهي بذلك مجتمعات صناعية. فالأفراد لهم حقوقهم كـ «مواطنين»، وهذا يحد من تحكم الحكومة المركزية. وتعتمد هذه المجتمعات الصناعية على التكامل الناتج عن العلاقات التعاقدية التي وضعها بعض المواطنين الأحرار، ونتج عنها وجود طبقات الملاك والعمال. وهناك تباين كبير بين المجتمعات العسكريتارية والمجتمعات الصناعية، كما إن هناك تبايناً بين المجتمعات القديمة والحديثة. وكان سبنسر قد أدرك

أن المجتمعات الحديثة يمكن أن تنشأ لديها نزعات عسكريتارية إذا بدأت الحكومات في التدخل في إدارة الاقتصاد. وكسياسي ليبرالي، أكد سبنسر أنه من الأفضل إدارة النشاطات الصناعية عن طريق نظام مالي وسوقي بدلاً من إقامة مؤسسات مركزية للتخطيط والتحكم.

كان لأفكار سبنسر تأثيرٌ دوليٌ كبيرٌ، بتطوير أتباعه لآرائه في أمريكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا واليابان وبريطانيا نفسها. وحتى أصحاب المذهب «الوظيفي» الذين تفوقوا على مذهب النشوء لسنوات عديدة، يدينون بالفضل إلى سبنسر لاكتشافه استقلالية الظاهرة الاجتماعية والاعتماد الوظيفي البيني للعناصر المتفاضلة لأي مجتمع. وليس من المدهش أنه عندما بدأ بارسون بوضع نظريته الوظيفية، بدأ بقراءة أعمال سبنسر، وأعاد تقديم الأفكار الخاصة بنظرية النشوء إلى التحليل السوسيولوجي.

انظر أيضاً: ليونارد هوبهاوس، وليام سامنر.

انظر أيضاً :

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Talcott Parsons, Nik-las Luhmann.

أهم الأعمال:

Social Statics . London: Chapman, 1850.

First Principles . 2 vols. London: Williams and Norgate, 1862.

Principles of Biology . 2 vols. London: Williams and Norgate, 1864-7.

Principles of Psychology . 2 vols. London: Williams and Norgate, 1870-2.

Principles of Sociology . 3 vols. London: Williams and Norgate, 1873-93.

.The Study of Sociology . 1873. London: Kegan Paul, Trench, 1889

.Principles of Ethics . 2 vols. London: Williams and Norgate, 1874-93

.The Man Versus the State . London: Williams and Norgate, 1884

.Autobiography . 2 vols. London: Williams and Norgate, 1904

أنتج سبنسر أيضاً السلاسل الإثنوغرافية المستمرة من العام 1874 للسوسيولوجيا الوصفية De-
. scriptive Sociology

قراءات إضافية:

John D. Y. Peel. Herbert Spencer, The Evolution of a Sociologist . London:
.Heinemann, 1971

Jonathan H. Turner. Herbert Spencer: A Renewed Appreciation . Beverly
.Hills, CA: Sage, 1985

ألبيون سمول (Albion Small)

كان ألبيون سمول، شخصية بارزة جديرة بالذكر لعدة أسباب. أولها ، أنه كان أحد مؤسسي علم الاجتماع الأمريكي. و ثانيها ، أنه قام بإنشاء قسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو كأول قسم أُنشئ رسمياً لعلم الاجتماع في أي جامعة. ثالثها ، نشر سمول بالاشتراك مع زميله جورج إ. فينسنت (George E. Vincent) ، أول كتاب مدرسي لعلم الاجتماع من تأليف كاتب أمريكي عام 1894م. و رابعها ، أنه عُيّن عام 1895م رئيساً لتحرير المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع (American Journal of Sociology) ، وهي أول جريدة أكاديمية في علم الاجتماع. ونظراً إلى هذه الأسباب مارس سمول دوراً إدارياً حاسماً كحارس علمي في المراحل المبكرة من تطور علم الاجتماع في أمريكا.

ولد ألبيون وودبري سمول عام 1954م، وهو ابن قس معمداني. واقتفى، عندما دخل كلية كولبي في مدينة ووترفيلا الواقعة في ولاية ماين عام 1872م، أثر والده في الدراسة اللاهوتية. وبعد تخرجه في العام 1876م، التحق سمول بمعهد نيوتن اللاهوتي في ماساتشوستس، حيث أكمل دراسته حتى العام 1879م. وتضاءل حماسه للكهنوت بشكل ملحوظ مع تحسن حالة والده الاقتصادية. وبمباركة والده بات بمقدوره متابعة دراسة العلوم العلمانية في ألمانيا.

في ألمانيا التحق سمول بفصول في دراسة التاريخ والاقتصاد القومي، بداية في جامعة برلين، ومن ثَم في جامعة ليبزيغ. وفي الوقت الذي كان فيه في ألمانيا، التقى سمول بجورج سيميل الذي كان يدرس الفلسفة هناك، ونشأت بين الرجلين علاقة فكرية واجتماعية. ومع ذلك انقطع عن الدراسة في ألمانيا مبكراً، إذ عُرض عليه في عام 1881م منصباً في مدرسته الأم كولبي كولدج (Colby College) . وبقي سمول لسبع سنوات في كولبي، حيث درّس فيها التاريخ والعلوم السياسية. وبعد إجازة قصيرة في جامعة «جونز هوبكنز» لعام 1888 - 1889م، عاد سمول إلى كولبي مرة أخرى، وعين رئيساً لذلك المعهد. وبقي في رئاسته لثلاثة أعوام.

وفي الوقت الذي كان فيه في كولبي، بدأ سمول بتطبيق اهتماماته في علم الاجتماع، سواء كمدير إذ شجع الكلية على تقديم فصول دراسية في علم الاجتماع، أو بإلقاء محاضراته الخاصة في علم الاجتماع. وتم تقديم أول هذه الفصول الدراسية في علم الاجتماع لأول مرة في كولبي في العام 1890م. وفي العام نفسه قام فرانك بلاكمار (Frank Blackmar) ، وكان زميلاً لسمول في جامعة جونز هوبكنز، بتقديم فصلاً دراسياً في علم الاجتماع في جامعة كنساس. وكان هذان أول فصلين دراسيين يقدمان في علم الاجتماع في جامعات أمريكا منذ الفترة التي قدّم فيها وليام سامنر فصله الدراسي في جامعة يال عام 1875 أو 1976م.

آمن سمول بشدة بفكرة أنه إذا كان علم الاجتماع سيتطور كعلم علمي شرعي، لابد من أن يبتعد عن النظريات الاجتماعية الكونية المبالغ فيها. وكان كل من كونت وسبنسر ووارد، قد أنجزوا ذلك لعلم الاجتماع، ولكن حان الوقت لتأكيد التخصص، بحيث يستطيع المتخصصون في المجالات الفرعية الأضيق جلب خبراتهم للتأثير في القضايا الملحة في النظريات والأبحاث الاجتماعية. ووفقاً لسمول فقد حل حينها «عصر علم الاجتماع».

واعتقد سمول أيضاً أن العلماء الأمريكان كانوا مجهزين بشكل خاص لإخضاع علومهم المتخصصة إلى مشروع أوسع من أجل تطوير علم المجتمع الناشئ هذا. واستناداً إلى الروح البراغماتية الأمريكية والحاجة إلى تكملة الأفكار ببيانات إمبريقية في خدمة الإصلاح والتجديد الاجتماعي، فقد كان من الممكن أن يتكون علماء عديدون من كافة مناحي الحياة والتدريب الأكاديمي المتنوع على استعداد لتنسيق معرفتهم المتخصصة من أجل هذا الهدف الكبير. ووفقاً لسمول، فقد كان من الممكن أن تمارس صحف مثل American Journal of Sociology ، دوراً أساسياً في المساهمة في تحسين ظروف البشرية من خلال العلم.

ومن خلال دوره كأستاذ في علم الاجتماع في جامعة شيكاغو ورئيس تحرير American Journ-al of Sociology ، كان سمول متشجعاً لقيم الكفاءة والتحكم البراغماتي. ومن بين آخرين أكد كريس برنرت (Chris Bernert) أن سمول كان في قلبه من أتباع النظرية التصويرية، وأَقْدَم مكوِّني الكفاءة الإدارية في أوروبا. وبالفعل ففي العام 1909م، نشر سمول دراسة حول الموضوع

(The Cameralists) ساعدته (بالإضافة إلى نظريات إميل دوركهايم وتشارلز إلوود) على صياغة أحد التقارير المبكرة عن طبيعة الميثودولوجيا الاجتماعية.

من المرجَّح أن علم الاجتماع العام (General Sociology) هو من أهم أعمال سمول، وكان نُشر في العام 1905م. وفي ذلك الوقت طرح مجموعة من علماء الاجتماع، بمن فيهم جورج سيميل وإميل دوركهايم وغابريال تارد وليستر وارد ولودفيغ غومبلوفيتش وفرانكلين غيدينغز وغوستاف راتزينهوفر، مذاهب اجتماعية عامة، ولكن كانت ناقصة كلها كاستراتيجية نهائية للتحليل السوسيولوجي. وبدلاً من رفض أفكارهم تماماً، فقد أخذ سمول منهم ومن غيرهم من أصحاب النظريات ما هو مفيد لإتقان برنامجه الخاص في علم الاجتماع العام؛ فعلى سبيل المثال، في الفصل الخاص بالفرد، قبل سمول فكرة ليستر وارد أن الرغبة هي محرك السلوك الإنساني في حين أن العقل يقود ويوجه اتجاهاته (تماماً مثل النظام السايبرناتي (Cybernetic System)). وبدلاً من الاعتماد على دراسة رموز القوى الاجتماعية الخاصة بـ «وارد» أو مفهوم فكرته النظرية عن العزيمة، بقي سمول في المستوى الفردي وحاول استنباط المجموعة المحدودة من العوامل التي تكمن في سلوك الإنسان الفعلي على نحو دقيق. كما غير سمول أيضاً مصطلحات وارد الفنية، فبدّل مصطلح «الرغبة» بـ «الاهتمام» أو «العواطف»، تقليداً لآدم سميث.

حدد سمول ستة عوامل أساسية باعتبارها العوامل المحفزة للسلوك البشري. فالبشر يتصرفون من أجل الصحة أو الثراء أو الترابط الاجتماعي أو المعرفة أو الجمال أو التضامن أو توليفة من هذه الأمور. وعلى الرغم من كون هذه فكرة مثيرة حازت على بعض الاهتمام عبر السنين كنظرية مرشحة في مجال علم الاجتماع العام، إلا أنها لم تُفهم في الواقع قط.

توفي سمول في العام 1926م. ولمحاولاته في الفكر الأصلي كان ولا يزال يُذكر سمول ـ على نحو صحيح أو خاطئ ـ لدوره كمدير وحارس علمي لعلم الاجتماع الأمريكي، وكذلك إلى تعليقاته المتألقة من حين إلى آخر حول الاتجاهات التاريخية والتوقعات في مجال علم الاجتماع.

انظر أيضاً: لودفيغ غومبلوفيتش، ليستر وارد.

أهم الأعمال:

An Introduction to the Study of Society . With George E. Vincent. New .York: American Book Co., 1894

.The Era of Sociology. American Journal of Sociology , 1, 1895

.General Sociology . Chicago: University of Chicago Press, 1905

Adam Smith and Modern Sociology: A Study in the Methodology of the .Social Sciences . Chicago: University of Chicago Press, 1907

.The Cameralists . Chicago: University of Chicago Press, 1909

Fifty Years of Sociology in the United States 1865-1916}. American Journ- .al of Sociology , 21, 1916

قراءات إضافية:

Chris Bernert. From Cameralism to Sociology with Albion Small. Journal .of the History of Sociology , 4, 1982

Roscoe Hinckle. Founding Theory of American Sociology, 1881-1915 . .London: Routledge & Kegan Paul, 1980

بيتريم سوروكين (Pitirim Sorokin)

يعد بيتريم سوروكين، واحد من أكثر العلماء المغامرين الصريحين في مجال السوسيولوجيا؛ فلم تكن حياته حياة علمية وحسب، بل كانت حياة حافلة بالجرأة والمغامرة. وقد غرست فيه نشأته بين الشعب الكومي في روسيا منظوراً متكاملاً اعتبر الواقع بمثابة نسيج للحقائق الروحية والعقلية والإمبريقية؛ فالحياة بالنسبة إليه وحدة، ولم تكن هذه الأبعاد الإنسانية أساسات اجتماعية وشخصية وتوجهاً نحو العالم فحسب، بل أيضاً أساسات يبني عليها البشر عوالمهم الاجتماعية والثقافية والتاريخية.

ولد سوروكين في العام 1889م، ونشأ في مجتمع كومي معروف بمستويات راقية من الإنجازات الفكرية. وقد تعلم التفكير بأسلوب نقدي، وأن يناقش بأسلوب مقنع مع المثقفين في قريته ومع القساوسة الأورثوذكس، وحتى المعلمين القساة الصارمين. وانطلاقاً من هذه الأرضية الصلبة، قد ترك وطنه في الشمال سعياً إلى المزيد من الدراسات في سان بطرسبرغ. فالتحق أولاً بالمدارس الليلية لتقوية مهاراته الأساسية، ومن ثم التحق بمعهد (الدراسات) العصبية النفسية ليدرس على يد علماء سلوكيين مشهورين مثل ف. م. بيختيريف (V. M. Bekhterev) ، وإيفان بافلوف (Ivan Pavlov) . ومن هناك التحق بجامعة سان بطرسبرغ. وفي جامعة بطرسبرغ بدأ انخراطاً طويلاً وخطيراً في إسقاط القيصر. وبحلول عامه السابع عشر أتم تعليمه الأساس الرسمي، وكناشط سياسي مبتدئ، أمضى فترة عقوبته الأولى في سجن الحكومة القيصرية.

لقد امتزج هذا النشاط بطموحه التعليمي، فحصل على درجة الدكتوراه من جامعة سان بطرسبرغ في علم الاجتماع، كما حاز درجة الماجستير في القانون الجنائي. ولفت انخراطه في حركات لإسقاط القيصر انتباه ألكسندر كيرنسكي (Alexander Kerensky) الذي خدم نائباً له كرئيس لأول حكومة بعد سقوط الحكومات القيصرية. وبعد سقوط حكومة كيرنسكي على يد البولشفيين، سُجن سوروكين على يد فلاديمير لينين ثلاث مرات، ونجا في أيلول/سبتمبر من العام 1922 من عقوبة الإعدام باختياره «المنفى الطوعي» إلى تشيكوسلوفاكيا، حيث بدأ هناك حياة جديدة مع زوجته إلينا، وأصبح في مأمن من تهديدات السجن والإعدام. وقبل سوروكين بعد فترة قصيرة من وصوله إلى

تشيكوسلوفاكيا دعوة عالمين اجتماعيين أمريكيين مؤثرين هما إدوارد س. هايس (Edward C. Hayes) وإدوارد أ. روس (Edward A. Ross) . وعبّرا له عن رغبتهما في قدومه إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإلقاء سلسلة من المحاضرات عن الثورة الروسية، إضافة إلى مواضيع أخرى. ولدى وصولهما إلى الولايات المتحدة ذهب سوروكين وزوجته إلى جامعة فاسر الأمريكية حيث نزلا ضيفين لدى رئيسها آنذاك هنري نوبل ماكراكن (Henry Noble McCracken) ، الذي التقى به سوروكين في براغ. وقام هناك بإعداد محاضراته، وتقوية لغته الإنكليزية، وتدبير شؤون جولته.

سارت الجولة على ما يرام، وقبِل سوروكين عرضاً لشغل منصب أستاذ مساعد في علم الاجتماع بجامعة مينيسوتا. وبذلك أصبحت حاله مستقرة، فشرع بنشر بعض الأعمال الكبرى في السوسيولوجيا: أوراق من مفكرة روسية (Leaves from a Russian Diary) ، و سوسيولوجيا الثورة (The Sociology of Revolution) ، و التحرك الاجتماعي (Social Mobility) و النظريات الاجتماعية المعاصرة (Contemporary Sociological The-ories) . وأضاف إلى هذه الأعمال عملين آخرَين في علم الاجتماع القروي هما: مبادئ علم الاجتماع المديني ـ القروي (Principles of Urban-Rural Sociology) كتبه بالاشتراك مع كارل زيمرمان (Carle Zimmermann) ، والمجلدات الثلاثة الأُول من المصدر المنتظم في علم الاجتماع القروي (أيضاً بمشاركة كارل زيمرمان وإضافة تشارلز ج. غالبين (Charles J. Galpin)). وأصبح سوروكين بظهور أول ثلاثة كتب له من هذه الأعمال المتميزة باتساعها ومرجعيتها، أحد رواد هذا العلم ومؤسسيه. وفي ذلك الوقت كان رئيس جامعة هارفرد يبحث عن رئيس لقسم علم الاجتماع الذي كان يُخطَط لإنشائه. وعند قراءته كتاب النظريات الاجتماعية المعاصرة ، أُعجب بمدى عمق وسعة هذا الكتاب. ونتيجة ذلك، دُعي سوروكين لإلقاء سلسلة محاضرات قصيرة وندوات في جامعة كامبردج، وعُرض عليه في وقت لاحق منصب أستاذ ورئيس في الجامعة. وبعد مضي ست سنوات فقط، ارتقى سوروكين من عالم مهاجر إلى أحد أكبر المراتب الرفيعة المستوى في علم الاجتماع الأمريكي.

حالما استقر سوروكين في جامعة هارفرد، بدأت مساهمات سوروكين القيمة المتميزة في علم الاجتماع. وطوّر في كتابه الديناميكيات الثقافية والاجتماعية ، المكوّن من أربعة مجلدات، نظرية في النظام والتغيير الاجتماعي امتدت على مدار 2000 عام من نشوء الثقافة البشرية، وتنبأ بأزمات العصر الحديث. واحتوت تلك المجلدات على تحليل جذري مطول للتغيرات التاريخية في المؤسسات الثقافية الرئيسة، وفي أشكال التنظيم الاجتماعي. وكانت الأنواع الثقافية المهيمنة هي الحسية، والفكرية، والمثالية. وكان الأساس الذي فاضل فيه سوروكين بين الأنواع الثقافية منغرساً في المبدأ الإبيستيمي الذي اعتبرَته الأنواع حقيقةً.

وكانت الثقافات الإمبريقية الحسية تعتمد على حقائق تكشفها الحواس، وأما الثقافة المثالية العقلانية، فكانت تقوم على أساس من العقل والمنطق، وأما الثقافة الفكرية مفرطة الإحساس فكانت تقوم على الإيمان الموجود في الأبعاد الروحية والدينية والأخلاقية للمجتمع البشري. وقد جُمعت هذه الثقافات ومبادئها لمعرفة الحقيقة في مفهوم سوروكين عن التكاملية وثقافة التكامل، فالتكاملية تجسد صهر المبادئ الثقافية الثلاثة المعرفة في نظام متكامل لتعريف الحقيقة الاجتماعية، وتقديم أساس إبيستيمي للشكل الثقافي المتكامل للتنظيم الاجتماعي البشري.

ولكن الأمر المحزن أن السوسيولوجيا المعاصرة لم تكن على استعداد لتقبل مثل هذا العمل. وكان سوروكين محظوظاً، أو بعيد النظر جداً؛ إذ قام بتأخير إصدار المجلد الرابع من الديناميكيات حتى العام 1941م. ووفر ذلك فرصة للرد على نقاده ونشر مجلد قيم. واعتبر العديد من علماء الاجتماع، إن لم يكن معظمهم، كتاب الديناميكيات ، والكتب التي تلته أزمات عصرنا (Crisis of Our Age) و الإنسان والمجتمع في الكوارث (Man and Society in Calamity) على أنها عبارة عن تحول في فكر سوروكين من علم الاجتماع العلمي إلى التشديد على النقد الاجتماعي وإعادة البناء.

وكانت تلك هي الأعمال التي جمعت بينه وبين المبشر إلي لِيللي (Eli Lilly) ، وأدت إلى إنشاء مركز أبحاث هارفرد للغيرية (حب الغير) الإبداعي. فاتفق سوروكين وليللي على أن الواقع الاقتصادي والسياسي الحالي لن يزيد من أشكال العنف والجريمة داخل الولايات المتحدة فحسب، وإنما سيزيد من أشكال العنف العالمي وتصادم القوى الكبرى، وأن تغير القوى المحركة الاجتماعية فقط يمكنه أن يحفظ العالم من التهديدات الداخلية ومخاطر التدمير النووي.

وكان المركز مخصص لتطوير تقنيات الغيرية لخفض أشكال العنف في العلاقات الاجتماعية بدءاً من المجموعات الأساسية وحتى الدول الأمم.

وقد أدَّى هذا المنهج في الأبحاث والمنشورات، إلى انتقال سوروكين إلى هامش مؤسسة علم الاجتماع. وكان من الممكن أن يبقى هناك لولا حديث غداء بين أوتيس وبيفرلي دنكان» وألبرت ج. ريس في جامعة ميتشيغن. فقد لاحظوا أنه بعد خسارته انتخابات رئاسة نقابة علماء الاجتماع الأمريكية في العام 1952م أمام فلوريان زنانيكي، فإن سوروكين لم يحظَ بالتسمية الثانية المعتادة. فقاموا بالاتصال بسبعة أعضاء بارزين آخرين من أعضاء النقابة الجمعية وأنشأوا، بناء على اقتراح روبرت ميرتون (Robert Merton) لجنة مراسلة. وكانت هناك استجابة كبيرة للفكرة التي حققت نجاحاً كبيراً. وكانت النتيجة لا مثيل لها؛ إذ فاز سوروكين بفارق كبير من الأصوات. ولذلك فعندما مات في العام 1968م، مات وهو معروف كعالم بارع جدير بالاحترام.

انظر أيضاً: أوغست كونت.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , George Homans

أهم الأعمال:

.Social Mobility . New York: Harper and Brothers, 1927

Sociological Theories: Through the First Quarter of the Twentieth Century .. New York: Harper and Row, 1928

Principles of Rural-Urban Sociology. With Carle C. Zimmerman. New .York: Hemy Holt and Co., 1929

A Systematic Source-Book in Rural Sociology . 3 vols. With Carle C. Zimmerman and Charles J. Galpin. Minneapolis, MN: University of Min-.neapolis Press, 1930, 1931 and 1932

Social and Cultural Dynamics , vols. 1-3. New York: American Book Co., .1937

Social and Cultural Dynamics , vol. 4. New York: American Book Com-.pany, 1941

.The Reconstruction of Humanity . Boston, MA: Beacon Press, 1948

Integralism is My Philosophy In Whit Burnett, ed. This is My Philosophy . .New York: Harper Brothers, 1957

Society, Culture, and Personality: Their Structure and Dynamics . New .York: Cooper Square Publishing Inc., 1962

A Long Journey: The Autobiography of Pitirim A. Sorokin . New Haven, .CT: College and University Press, 1963

Sociology of My Mental Life. In Philip J. Allen, ed. Pitirim A. Sorokin in .Review . Durham, NC: Duke University Press, 1963

يمكن الاطلاع على مقتطفات من أعمال سوروكين في:

Barry V. Johnston, ed. Pitirim A. Sorokin: On the Practice of Sociology . .Chicago: University of Chicago Press, 1998. Heritage of Sociology Series

قراءات إضافية:

Barry V. Johnston. Sorokin and Parsons at Harvard: Institutional Conflict and the Rise of a Hegemonic Tradition. Journal of the History of the Beha-.vioral Sciences , 22, 1986

Barry V. Johnston. Pitirim A. Sorokin and the American Sociological As-sociation: The Politics of a Professional Society. Journal of the History of .the Behavioral Sciences , 23, 1987

Barry V. Johnston. Pitirim A. Sorokin: An Intellectual Biography . .Lawrence, KS: University Press of Kansas, 1995

Edward Tiryakian. Sociological Theory, Values, and Sociocultural Change: Essays in Honor of Pitirim Sorokin . New York: The Free Press of Glencoe, .1963

فيرنر سومبارت (Werner Sombart)

فيرنر فريدريش فيلهيلم كارل سومبارت، عالم مشهور بمنشوراته العديدة لما يزيد على خمسين عاماً في مجالات الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع والقانون. ومع ذلك، فإن المعايير الحالية في تقييم أعماله تعتبر أكبر مساهماته تحليلاته لطبيعة الرأسمالية كنظام اقتصادي، واهتمامه في فهم أسباب وتداعيات الرأسمالية.

على الرغم من عدم غرقه في النسيان، غير أن صيت سومبارت ذاع بعد موته بسبب تغير آرائه السياسية طوال فترة حياته؛ إذ كان مؤيداً للماركسية في أول حياته (مع أنه لم يكن مناصراً رسمياً للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني)، ومن ثَم انسلخ عن اليسار تدريجياً (كما يُرى من طبيعة مراجعة نسخ منشوراته المتتالية لكتبه المتعلقة بهذا الشأن)، حتى اعتنق في آخر حياته مبادئ الاشتراكية القومية. ومع ذلك، فلم يتم قبوله تماماً من قبل النظام الحاكم على الرغم من موافقته الحماسية على «مبدأ القائد» (Führerprinzip) الذي تعامل مع الفوضى التي كانت قائمة خلال الأعوام التي حكمت فيها جمهورية فايمر الألمانية. وقد أدّى رفضه المتزايد للحركة الاشتراكية، وبخاصة الثورات الروسية والمحاولات الثورية الألمانية، إلى تحوله السياسي على الرغم من ادعاء بعض المدافعين المعاصرين عنه بأنه كان مرتاباً في بعض كتاباته المتأخرة بشأن النظريات العرقية والبيولوجية للحزب القومي الاشتراكي.

ولد سومبارت في التاسع عشر من كانون الثاني/يناير من العام 1863م، بمدينة إرمسليبِن بألمانيا، وهو الابن الأصغر للسياسي ورجل الصناعة وصاحب الأراضي أنتون لودفيغ سومبارت. وكانت العائلة تنحدر من أعضاء هيوغو نوت (المسيحيون الفرنسيون)، وكان والده عضواً عن الحزب الليبرالي الوطني في البرلمان البروسي، إضافة إلى كونه من مؤسسي جمعية السياسة الاجتماعية (Verein für Sozialpolitik) في العام 1872م، والتي قدم لها ابنه العديد من المساهمات فيما بعد. وبدأ سومبارت في العام 1882م دراسة القانون في جامعات بيزا وبرلين، ومن ثم أتم دراساته في روما حيث درس القانون والسياسة والاقتصاد والتاريخ والفلسفة. ومنذ عام 1888م حتى عام

1890م عمل محامياً في الهيئة التجارية لشركة بِريمن (Bremen Chamber of Commerce) . وفي العام 1890م، وبتوصية من وزير التعليم البروسي وعلى خلاف رغبة كليته، عُين سومبارت أستاذاً ملحقاً بجامعة بريسلاو (روكلاو حالياً). وعين في العام 1906م، أستاذاً بكلية التجارة بجامعة برلين، وأخيراً عام 1917م عين أستاذاً للاقتصاد بجامعة برلين بتأييد من الحكومة على الرغم من عدم قبول هيئة التدريس لذلك. وأصبح أستاذاً فخرياً في العام 1931م، غير أنه مارس التدريس حتى العام 1940م. وقد أعاقت سومبارت سمعته كاشتراكي أكاديمي في بداية حياته تقدمه في عمله المهني بشكل واضح. وقد أدى تعاطفه مع الماركسية في بداية حياته إلى انشغاله في جمعية السياسة الاجتماعية. وقد تم اختياره للمشاركة بلجنتها في العام 1892م، ليصبح نائباً لرئيسها في العام 1931م، ورئيساً لها في العام 1932م. كما عمل منذ العام 1903 رئيساً مشاركاً لتحرير الصحيفة الشهيرة Archiv für sozialwissenschaft und sozialpolitik 1903م.

كانت كتابات سومبارت انتقائية من حيث الأسلوب والمحتوى. وكي يوضح آراءه، فقد اعتاد في كتاباته استخدام الإحصائيات الواقعية المختلفة التي كان يستخدمها المحللون الاجتماعيون مثل الأحوال الاقتصادية لأسر العمال وكوارث حوادث السكك الحديد. وكان من بين المواضيع العديدة التي تناولها في كتاباته اهتمامه بحركات العمال والرأسمالية، وهي مواضيع كانت تعكس فكره الأول. وقد تناول هذا الفكر في كتابه الاشتراكية والحركة الاجتماعية في القرن التاسع عشر (So-cialism and the Social Movement in the Nineteenth Century) الذي نشر بداية في العام 1896م، ولكنه ندد فيه بالاشتراكية عندما صدر في طبعته العاشرة بمسمى «الماركسية» في العام 1924 في ضوء التجارب الثورية الروسية والألمانية. ومن ثم كتب الاشتراكية الألمانية (Deutscher Sozialismus) كنسخة أخيرة عن الكتاب في العام 1934م. ويعتبر كتابه الرأسمالية الحديثة (Der moderne Kapitalismus) من أهم أعماله عن الرأسمالية. وكان الكتاب قد صدر في جزأين في العام 1902 م، وصدر في ستة مجلدات منقحة بين الأعوام 1916 إلى 1927م. ويعد هذا الكتاب مرجعاً تاريخياً للرأسمالية في أوروبا في الماضي والحاضر. ولتأثره بأفكار ماكس فيبر عن العلاقة بين الدين وظهور الاشتراكية، واعتماداً على تحقيقاته النظرية، فقد أوضح سومبارت أن سمات الديانة اليهودية والأفكار البرجوازية كانت سبباً في ظهور الرأسمالية، وهو ما أوضحه في كتابيه اليهود والرأسمالية الحديثة (The Jews and Modern Capitalism

) و جوهر الرأسمالية (Quintessence of Capitalism) . وقد انتُقِدت أفكاره حول السمات النفسية الاجتماعية لليهود وقيم الديانة اليهودية وقوانين اليهود التي كانت عاملاً في دورهم في بروز الرأسمالية في ذلك الوقت. وقد كتب سومبارت عن الترف والرأسمالية والحرب والرأسمالية أثناء تحليله للرأسمالية، موضحاً خيبة أمله في نمو الرأسمالية في كتابه -Die Deutsche Volk wirtschaft im neuzehnten Jahrhundert الذي يعد تحليلاً شاملاً تناول من خلاله جميع مجالات الاقتصاد الألماني من تبادل الفائضات والتصدير والصناعة، وحتى طبيعة الطبقات الاجتماعية. وقد صدر ذلك الكتاب في عدة طبعات.

انجذب سومبارت إلى اللغة الإيطالية مثل معاصره روبرت ميشيل، حيث تناولت كتاباته الأولى منذ أن كان طالباً الشؤون الإيطالية. ولذا فقد اشتُهر في ألمانيا كخبير إيطالي منذ شبابه. وتُرجمت أعماله المختلفة إلى عدة لغات، ومن المرجَّح أن أشملها ترجمة كان إلى اللغة الإيطالية. كما أَلِف الإنكليزية مثل ماكس فيبر؛ إذ سافر إلى الولايات المتحدة في العام 1904، وكتب العديد من المؤلفات عن الرأسمالية وحركة العمال الأمريكيين. ولم يتأثر سومبارت كثيراً مثل ماكس بمميزات الرفاهية للرأسمالية الأمريكية، ولذا فقد توصل إلى أن الرفاهية هي السبب الطبيعي وراء فشل حركة الطبقة العاملة في أمريكا. وقد ظهر ذلك في كتابه لماذا لا يوجد اشتراكية في الولايات المتحدة الأمريكية؟ (Why is There No Socialism in the United States of America?) ، وهي دراسة صغيرة نوعاً ما نشرها في العام 1906م. وربما يكون العمل الوحيد الذي يمكن لقراء اللغة الإنكليزية الاطلاع عليه. كما يعد أحد الكتابات التقليدية في المناظرات الواسعة في «الاستثنائية الأمريكية» فيما يتعلق بالحركة العمالية. وفي الحقيقة فغالباً ما يشار إلى تلك القضية باسم «مسألة سومبارت»، في إشارة إلى تلك الدراسة.

نشأت نظريات سومبارت الاجتماعية من أعماله الإمبريقية والتاريخية عن الرأسمالية، وبخاصة اقتراحاته الخاصة بالوعي الطبقي وتحليلاته عن البناء الطبقي للرأسمالية. وتعد الآن محاولاته للكتابة في علم الاجتماع مثل كتابه علم الاجتماع (Soziologie) في العام 1923م أقل أهمية من بين أعماله الأخرى، كما يعد كتابه هاندلر أوند هيلدن (Handler und Helden) في العام 1915م عملاً ألهمته الحاجة إلى تقديم دعم فكري لمساعي الحرب الألمانية. غير أن ما

يجعل سومبارت جديراً بالتذكر من قبل علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد هي أعماله الاقتصادية والتاريخية عن الرأسمالية. وقد توفي سومبارت في برلين في 18 أيار/مايو 1941م.

انظر أيضاً: ماكس فيبر.

أهم الأعمال:

Socialism and the Social Movement in the Nineteenth Century . 1896. English trans. of the 6 th edn. London: J. M. Dent, 1909.

.Der moderne Kapitalismus . Berlin: Duncker und Humblot, 1902

(وقد صدر له عدة طبعات لاحقة).

Die deutsche Volkswirtschaft im neunzehnten Jahrhundert . 1903. Berlin: G. Bondi 1921.

Why is there No Socialism in the United States? . 1906. London: Macmillan, 1976.

.The Jews and Modern Capitalism . 1911. London: T. Fisher Unwin, 1913

.The Quintessence of Capitalism . 1913. London: T. Fisher Unwin, 1915

Luxury and Capitalism . 1913. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1967.

Handler und Heiden: patriotische Besinnungen . 1915. Berlin: Duncker und Humblot, 1915.

.Soziologie . Berlin: Pan-Verlag R. Heise, 1923

.Der proletarische Sozialismus ('Marxismus') . Jena: G. Fischer, 1924

A New Social Philosophy (Deutscher Sozialismus) .1934. Oxford: Oxford .University Press, 1937

قراءات إضافية:

Friedrich Lenger. J.-Verner Sombart, 1863-1941: eine Biographie . Mu- .nich: Verlag C. H. Beck, 1995

Arthur Mitzman. Sociology and Estrangement: Three Sociologists of Im- .perial Germany . New York: Alfred A. Knopf, 1973

Nico Stehr and Reiner Grundmann, eels. Economic Life in the Modern Age .. New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001

جورج سيميل (Georg Simmel)

ألمع رجل في أوروبا» هذا ما كتبته سانتايانا (Santayana) إلى وليام جيمس (William James) ؛ وكثير من أبرع المفكرين الأوروبيين يرون ذلك، كما كان الجيل المؤسس من علماء الاجتماع الأمريكيين يثقون به ثقة كبيرة. كان جورج سيميل من سكان مدينة برلين ـ وتبقى مقالة -The Met ropolis and Mental Life لعام 1903م، مقالة لطيفة عن الثقافة المدينية ورمزاً من رموز الحداثة الفكرية وسط بيئة قمعية من العظمة الفيلهيلمية والبيروقراطية البروسية والصرامة المهنية، إلا أنه يتذبذب بين التيارات الفكرية والسياسية المضادة. وتمكن سيميل من جذب نخبة مفكري برلين في العقدين قبل الحرب العالمية الأولى من خلال كتاباته المثمرة والمحاضرات المبدعة والمنتديات والصالونات الثقافية التي كانت تعدها زوجته غيرترود، التي كانت أيضاً كاتبة فلسفة بارعة.

ولد سيميل عام 1858م، وترجع أصول والديه إلى يهود مدينة روكلاو (بريسلاو). وقَبْل زواج والديه وانتقالهما إلى برلين، اعتنقت والدته البروتستانتية، وأما والده فاعتنق الكاثوليكية في أثناء أسفاره إلى باريس في أعماله التجارية. وقد تم تعميد جورج، الذي كان أصغر إخوته السبعة، وفقاً لعقيدة أمه. وكان سيميل دائماً ما يوصف باليهودي بأسلوبه الفكري وتكلّفه المادي، على الرغم من أنه لم يبدِ إلا القليل من التشابه بعادات أسلافه، على الرغم من أنه أخبر الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر ذات مرة قائلاً «إننا حقاً شعب مرموق».

على الرغم من ميول سيميل البروتستانتية، إلا أن معاداته للسامية المعلنة منعه من اعتلاء أي منصب أكاديمي منتظم في معظم حياته المهنية. وكان ذلك نتيجة مذهب فلسفة الجمال المنسوب إليه ومجموعة من اهتماماته التي دلت على إعجابه بالمؤسسة الأكاديمية الألمانية. ومن دون شك كان لسيميل توجهات واسعة النطاق في فلسفة الجمال، إضافة إلى اهتمامات فلسفية أخرى (إذ درس البيانو والكمان، كما كتب في الموسيقى، وصادق كبار الفنانين بمن فيهم الشاعر رينر ماريا ريلكي (-Rain er Maria Rilke) ، والناحت الفرنسي أوغست رودان (Auguste Rodin) وكتب عن المسرح وعن مايكل أنجلو (Michelangelo) وريمبرانت (Rembrandt)). ومع ذلك فقد حاز مؤهلات

أكاديمية رسمية من جامعة برلين بإشراف أشخاص لامعين من أمثال مومسين (Mommsen) ، وتريتشك (Treitschke) ، ودرويسن (Droysen) ، وغريم (Grimm) ، ولازاروس (Laz-arus) ، وباستيان (Bastian) ، وتمكن من إثبات نفسه فيلسوفاً جديراً بالثقة، وذلك في رسالة علمية قدمها عن إيمانويل كانط في العام 1881م. كما عزا إليه المتخصصون الفضل في مساهمات إبداعية في العديد من المجالات، بما فيها الإبستيمولوجيا، وعلم الأخلاق، وفلسفة الجمال، والقانون، والميتافيزيقا، إضافة إلى السوسيولوجيا. واشتُهر سيميل في ألمانيا بأنه كانطي حديث وفيلسوف الثقافة أو فيلسوف الحياة. كما تم توثيق تأثيره في كبار المفكرين الألمان في القرن العشرين، بمن فيهم إرنست كاسيرر (Ernst Cassirer) ، وإدموند هوسيرل (Edmund Husserl) ، وماكس فيبر، وماكس شيلر (Max Scheler) ، ومارتن هايدغر، وألفريد شوتز (Alfred Schutz) ، وألبرت شويتزر، وإرنست بلوتش (Ernst Bloch) ، وجورج لوكاش، وسيغفريد كراكور (Siegfried Kracauer) وماكس هوركهايمر.

أما خارج ألمانيا فكان سيميل، ولا يزال، معروفاً خصوصاً بسبب جهوده كعالم احتماع مبدع. وكان في الحقيقة أحد الآباء العظماء المؤسسين لعلم الاجتماع الحديث، إضافة إلى إميل دوركهايم وماكس فيبر. وقد انتشرت كتاباته في علم الاجتماع مبدئياً في الولايات المتحدة عبر سلسلة من الموالين ذوي صلات بجامعتي شيكاغو وكولومبيا، منهم ألبيون سمول، وروبرت إ. بارك، ولويس ويرث (Louis Wirth) ، وإيفيريت هاغس (Everret Huges) ، وروبرت ميرتون (Robert Merton) ، ولويس كوزر (Lewis Coser) . (كان يمكن أن يشتهر نجمه أكثر لولا إقصاء تالكوت بارسونز (Talcott Parsons) له من قائمته مُتعَمِّداً للمؤسسين الكلاسيكيين). واحتوت هذه الكتابات على اتجاهين فكريين متضادين، أحدهما نشوئي، والآخر تحليلي. وظهر المنهج النشوئي في أول أعماله الرئيسة في التفاضل الاجتماعي، وقد تمت ترجمته جزئياً حتى الآن. ونما هذا العمل من اهتمامٍ مبكر بنظريات داروين وسبنسر، كما إنه يصف النماذج التطورية عبر الزمن كصيغ متنوعة للتفردية: من المسؤولية الجماعية وحتى المسؤولية الفردية؛ ومن المجموعات الصغيرة المتجانسة، وحتى المجموعات الكبيرة المتنوعة داخلياً؛ ومن الثقافة العامة وحتى التفكير الفرداني؛ ومن الصلات الاجتماعية القسرية المبنية على النسب والجوار، وحتى الارتباطات الفردية الطوعية.

لقد أثبتت أعمال سيميل أغلب الترابطات المنطقية في علم الاجتماع. (ولم يعزُ بارسونز الفضل إلى سيميل أنه أول من افترض أن علم الاجتماع هو علم تحليلي مستقل). وهذه الأعمال، التي تطورت عبر عشرات السنين منذ بداية منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر، بدأت بمقالة برنامجية، هي «مشكلات علم الاجتماع» (Problems of Sociology) . ووجهت هذه المقالة معظم أبحاثه السوسيولوجية. وعبرت عن مبدإ قيام السوسيولوجيا بتحليل أشكال التفاعل الاجتماعي المختلفة، مثل التبادل والصراع والاستعلاء والخضوع والسرية والشرف. وبسبب وجهة نظره هذه، فكثيراً ما يوصف سيميل بـ «الاجتماعي الشكلي». ومن دون أي مخاوف بشأن غموض مفهومه الأساس عن الأشكال الاجتماعية، فقد أظهرت التحليلات المتعاقبة أن هذا المفهوم ضابط غير منتظم لظواهر متنوعة تعرف بالعلاقات الاجتماعية، والعمليات الاجتماعية، والأشكال الاجتماعية، والأنماط الديناميكية، والمتغيرات الهيكلية. وبلغ هذا العمل أوجه عندما جُمع في كتاب ونُشر في العام 1908م بعنوان Soziologie وأُلحق به عنوان فرعي مقالات حول أشكال الترابط الاجتماعي . وبحثت كل من هذه المقالات في طبيعة وخصائص وأشكال مختلفة للأنماط المختلفة للتفاعل الاجتماعي. وحدد سيميل هذه الأنماط، أو الأشكال، من خلال ما يسمى بـ «المنهجية الفكرية الواضحة»، والإدراك البديهي للمحتوى الشكلي. وقد حفّزت معظم هذه المقالات عادات البحث في مجالات مثل المسافة الاجتماعية، والنزاع الاجتماعي، والسرية، والمنظمات السرية، والغرباء، والتفاعل في مجموعات صغيرة، والمدينية. كما اشتهرت المناقشات خصوصاً بشأن تولّد التماسك بين المجموعة نتيجة الصراع الاجتماعي؛ تحليل مدى تأثير حجم المجموعة في طبيعة التفاعل، ووصف النماذج الاجتماعية مثل «الغريب» و«الفقير»، و«الوسيط» و«المارق». وتتضمن أبرز خصائصها على محاولة تطبيق الفكرة الكانطية عن ما قبل الطبقات على مجال التفاعل الاجتماعي، وفي توجيه اهتمام علم الاجتماع إلى ظواهر التفاعلات اليومية. كما ساعد تصور سيميل لتجارب الأشخاص في التجمعات الاجتماعية، أو حين تبادل الرسائل، أو العلاقات المتشحة بالغيرة، أو العرفان بالجميل، في إلهام العلماء تأسيس ما بات يعرف بـ «علم اجتماع الحياة اليومية».

نُشرت أبلغ دراسات سيميل، فلسفة المال (The Philosophy of Money) ، لأول مرة في في العام 1900م، ولم تترجم إلى الإنكليزية إلا في العام 1978م، وهي تحتوي على دراسة تحليلية نظرية (للتبادل والنماذج الاجتماعية) مع سرد شبه نشوئي لتأثيرات الاقتصاد المالي في المجتمع

الحديث. وتبدأ هذه الدراسة بتحليل دقيق لمنهجية الميتافيزيقا «النسبية» والإبستيمولوجيا، ومن ثَم تواصُل في وضع تفسيرات نظرية عن تأثير الاقتصاد المالي على الثقافة الحديثة. وتتضمن هذه التأثيرات إبراز قدرة الإنسان على إجراء الحسابات المنطقية، وعلى التوسع الهائل لمجال حرية الإنسان، وفي الوقت نفسه على استئصال الأخلاقيات السائدة وصناعة المنتجات الثقافية التي تنسلخ عن القدرات الاستيعابية للمستهلك البشري.

كانت الصفة الغالبة على كتابات سيميل ـ النشوئية والتجريدية والفلسفية ـ هي وجود تشابه واضح بالهياكل المزدوجة. وارتبطت هذه الخاصية التي وسمت أفكار سيميل بتشابهه بسبينوزا، ومعرفة عميقة بالبرهنة القانونية واستخداماته المكثفة للازدواجية المنطقية. عملياً، بدا كل شكل من الأشكال التي حددها سيميل كتوليفة من المتضادات: الغريب كتوليفة القرب والبعد؛ والزينة كتوليفة الأنانية والإيثار؛ وكذلك الموضة كتوليفة صهر رغبات التفرد والتمثل؛ والصراع كخليط من دوافع ترابطية وخصامية؛ والسيطرة كمزيج من الإكراه والحرية؛ وأيضاً السرِّية كتوليفة إفشاء وكتمان. كما تم تصور الأنماط التزامنية أنها تشمل تأكيد النزعات المتضادة: فالأمور العامة تصبح أكثر عمومية، بينما تصبح الأمور الخاصة أكثر خصوصية؛ وأيضاً تصبح الحلقات الاجتماعية أكثر شمولاً، بينما تصبح الفردية أكثر تفاضلاً؛ كما تصبح العادات التشريفية أكثر رسمية كالقانون، بينما تصبح شخصية بشكل أكبر كالفضيلة؛ وتصبح القيم أكثر موضوعية في حين يكسب الأفراد مساحة أكبر للتعبير عن الذاتية. ومن الممكن أن أغلب أفكار سيميل المتعمقة تتعلق بجوهر الحداثة ـ أي إنها لا تتألف من النزعات المهيمنة هذه أو تلك، ولكنها تتألف بشكل مسهب من النزعات المتضادة.

لقد برز تأثير سيميل في أزمنة متضادة وجادات غير متوقعة. كما ساعدت أفكاره في إثراء أعمال كل من روبرت بارك حول الحشود في مقابل العموم، ودائرة علاقات الأعراق والتهميش الاجتماعي؛ كما أثرت أعمال كارن هورني (Karen Horney) حول التحليل النفسي للنسوية؛ وأعمال لويس ويرث حول المدينية؛ وأعمال إيفيريت هاغس حول الحِرَف؛ وأعمال إيرفينغ غوفمان حول المراعاة والسلوك؛ وأعمال إيموري بوغاردوس (Emory Bogardus) وآخرين حول المسافة الاجتماعية؛ وج. ل. مورينو حول قياس العلاقات الاجتماعية؛ وأعمال ستانفورد ليمان (Stanford Lyman) حول المنظمات السرِّية؛ ودافيد ريزمان حول الاختلاطية الاجتماعية؛

وأعمال لويس كوزر حول الصراع الاجتماعي؛ وأعمال ثيودور ميلز (Theodore Mills) حول علم النفس الاجتماعي للمجموعات الصغيرة؛ وثيودور كابلو (Theodore Caplow) حول الائتلاف الثلاثي؛ وأعمال ألفين غولدنر (Alvin Gouldner) وبيتر بلاو (Peter Blau) حول التبادل؛ وإدوارد لومان (Edward Laumann) ورون بريغر (Ron Breiger) في نظرية الشبكة؛ وأعمال تشارلز كادوشين (Charles Kadushin) حول الدوائر الاجتماعية؛ وأعمال روبرت ميرتون في المجموعات المرجعية.

ومن جهة أخرى، لا يوجد رأي علمي يحكم على مدى ثراء نصوصه؛ إذ إنها تحتوي في كل صفحة على العديد من الأفكار، والتلميحات التاريخية المدهشة، ومحفزات نحو مزيد من الأفكار.

وفي السنوات اللاحقة تركزت اهتمامات سيميل على مشكلات الثقافة الحديثة، ومن ثم انتقلت إلى توضيح فلسفة الحياة تأثراً بفلسفة بيرغسون، وكذلك بسبب الاهتمام المتجدد بفلسفات غوته (Go-ethe) وشوبنهاور (Schopenhauer) ونيتشه. وفي كتابه View of Life: Four Meta-physical Chapters ، أكد سيميل أن أحد الخصائص اللازمة لحياة الإنسان هي النزوع إلى إبداع أشكال مبتكرة، ومن ثَم مهاجمة هذه الأشكال كونها أحد العوائق أمام الحياة العملية؛ وأن الموت ينبغي ألا يعتبر نهاية للحياة، ولكن كبعد تكاملي للحياة نفسها.

على الرغم من هذا السجل الحافل بالإنجازات والدعم المستمر من الأكاديميين الألمان البارزين، مثل فيبر وريكيرت وهوسيرل، إلا أن سيميل حرم من تولي منصب منتظم في نظام الجامعات الألمانية، ولم يحظَ بدرجة الأستاذية من جامعة ستراسبورغ إلا في العام 1914م، أي قبل وفاته في العام 1918م بأربع سنوات. وكان سيميل درّس في الجامعة المذكورة مدة فصل دراسي واحد قبل أن تغلق الحرب قاعات المحاضرات. وأشعلت الحرب الروح الوطنية الألمانية في داخله: فانزلق في أحاسيس غير معهودة بشأن الإمكانيات المحفزة للوطنية، كما قام بتشجيع جهود الحرب الألمانية علانية. ومع ذلك لم يخضع الفيلسوف المتحضر في داخله كلياً. وتجرأ سيميل بنشر مقالة لامعة في صحيفة برلينر تاغيبلات (Berliner Tageblatt) بعنوان ° The Idea of Europe » في السابع من آذار/مارس 1915، ازدرى فيها «العمى والرعونة الإجرامية لمجموعة من الأوروبيين» لإشعالهم حرباً ينتج عنها «تدمير انتحاري للقيم الأوروبية الحالية». وحاول أن يبين

بعض السبل التي يمكن من خلالها لفكرة أوروبا أن تنجح كـ «مكان للقيم الروحية التي يبجلها الإنسان المعاصر».

انظر أيضاً: جورج لوكاش، فيرديناند تونيس، ماكس فيبر.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Erving Goffinan, Alvin W. Gouldner, Robert Merton.

أهم الأعمال:

.ber soziale Differenzierung . Leipzig: Duncker und Humblot, 1890

The Problems of the Philosophy of History . 1905. Trans. of the 2 nd edn. .New York: Free Press, 1977

.Philosophy of Money . 1907. London: Routledge & Kegan Paul, 1978

.The Sociology of Georg Simmel . 1908. New York: Free Press, 1950

Conflict and the Web of Group Affiliations . 1908. Glencoe, IL: Free Press, .1955

Rembrandt: An Essay in the Philosophy of Art . 1916. London: Routledge, .2005

Georg Simmel: On Women, Sexuality and Love . (Essays of 1890-1918). .New Haven, CT: Yale University Press, 1984

.Simmel on Culture . (Essays of 1892-1918). London: Sage, 1997

Essays on Religion . (Essays of 1898-1918). New Haven, CT: Yale .University Press, 1997

Essays on Interpretation in Social Science . (Essays of 1904-18). Totowa, .NJ: Rowman and Littlefield, 1980

On Individuality and Social Forms . (Essays and extracts of 1907-18). Ch- .icago, IL: University of Chicago Press, 1971

قراءات إضافية:

David Frisby, ed. Georg Simmel: Critical Assessments . 3 vols. New York: .Routledge, 1994

Gary Backhaus. Simmel as an Eidetic Social Scientist. Sociological Theory ., 16: 3, 1998

Donald N. Levine, Ellwood B. Carter and Eleanor Miller Gorman. 1976. Simmel's Influence on American Sociology, Parts I and II. American Journ- .al of Sociology , 81: 4 and 5, 1976

Donald N. Levine. The Flight from Ambiguity: Essays in Social and Cul- tural Theory . Chicago, IL: University of Chicago Press, 1985. chaps. 5, 6 .and 9

Donald N. Levine. 1991. Simmel and Parsons Reconsidered. American .Journal of Sociology , vol. 95 (5), 1991

Donald N. Levine. Simmel Reappraised: Old Images, New Scholarship. In Charles Carnic, ed. Reclaiming the Sociological Classics . Oxford: Black-
.well, 1997

ألفريد شوتز (Alfred Schutz)

كانت الظروف التي أصبح فيها شوتز شخصية مؤثرة في علم الاجتماع والفلسفة الاجتماعية المعاصرة ظروفاً غير عادية. فبعد تدربه على القانون والاقتصاد، دفعته الظروف إلى اختيار مهنة في الصيرفة بدلاً من الدراسة الأكاديمية. وحتى عندما بدأ بالتدريس بدوام جزئي بعد هجرته إلى الولايات المتحدة، قام بالعمل في مؤسسة ليس لها أي دور في الحياة الأكاديمية الرئيسة في أمريكا. وحينما تُوفي لم يكن معروفاً جيداً إلا بين مجموعة محدودة من أصدقائه المفكرين وتلاميذه المقربين.

وُلد ألفريد شوتز في فيينا في 13 نيسان/أبريل عام 1899م، من والدين يهوديين. وكان والده قد تُوفي قبل ولادته. وكان اسم عائلته شوتز (Schutz) ، ولكن بعد هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية كان هجّأ اسمه لفترة وجيزة شويتز (Schuetz) قبل أن يستقر أخيراً على شوتز، (في المطبوعات التي تطبع بالألمانية تستخدم التهجئة الأصلية). وتزوجت أمه بأخ زوجها، وكان موظفاً إدارياً في أحد البنوك. ونشأ ألفريد تحت رعايته كابن له. والتحق شوتز بالتعليم الثانوي في مدرسة في فيينا، ودرس المنهج التقليدي، ولكن دراسته انتهت مبكراً بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى. وتَخَرَّج في أثناء الحرب قبل عامٍ مبكراً عن عمر يناهز سبعة عشر عاماً بعد اجتيازه اختبارات خاصة، حتى يتمكن من الالتحاق بالجيش النمساوي ـ المجري، الذي خدم فيه برتبة ضابط مدفعي صغير في المعارك التي دارت على ضفاف نهر بياف في شمال إيطاليا. وكان عمره ثمانية عشر عاماً عند انهيار الإمبراطورية. وتجنب الوقوع في الأسر في أثناء إجازته في فيينا أثناء الحرب، واستطاع بعدها بقليل بدء دراساته.

حصل شوتز على إجازة القانون من جامعة فيينا في العام 1921م. وكان من بين معلميه العالم القانوني هانز كيلسن (Hans Kelsen) ، وهو أول ممثل لفكرة نظرية الفلسفة القانونية، وكذلك العالم الاقتصادي لودفيغ فون ميسيس (Ludwig Mises) ، وهو الممثل الأكثر بروزاً من الجيل الثالث للمدرسة النمساوية في نظرية المنفعة الحدية، والذي أصبحت مفاهيمه في الاقتصاد كعلم لسلوك الفرد البشري، أحد مصادر نظرية الاختيار المنطقي.

وانضم شوتز عندما كان طالباً إلى حلقة نقاشية عن علم الاقتصاد وفلسفة العلوم، وإلى أخرى متخصصة في الأدب، وأخرى كذلك متخصصة في الموسيقى. واستمر في المشاركة في هذه الحلقات حتى بعد دخوله الحياة العملية أيضاً. ونشأت صداقة بينه وبين طالب أكبر منه سناً، هو الفيلسوف وعالم الرياضيات فيليكس كوفمان (Felix Kaufmann) ، وأصبحت له صلة قوية بالحلقة الفلسفية المشهورة في فيينا، والتي كانت تضم رودولف كارناب (Rudolf Carnap) . كما أقام شوتز صداقات مع كثير من أفراد حلقات طلاب فون ميسيس، والتي كانت تضم من بين آخرين كل من فريدريك فون هايك (Friedrich von Hayek) ، وأوسكار مورغينستيرن (Os-car Morgenstern) . كما دامت صداقته مدى الحياة بكل من الفيلسوف السياسي إيريك فوغيلين (Eric Voegelin) ، والاقتصادي فريتز ماخلوب (Fritz Machlup) ، (الذي أصبح فيما بعد مديراً للفرع المالي الدولي لجامعة برينستون)، وكذلك بالمحامي وعازف الموسيقى إيمانويل وينتيرنيتز (Emanuel Winternitz) (الذي أصبح فيما بعد أميناً على مجموعة الآلات الموسيقية في متحف ميتروبوليتان للفنون بمدينة نيويورك). وكانت هذه الصداقات مبنية على رفقة فكرية قوية ومناقشات مهمة للمواضيع المختلفة. ولم يلتقِ هؤلاء الأصدقاء كثيراً بعد هجرتهم إلى أماكن مختلفة في الولايات المتحدة، ولكنهم استمروا في مناقشاتهم وتعليقاتهم على منشورات وخطط بعضهم بعضاً عن طريق المراسلة.

خلال فترة دراسته في فيينا، بدأ شوتز في دراسة مكثفة لنظريات ماكس فيبر السوسيولوجية. كما قام بالبحث عن حل للمشكلات التي تُركت من دون تفسير عندما اعتمد فيبر في نظرياته التفسيرية لعلوم الاجتماع، على تحليل المعنى حيث يرتبط اللاعبون في المسرح الاجتماعي بأفعالهم. كما ساعدته دراسة هنري بيرغسون وإدموند هوسيرل، في تحليل البنيان الزمني للإدراك (الحفظ والتصور والذاكرة والتخطيط) كشروط أساسية لتكوين المعنى في التجربة الذاتية وفي التفاعل الاجتماعي. وكان نتاج جهوده كتابه البناء المعبر أو بنية العالم الاجتماعي (Der sinnhafte Aujbau der sozialen Welt) ، وهو كتاب في تعارض برمجي لنظرية البنية المنطقية (أو البناء) للعالم (The Logical Structure (or Construction) of the World) . وظهر كتاب شوتز في فيينّا في العام 1932م، عندما كان هتلر على وشك تولي السلطة في ألمانيا، وكانت النمسا، قبل ضمها إلى ألمانيا بست سنوات، في ظل حكومة كهنوتية يمينية. ولم يلقَ هذا الكتاب اهتماماً في ذلك

الوقت. وظهرت أهميته تدريجياً بعد نشر ترجمة أمريكية له في العام 1967م، وعندما تبين أنه فتح آفاقاً جديدة أمام تحليل بنيان الحياة في العالم.

في الثلاثينيات من القرن العشرين، كانت تضطر بعض الأمور القانونية والمصرفية شوتز إلى الذهاب إلى باريس. وهناك قابل آرون غورفيتش (Aron Gurwitsch) ، وهو عالم له خلفية جيدة عن العلوم الفيزيائية، وقد أصبح أحد علماء علوم الظواهر؛ واستمرت تلك الصداقة في الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً. كما كان لشوتز صديق آخر في فترة وجوده في فيينا، وهو الياباني تومو أوتاكا (Tomoo Otaka) . ويمكن لذلك أن يفسر جزئياً اهتمام شوتز القوي بعلم الاجتماع الياباني. وأدى ذلك إلى إنشاء أرشيف شوتز في جامعة واسيدا في طوكيو على غرار أرشيفات العلوم الاجتماعية في جامعة كونستانس في ألمانيا. ويحتوي الأرشيف الأخير على مواد مهمة لشوتز، إضافة إلى مواد أخرى لألبرت سالومون (Albert Salomon) وكارل ماير (Carl Mayer) ، وهما زميلان لشوتز في جامعة (المنفى) إكسايل، فضلاً عن نسخ من أرشيفات ج. هـ. ميد (G. H. Mead) وبول لازارسفيلد (Paul Lazarsfeld) .

نجح شوتز وعائلته في الهجرة عام 1939م والاستقرار في مدينة نيويورك حيث استطاع شوتز مواصلة مهنته، وذلك بعد اجتياز العديد من التعقيدات انطوى بعضها على خطر ملحوظ (للاطلاع على تفاصيل هجرته وأعماله الناجحة ـ وليست السارة دائماً ـ اقرأ السيرة الشاملة لميشال باربر (Michael Barber)). واستطاع شوتز في أمريكا من مساعدة العديد من اللاجئين الأوروبيين في النجاة من النازية. وبدأ شوتز في العام 1943م بالتدريس بدوام جزئي في جامعة (المنفى) إكسايل، وهي معهد أنشأه ألفين جونسون لاستقبال عدد كبير من ذوي الأهمية من الاقتصاديين، وعلماء السياسة، والعلماء النفسيين، وعلماء الفلسفة الأوروبيين الذين فروا من الفاشية والنازية. وأصبحت كلية الخريجين التي تدّرس فيها المدرسة الحديثة في العلوم السياسية والاجتماعية. وعلى الرغم من امتياز وشهرة الكلية، إلا أنها لم تتطور لتصبح جامعة أمريكية رائدة. وكان التأثير الذي تميز به أفرادها في العلوم السيكولوجية والاقتصادية والفلسفية والاجتماعية أمريكياً ودولياً، في المقام الأول من خلال منشوراتهم، وفيما بعد من خلال أعمال طلابهم.

على الرغم من نشر شوتز العديد من المقالات في النظرية الاجتماعية، إلا أنه لم يكن لها تأثير ملحوظٌ للتو. ولم تؤدِ مقابلاته أو مراسلاته مع تالكوت بارسونز، الذي انتقد بصورة بناءة نظرية الفعل الخاصة به، ولا حتى دراسته المكثفة حول الفلسفة الواقعية الأمريكية لتشارلز بيرس، ووليام جيمس، وجون دِيوي، وجورج هربرت ميد، والتي كان لها تأثيرها الطفيف في كتاباته، لم يؤدِّ كل هذا إلى دخوله إلى العلوم الاجتماعية الرئيسة الأمريكية. ولم يُعترف به بعد وفاته في العام 1959م كشخصية رئيسة في علم الاجتماع الحديث إلا من قبل بعض علماء الاجتماع في أمريكا وأوروبا. ومع ذلك فقد شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين تقديرات عميقة لجهود شوتز. وأصبح من الواضح أن شوتز أحدث تغييرات في الافتراضات الأساسية للنظرية والفلسفة الاجتماعيين.

لم تقدم افتراضات ماكس فيبر الكانطية الحديثة بشأن العلاقة بين العالم الاجتماعي والعلوم الاجتماعية، وبشأن النماذج المثالية والواقع، أي تفسيرات كافية لكيفية تحديد «المعنى» للسياسة الاجتماعية. ورأى شوتز مبكراً أن نظرية صلة كانت مطلوبة للإشارة إلى كيفية اكتساب الأشياء الطبيعية والاجتماعية للمعنى المعياري في ظل الظروف الزمنية المختلفة للتجربة الشخصية والتفاعل الاجتماعي. وكذلك كيفية تشكيل مثل تلك المعاني المعيارية للرصيد الاجتماعي للمعرفة والإشارة إلى كيفية تقديمها للإطار النظري الذي يمكن من خلاله أن تكون التجربة الشخصية والتفاعل الاجتماعي أموراً لها معنى بالنسبة إلى الفرد. كما قام بتطوير نظرية موضوعية، وتفسيرية، ومحفزة ذات صلة، كان يخطط لدمجها في توصيف شامل للهياكل الكونية للحياة الدنيوية البشرية. وبدوره كان على هذا أن يوفر أساساً راسخاً للتحليل المقارن للحقائق الاجتماعية التاريخية. وكان شوتز على يقين أن توصيف التكوين البشري هذا للحقيقة الاجتماعية يمكنه فقط حل المسألة الميثودولوجية الأساسية لكل العلوم الاجتماعية: ما هي ماهية تلك المسائل؟ وما هو موضوع مادتها؟

كان شوتز يبلغ من العمر 40 عاماً حين وصل إلى أمريكا. وكان قد تبقى من عمره 20 سنة أخرى. وكان نشر، عقب كتابه الأول، أكثر من ثلاثين مقالة وموضوعاً، كان معظمها باللغة الإنكليزية. واشتملت الموضوعات التي تناولها على اللغة، والإشارات، والرموز، والتجسيد، وما بين الذاتية، و«الحقائق المتعددة»، والعلاقة بين الفطرة السليمة والتحليل العلمي للسلوك البشري، وميثودولوجيا العلوم الاجتماعية. واحتوى بعضها على مناقشات مهمة بين كل من وليام جيمس،

وإدموند هوسيرل، وماكس شيلر، وجان بول سارتر. وعلى الرغم من اللايقين المبكر لهذه الفترة الأخيرة من حياته، ومطالب مهنته وأسرته وحبه الشديد المتواصل للموسيقى، وتدريسه في كلية الدراسات العليا في نيو سكول (المدرسة الجديدة) (New School) منذ العام 1943م، وانتهاءً بمرضه، غير أن هذه المقالات أثبتت أنه استمر في أبحاثه المكثفة في أصول علم الاجتماع. (قام في خمسينيات القرن العشرين بوضع مسودة لكتاب لم يكتمل في حياته، ونشرت أبحاثه المجموعة (Collected Papers) في كتاب بعد وفاته.

لقد ثبت النمط الأساس لأفكار شوتز من خلال كتابه Sinnhafter Aufbau . فقد أثار الكتاب وعالج تشكل نظرية الصلة والروابط بين الحياة اليومية ومستويات الواقع التي تجاوزتها، وتحليل الأنشطة الموضوعية للعقل البشري، وكذلك دور الإشارات والرموز في سد الفجوة بين المستويات المختلفة للواقع ووظيفتها في الاتصال ما بين الذاتي. وبالإضافة إلى المناقشات المستمرة مع أصدقائه القدامى، خصوصاً مع إريك فوغلين، وفريتز ماخلوب، وآرون غورفيتش، فقد دعمت تلك التحليلات صداماته مع الواقعية الأمريكية. وكان لمناقشاته مع طلابه، خصوصاً مع موريس ناتانسون (محرر مذكرات ألفريد شوتز)، ومع علماء آخرين، منهم هارولد غارفينكل، أهميتها في مساعدته في ترتيب أفكاره التي كان يطرحها على الحضور.

كان شوتز قد خطط لكتابة كتابٍ آخر تكمل فيه نتائج تلك التحليلات الإضافية ما كان قد بدأه منذ ربع قرن. وتم وضع ملخص للمشروع، وأُعد المكان المقرر أن تشغله الأعمال الأخيرة للطبعات المبكرة والمخطوطات التي لم تطبع، كما تم تحديد المشكلات المتبقية. ولم يمنع شوتز من تنفيذ المشروع إلا المرض، وطلبت أرملته من توماس لوكمان، وهو أحد طلاب شوتز السابقين، الذي أصبح أستاذاً في كلية الدراسات العليا للمدرسة الحديثة، إكمال هذا المشروع. وقَبِل لوكمان العرض فكتب المجلَّدين (The Structures of the Life-World) باللغة الألمانية، وهي اللغة التي خطط شوتز الكتابة بها.

يمكن مشاهدة تأثير شوتز العميق في نظرية البنية الاجتماعية للواقع ، التي كتبها بيتر بيرغر، وهو تلميذ آخر لشوتز، وتوماس لوكمان. كما ظهر تأثيره أيضاً في نظرية توماس لوكمان، وفي أبحاثه عن ضروب الاتصال. وبطريقة مختلفة ظهر تأثير شوتز في علم الإثنوميثودولوجيا لغارفينكل،

وفي أحد فروعه وهو التحليل الخطابي. ومع ذلك، فمن المبكر جداً أن نسرد الأهمية المتواضعة لأعمال شوتز في كتاباته الأخرى، ليس في علم الاجتماع فحسب، ولكن أيضاً في العلوم الاجتماعية الأخرى والدراسات الإنسانية.

هنالك الكثير من دراسات شوتز العلمية، والتي كانت حافزاً مبكراً لإبرازها من قبل أرملته التي نشرت أبحاثه العلمية بعد وفاته وترجمتها إلى العديد من اللغات التي كتب بها شوتز. وبعد وفاة إلسي شوتز، تابعت إيفيلين شوتز لانغ ابنة شوتز هذا النشاط. كما توفر أرشيفات جامعة كونستانس للعلوم الاجتماعية، وأرشيف شوتز في جامعة واسيدا، فرصاً للبحث في كتاباته. وهناك أرشيف ثالث موجود في مكتبة بينيك في جامعة ييل التي تقع في مدينة نيوهافن في ولاية كونيكتيكت الأمريكية. كما يجري العمل في إخراج نسخة كاملة لكتاباته التي نشرت والتي لم تنشر، في دار طباعة الجامعة في كونستانس.

انظر أيضاً: جورج هربرت ميد ، ماكس شيلر ، ماكس فيبر.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Harold Garfinkel

أهم الأعمال:

Life Forms and Meaning Structure . Written 1924-7. London: Routledge & .Kegan Paul, 1972

The Phenomenology of the Social World . 1932. Evanston, IL: Northwest- .ern University Press, 1967

Reflections on the Problem of Relevance . Written 1947-59. Ed. Richard .Zaner. New Haven, CT; London: Yale University Press, 1970

Collected Papers I, The Problem of Social Reality . 1962. Ed. Maurice .Natanson. The Hague: Martinus Nijhoff, 1962

Collected Papers II, Studies in Social Theory . 1964. Ed. A. Brodersen. The .Hague: Martinus Nijhoff, 1964

Collected Papers III, Studies in Phenomenological Philosophy . 1966. Ed. .Ilse Schutz. The Hague: Martinus Nijhoff, 1966

Collected Papers IV . 1996. Ed. Helmut Wagner and George Psathas, with .F. Kersten. Dordrecht: Kluwer Academic Publishers, 1996

Structures of the Life- World, Volumes 1 and 2 . 1974 and 1989. With Tho- .mas Luckmann. Evanston, IL: Northwestern University Press

قراءات إضافية:

Michael Barber. The Participating Citizen: A Biography of Alfred Schutz . .Albany, NY: State University of New York Press, 2004

Peter Berger and Thomas Luckmann. 1966. The Social Construction of .Reality . Harmondsworth: Allen Lane, 1971

Maurice Natanson, ed. Phenomenology and Social Reality: Essays in .Memory of Alfred Schutz . The Hague: Martinus Nijhof, 1970

Helmut Wagner. Alfred Schutz: An Intellectual Biography . Chicago: .University of Chicago Press, 1983

ماكس شيلر (Max Scheler)

كان ماكس شيلر عالماً عظيماً رغماً عنه. فقد كانت الفلسفة شغفه، لكن بحثه الفلسفي دفعه إلى الاعتراف أن حقيقة المعرفة الفعلية التي كان ينشدها كانت خاضعة إلى السببية الاجتماعية، وأن مستقبل تلك المعرفة يعتمد على القدرة على الحد من آثار المواجهة بين الحقائق المثالية التي كان يخمّنها، وبين العوامل الحقيقية التي لم يستطع إهمالها وتوجيه هذه الآثار. وكان لتفكيره الإبداعي في علم الاجتماع أثر بالغ، ما أدى إلى انجذاب طلاب العلم نحو جهوده التي ساعدت على استحداث برنامج للبحث في علم الاجتماع الثقافي ـ وخصوصاً علم الاجتماع المعرفي ـ الذي كان محصوراً داخل إطار السياق الفلسفي الذي اقترحه مسبقاً. وفي حين يبقى مشروع شيلر الفلسفي مثيراً للاهتمام، فقد أُوجز إرثه السوسيولوجي تاريخياً من دون أي تفريط جدي في الجوهر.

ولد ماكس شيلر في العام 1874م، في مدينة ميونيخ، وتوفي في العام 1928م، عن عمر يناهز الرابعة والخمسين في مدينة فرانكفورت. وكانت حياته ومهنته غير تقليديتين بالنسبة إلى رجل أكاديمي. فقد تأثر كثيراً بالتغييرات السريعة للظروف التي كان يعيش في وسطها. ولد شيلر لأب لوثري مسيحي وأم يهودية أورثوذكسية، واعتنق الكاثوليكية في مراهقته، لكنه لم يقلع عن بحثه الروحاني غير الأورثوذكسي، وأساء إلى السلطات الكهنوتية من حين إلى آخر. درس شيلر الطب في ميونيخ وبرلين التي تلقى فيها دروساً في الفلسفة وعلم الاجتماع على يد فيلهلم ديلثي (Wilhelm Dilthy) وجورج سيميل. ووفقاً لحرية الحركة التي كانت ممنوحة إلى الطلاب الألمان، انتقل شيلر إلى جامعة جينا لنيل درجة الدكتوراه بإشراف الفيلسوف الألماني ردولف يوخن (Rudolf Euck-en) الحائز على جائزة نوبل في الآداب في العام 1908م. ثم عاد إلى جامعة ميونيخ التي أكمل فيها الدراسات المتقدمة التي أهلته لعقد فصول دراسية مدفوعة الأجر للطلاب. وخلال تلك الفترة، أغرق شيلر نفسه إلى حد ما في الأعمال الفلسفية لإدموند هوسيرل، مؤسس المدرسة الظاهراتية، كمدرس بدوام جزئي وعالم مستقل يعيش من دخل أسرته. وأثناء الحرب العالمية الأولى، كان شيلر ناشطاً قومياً حريصاً على دعم قضايا ألمانيا، وعلى التنديد بالشعارات القومية لأغلب أقرانه المروجين لها.

وفي العام 1919م، دُعي شيلر لتولي كرسي الفلسفة وعلم الاجتماع في الجامعة البلدية الجديدة لمدينة كولون. وكان كونراد أديناور (Konrad Adenauer) ، عمدة مدينة كولون، وفي وقت لاحق أول مستشار لجمهورية ألمانيا الاتحادية، قد قام بتحويل الأكاديمية التجارية المحلية إلى جامعة محلية، وتبنى إنشاء معهد لدراسة ما سماه بـ «القضية الاجتماعية»، يقوده نخبة ثلاثية لصالح أحزاب «ويمار» (Weimar) الثلاثة؛ السياسة الاجتماعية لحزبه الكاثوليكي المركزي، والسياسة الاقتصادية لليبراليين، والتشريعات الاجتماعية للديمقراطيين الاشتراكيين. عملياً، أُنشئ المعهد تحت قيادة شخصين اثنين: ليوبولد فون ويس (Leopold von Wiese) الاقتصادي المتخصص في الأسواق الاقتصادية وعالم الاجتماع الرسمي، المدعوم من قبل الليبراليين، والفيلسوف الأخلاقي شيلر مرشحاً عن الحزب الكاثوليكي. وفي هذا الصدد جذب شيلر نسبة ليست بالقليلة من الطلاب ممن لديهم اهتمامات كبيرة بالبحث الاجتماعي، أكثر من القضايا الفلسفية التي كانت تشغل بال شيلر.

يكمن الاهتمام في هذه التفاصيل المؤسساتية في مساهماتها في توضيح التطوير المستقل لرؤى شيلر في علم الاجتماع، انطلاقاً من تفاعله مع طلابه، مثل بعض اقتراحاتهم المقدمة بشأن الأسس التجريبية لأهمية مثل تلك القضايا المؤسساتية لعلم الاجتماع المعرفي لشيلر. وأدت المحاضرة، التي استحسنتها العامة، حول «العلم والهيكل الاجتماعي» والتي ألقاها شيلر في الاجتماع السنوي لعلماء الاجتماع الألمان في العام 1924م، إضافة إلى المنشورات اللاحقة التي أعدها وعدداً من طلابه، إلى اختيار عالم الاجتماع فرانز أوبنهايمر (Franz Oppenheimer) خليفة له، في كرسي جامعة فرانكفورت عام 1928م. غير أن شيلر توفي في العام 1928م قبل تولّيه المنصب، وحل مكانه كارل مانهايم (Karl Mannheim) الذي ورث كذلك سلسلة من الكتب تُعنَى بالصلة بين علم الاجتماع والفلسفة، وكان أول كتب تلك السلسلة كتاب الأيديولوجي واليوتوبيا (Ideology and Utopia) . ومع ذلك فمن الخطأ التعامل مع أشهر اثنين من مؤسسي علم الاجتماع المعرفي بأنهما يمثلان مراحل في سلسلة الخلافة. وكما هو الحال مع الرواد الكلاسيكيين، يُنظر إلى شيلر أنه مجرد سلف في المنصب.

ولأسباب نشأت من محاولاته الفلسفية لترسيخ وإثبات حقائق متعلقة بخلاص الإنسان والمعاني والقيم الجوهرية للأشياء، كرّس شيلر جهوداً عظيمة لفهم هياكل هذه الأشكال من المعرفة ومصادرها وآلياتها، ولا سيما العلوم التي تهدد بحرمان الأشكال الأكثر قيمة من الحيز والنشاط الاجتماعيين اللازمين لها. ولم تكن رؤيته قط أن العلوم المعرفية التي تحتفي بها الفلسفة الوضعية كانت من دون أساس كافٍ أو أنها كانت ذات أساس مزيف: كانت المسألة حول بروزها المهدد إلى درجة الاحتكار، والتي اعتبرها أحد مهام تطورات علم الاجتماع. والقضية في اعتراض شيلر على فرضية كونت الفلسفية الوضعية التي تقول بالتسلسل التاريخي العلمي للمراحل الثلاث من الدين والميتافيزيقيا والعلم. ووفقاً لشيلر، فإن الأوجه الثلاثة للمعرفة متاحة للجنس البشري في كل وقت وحين. وفي حال هيمنة إحداها، فإن ذلك يرجع إلى الظروف الاجتماعية التي يمكن تفهّمها أو مواجهتها في بعض الأحيان. ولا يمكن اعتبار الهيمنة حكماً سارياً للقانون التاريخي القضائي أو الطبيعي. وتتضح دلالة البحث الاجتماعي المتنوع، التي التفت إليها طلابه بفضل هذا التعريف الخاص بالمشكلة الفلسفية، في كثافة إحالات المعلومات المايكرو ـ سوسيولوجية في التوصيف المتحيز للعلوم التي قدمها في كتابه Die Wissensformen und die Gesellschaft في العام 1926م:

لا بد من أن يتبع علم الاجتماع المعرفي آثار القوانين وتواتر هذا الفيض من المعارف المنحدر من قمة المجتمع (أي نخبة المفكرين)، ويحدد طريقة توزيعه على المجموعات والطبقات المختلفة، إضافة إلى طرق تنظيم هذا التوزيع من قبل المجتمع عن طريق المعاهد لنشر المعرفة، مثل المدارس والصحف من جانب، وجزئياً من قبل العوائق التي تقف أمامه من جانب آخر، مثل الألغاز، والمؤشرات، والرقابة، وحظر أنواع معينة من المعارف بالنسبة إلى بعض الطوائف أو المقاطعات أو الطبقات.

وموضح في جانب آخر هو أمل شيلر في أن تواجَه سياسة منظمة الهيمنة الروحانية المدمرة للجنس البشري وذلك بالمحرك التكنولوجي وراء العلوم، الذي يجب أن يتمحور في جامعة أوروبية عابرة للحدود معفاة من القيود التجارية أو السياسية ـ القومية.

انظر أيضاً: جورج لوكاش، كارل مانهايم.

أهم الأعمال:

.The Nature of Sympathy. 1913. London: Routledge & Kegan Paul, 1970

.Ressentiment . 1915. New York: Free Press, 1961

Problems of a Sociology of Knowledge . 1926. London: Routledge & .Kegan Paul, 1980

إن الطبعات الألمانية الكاملة لدراسات شيلر السوسيولوجية والفلسفية موجودة في:

.Gesammelte Werke , 15 vols. Bonn: Bouvier Verlag, 1985

قراءات إضافية:

Manfred Frings. The Mind of Max Scheler . Milwaukee, WI: Marquette, .1997

Werner Stark. The Sociology of Knowledge . London: Routledge & Kegan .Paul, 1955

.John R. Staude. Max Scheler . New York: Free Press, 1967

أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci)

ولد غرامشي في مدينة أليس، في جزيرة سردينيا في العام 1891م. وكان والده موظفاً بمكتب السجلات بغيلارزا. وقد نشأ فقيراً، خصوصاً في الفترة التي قضاها والده في السجن بتهمة الاختلاس. وكان غرامشي مريضاً على الدوام ومنعزلاً في طفولته، وتضاعفت معاناته بسبب عاهة جسدية خلقية. واضطر وهو في سن الثانية عشر من عمر إلى ترك مدرسته. وبعد إطلاق سراح والده من السجن استأنف دراسته بسانتا لوسرجيا وكاليري. وتعرف غرامشي، بعد فوزه بمنحة دراسية بجامعة تورين في العام 1911م، إلى بالميرو توغلياتي (Palmiro Togliatti) الذي أصبح القائد الشيوعي السردينيي فيما بعد. وخلال انتخابات العام 1913 ـ التي أقيمت لأول مرة في سردينيا ـ أصبح غرامشي مقتنعاً أنه يمكن حل مشاكل تخلف سردينيا الحادة في إطار السياسات الاشتراكية لإيطاليا ككل. واحتفظ باهتمام نشط بسردينيا طوال حياته، وكتب مقالة كبرى حول «قضية الجنوب» (The Southern Question) في العام 1926م.

ومثل العديد من أقرانه في جامعة تورين، كان غرامشي متأثراً بشدة بالمثالية الليبرالية لبينيديتو كروسي (Benedetto Croce) الذي يعدُّه كثيرون «هيغل إيطاليا». وقد جعلته عداوته للفلسفة الوضعية ناقداً شديداً لمبادئ الماركسية الكارثية. وبحلول العام 1915م، كان يكتب بشكل منتظم عن قضايا ثقافية في صحيفة اشتراكية تسمى إيل غريدو دل بيبولو (Il Grido del populo) (صرخة الشعب)، و أفانتي (Avanti) (للأمام)، مشدداً على أهمية تثقيف العمال للثورة.

أصبح غرامشي من خلال عصيان استمر أربعة أيام في تورين في آب/أغسطس في العام 1917م، قيادياً في الحركة العمالية. ورحب بالثورة الروسية واصفاً إياها بالنمط الكروسيني (نسبة إلى كروس)، وأنها ثورة ضد رأس المال Das Kapital (كتاب لكارل ماركس). وفي أيار/مايو عام 1917م، تعاون مع كل من أنجلو تاسكا (Angelo Tasca) وأومبيرتو تراسيني (Umberto Ter-racini) وتوغلياتي لتأسيس صحيفة أسبوعية هي النظام الجديد (L'Ordine nuovo) كـ «لسان حال ثقافة الطبقة العمالية». وكما رأت الصحيفة، فقد كانت لجان المصنع في تورين السوفياتية

بالوراثة هي نواة دولة اشتراكية مستقبلية. واستجاب الآلاف إلى دعوة تأسيس مجالس عمالية بمنطقة تورين. وخلال السنوات الحمراء لعامي 1919 و1920، حدث إضراب عام، وتم احتلال مصانع عدة. وحاز نقد صحيفة النظام الجديد لسلبية الحزب الاشتراكي ووجوب إصلاحه استحسان القائد السوفياتي لينين. وعلى الرغم من أن غرامشي فضل العمل في الحزب الاشتراكي في الوقت الذى تزايدت فيه ردود الأفعال الفاشية، فقد تم تكوين حزب شيوعي منفصل في ليفورنو في العام 1921م.

أصبح غرامشي عضواً في اللجنة المركزية للحزب الجديد، وكان يرأس هذا الحزب أماديو بورديغا (Amadeo Bordiga) ، وهو شخصية قوية كان يؤمن بحكم النخبة، الأمر الذي أدى إلى تزايد صراعه مع الكومنترن الدولي الثالث. وأصبح غرامشي ممثلاً لحزبه في الكومنترن. وبينما كان يتم علاجه من كآبة شديدة في إحدى مصحات موسكو في العام 1922 م، قابل غرامشي زوجته المستقبلية، جوليا، التي أنجب منها طفلين فيما بعد.

في تشرين الأول/أكتوبر من العام 1922م، استولى موسوليني على السلطة. وتم القبض على رئيس الحزب الشيوعي، فوجد غرامشي نفسه رئيساً للحزب. وانتُخب نائباً في البرلمان في العام 1924م. وفي العام 1926م، فاز بدعم واسع من الأعضاء المشاركين في المؤتمر الثالث للحزب، الذي عُقد في ليونز، لاستراتيجيته اللينينية لإقامة تحالف مع الفلاحين في ظل هيمنة عمالية. وفي خطابه الوحيد أمام مجلس النواب، حلل غرامشي السمات المتميزة والمدمرة للفكر الفاشي، ووصفه موسوليني بأنه «أحدب من سردينيا» يتمتع «بعقل سلطوي لا جدال فيه». وأُلقي القبض عليه في العام 1926م، وتمت محاكمته بعد ذلك بسنتين. وفي المحاكمة أعلن المدعي العام أنه «يجب وقف هذا العقل من العمل لمدة عشرين عاماً». وأمضى غرامشي السنوات الخمس الأولى منها داخل سجن قاسٍ في تورين. وكان قادراً على البدء بكتابة عمله الشهير مذكرات السجن (Prison Note-books) في العام 1929م. غير أنه في أواسط العام 1932م، بدأت صحته بالتدهور بسرعة. فقد كان غرامشي يعاني من أمراض عديدة، من بينها مرض السل وتصلب الشرايين. وتحت ضغوط حملات عالمية لإطلاق سراحه، نُقل إلى مستشفى سجن في فورميا. وبحلول آب/أغسطس من العام

1935م، كان اشتد به المرض لدرجة لم يقوَ على القيام بشيء من أعماله، ونُقل إلى مصحة في روما، وتوفي في نيسان/أبريل عام 1937م إثر نزيف دماغي.

باستثناء بعض فترات السعادة القليلة التى عاشها غرامشي مع جوليا قبل سجنه، فقد كانت علاقتهما مليئة بالصعاب؛ إذ لم تكن جوليا في صحة عقلية تامة. وبعد دخول غرامشي السجن انقطع التواصل بينهما، وأصبحت تاتيانا، أخت جوليا، تهتم برعاية غرامشي خلال سني سجنه المؤلمة بتوفير بعض الصحبة له. وبعد وفاته قامت تاتيانا بتهريب مفكراته الـ 33 إلى خارج إيطاليا، ونُقلت إلى موسكو داخل حقيبة دبلوماسية.

مع أن تلك المذكرات كانت تعد مسودات لأفكاره، إلا أنها تمثل بلا شك أعظم أعمال غرامشي. فهي تحوي رؤى ثاقبة لتاريخ إيطاليا، والفلسفة الماركسية، والاستراتيجيات السياسية، والآداب، واللسانيات، والمسرح. ويحتل محور المذكرات انهماك غرامشي الشديد في تطوير الأفكار الأساسية لحياة الناس اليومية. ولذا تحرز القضية الشيوعية تقدماً لا يقاوم. وعلى خلاف مبدإ حكم النخبة لبورديا‌غو، والسياسة الطائفية التعصبية للكومنترن ما بين عام 1929 و1934م، أكد غرامشي أهمية العوامل الفكرية والأخلاقية في العملية السياسية؛ فقد قدم مفهومه عن «السيطرة» بإنشاء مفهوم عام جذري جديد يرى فيه الناس أن الأفكار الاشتراكية ذات صلة بحياتهم اليومية، وترتبط عضوياً بالحكمة التقليدية الشعبية. وقد جادل غرامشي أن كل شخص هو صاحب نظرية، وأنه لا بد من توضيح العلاقة بين السياسة، وبين ما يتداوله الناس من أفكار الحياة اليومية.

وفي أواخر ستينيات القرن العشرين التفت الطلاب الراديكاليون إلى حركة مجلس تورين التي أنشأها غرامشي. وفي سبعينيات القرن، ولأسباب انتخابية، ابتعد الاشتراكيون في الغرب عن النظريات الماركسية ودكتاتورية الطبقة العاملة، ورأوا في مفهوم غرامشي عن السيطرة موازنةً للتشديد اللينيني على الإكراه السياسي. وتوج غرامشي «والد الاشتراكية الأوروبية» ـ فهو الماركسي الذي أقام توافقاً بين الإصلاح والثورة.

ومع ذلك، فقد أصبح تشديد غرامشي على القيادة «الطبقية» مثار جدل متزايد؛ إذ جادل المعلقون أنه لا بد من أخذ الهويات الأخرى ـ المرتبطة بالدين والعرق والجنسية وغيرها ـ في الاعتبار،

وأن مناقشة غرامشي لاستراتيجية قائمة على الموافقة المتبادلة الناجحة تنعزل عن جذورها في الطبقة والحرب. ومع ذلك ظل مفهوم السيطرة مؤثراً، تماماً مثل بغض غرامشي للحتمية الآلية التي تقوض مركزية الإرادة والسلطة. وتعتبر فكرة، أن للحكم السياسي بعداً ثقافياً مهماً أمراً صحيحاً وبعيد النظر.

إن اهتمام غرامشي بأسلافه من عصر النهضة أمثال مكيافيللي، ما زال يبهر المعلقين حتى الآن. فقد جادل مكيافيللي أن هناك «وسيلتين للحرب» ـ القانون والقوة ـ واستمر تشديد غرامشي على وجود عاملين في العملية السياسية كونه وثيق الصلة بالموضوع، كما استمرت نظرة غرامشي الواسعة للدولة، والتي ترى السمة السياسية للعلاقات الاجتماعية.

انظر أيضاً: كارل ماركس، جورج لوكاش.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Louis Althusser, .Paul Gilroy, Stuart Hall

أهم الأعمال:

Selections from Political Writings 1910-1920 . London: Lawrence and .Wishart, 1977

Selections from Political Writings 1921-1926 . London: Lawrence and .Wishart, 1978

Selections from Prison Notebooks . 1929-35. London: Lawrence and Wis- .hart, 1971

Selections from Cultural Writings . Various dates. London: Lawrence and .Wishart, 1985

قراءات إضافية:

Perry Anderson. The Antinomies of Antonio Gramsci. New Lift Review . .November-January, 1976-7

Giuseppe Fiori. Antonio Gramsci: Life of a Revolutionary . London: New .Left Books, 1970

James Martin. Gramsci's Political Analysis: A Critical Introduction . Bas- .ingstoke: Macmillan, 1998

Paolo Spriano. Antonio Gramsci and the Party: The Prison Years . London: .Lawrence and Wishart, 1979

لودفيغ غومبلوفيتش (Ludwig Gumplowicz)

ولد لودفيغ غومبلوفيتش من عائلة يهودية في بولندا في العام 1838م. وكانت بلاده قد ضُمت من قبل مملكة النمسا ـ المجر، فأمضى معظم حياته العملية في النمسا. درس لودفيغ القانون في جامعة كراكو، وعمل في بداية حياته محامياً، ثم عين مدرساً للعلوم السياسية والإدارة في جامعة غراتز في العام 1875م، حيث قضى بقية حياته المهنية. وأكسبه عيشه في مجتمع متعدد الجنسيات والأعراف وعياً ومعرفة شديدين بالتقسيم العرقي والصراع كعاملين أساسيين في تطوير المجتمع. وقد اتخذ من هذا حجر أساس لبناء نظريته الاجتماعية العامة التي ضمنها كتابه Outline of Sociology ، واستخدم الإطار الأساسي لبناء نظرية تكوّن الدولة والعسكرتارية. وبحلول الوقت الذي أنهى فيه غومبلوفيتش كتابه الأخير، شُخّصت إصابته بمرض السرطان، فقرر الانتحار هو وزوجته في العام 1909م، أي في العام نفسه الذي نشر فيه هذا الكتاب.

كان مفهوم غومبلوفيتش عن علم الاجتماع كونتياً بشكل كبير؛ إذ كان يرى نمواً تدريجياً من التداخل بين الظواهر العضوية وغير العضوية والنفسية والاجتماعية، يمكن دراسة كل واحدة منها طبقاً لقوانينها المتميزة. فالقوانين النفسية لها أسسها من حيث دراسة العقل وتعبيرات الروح والنفس، بينما تبرز القوانين الاجتماعية، في الجانب الآخر، من خلال تجمع الأفراد. وقد بدأ غومبلوفيتش كتابه بعرض المجموعات الاجتماعية المتنوعة التي تعد أساس الظاهرة الاجتماعية، وتكوّن عناصر الحياة الاجتماعية. وذكر غومبلوفيتش أن المجموعات البدائية هي أهم وأبسط الصور الأساسية للحياة البشرية؛ إذ تتكون المجموعة من مجموعات صغيرة تعتمد على حياة الجمع والصيد. وباتباعه حجة جوهان باخوفن (Johann Bachofen) عن «حق الأم»، فقد اعتبر غومبلوفيتش، شأنه شأن إنغلز، أن تلك المجموعات كانت نتاجاً شهوانياً غير شرعي، وأنه لم يكن بينها علاقات «أسرية» أو أي صلات قرابة مستقرة، ما عدا الرابط بين الأم وطفلها.

تجمعت تلك المجموعات (تركّبت كما يطلق عليها سبنسر) في أشكال أكبر، مثل القبائل والمجتمعات والدول والشعوب. وكان العامل المؤثر في عملية التجمع هو التواصل بين المجموعات الاجتماعية

والتأثيرات المتبادلة التالية فيما بينها. وبالنسبة إلى غومبلوفيتش فإن التواصل والتأثير نادراً ما يكون وديّاً وسلمياً. فالتواصل يتطلب بشكل ثابت محاولة إحدى المجموعات التواصل مع مجموعة أخرى، وسيؤدي اتحادهما إلى النزاع، والاحتلال والاستغلال وبناء طبقات مجتمعات أكثر تعقيداً وتداخلاً. وكان التواصل والنزاع بين المجموعات يحدثان عن طريق أخذ النساء، وهو ما يراه غومبلوفيتش تطوراً من نظام الأمومية المبكر إلى الأنماط الأكثر تعقيداً للهيمنة الأبوية. فقد أصبحت العائلة الأبوية الوحدة الأساسية لتملك الثروات، وأصبحت السلطة العامل الأساس الذي نشأت على أساسه علاقات الملكية فيما يتعلق بالأراضي والبضائع المتنقلة. وكان نشوء أشكال الطبقات أساساً في تشكل الدولة.

قاد هذا غومبلوفيتش إلى نموذج النزاع للتغير الاجتماعي. فالدول انتظمت حول سيطرة الأقلية على الأغلبية، بداية بغزو سكان كثيري العدد من قبل سكان أقل عدداً وأفضل تنظيماً. ووجوب سيطرة أقليات صغيرة على أشكال الدولة المعقدة، وهو ما يطلق عليه كل من جيتانو موسكا (Gaetano Mosca) وفيلفريدو باريتو مصطلح «النخبة». والدافع وراء تشكل الدولة هو دافع اقتصادي بحت؛ إذ إن الأقليات المسيطرة على المجتمعات المركبة تسعى دوماً إلى اقامة وتوسيع النظام الصناعي الذي يعطي قدراً أكبر من الثروات المادية. وأما الصيد والجمع فقد أديا إلى الزراعة التي أصبحت معقدة بشكل متزايد بفضل التطور التقني لقوى الإنتاج. وبناء على هذا الأساس، فقد رأى غومبلوفيتش تقوية التقسيم الطبقي كعلاقات بين الطبقات الاجتماعية، وتطوير مجتمعات الدولة إلى تركيب معقد بوجود مجموعة من الطبقة المتوسطة بين الطبقة العليا «السادة»، والطبقة السفلى «الرعايا».

جادل غومبلوفيتش أن السكان ـ البشر الأوائل ـ كانوا متنوعين عرقياً؛ إذ إنهم نتجوا عن مجموعات مهاجرة متباينة ذات سمات بيولوجية متميزة. وأنتجت الاحتكاكات والنزاعات التالية سكاناً مختلطين عرقياً، ورسخت أشكالاً من الغزو العرقي ومن الطبقات العرقية. كانت النظرية العرقية شائعة في الفكر الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت مرتبطة غالباً بنظرية داروين في النشوء والارتقاء، من خلال التغيير والانتقاء الطبيعي. وتعد أفكار غومبلوفيتش صدى لهذه النظرية وامتداداً لها. وعلى الرغم من أن اهتمامه كان منصباً على التميز والتنوع العرقي للشعوب، فقد رأى

أن تلك الشعوب هي أساس لكثير من الأعراق البيولوجية غير الموجودة حالياً بشكل كبير. واستخدم غومبلوفيتش مصطلح race (عرق) بينما يستخدم كثيرون الآن مصطلح ethnicity (عرق). وقد أوضح غومبلوفيتش أن الأعراق المعاصرة إنما هي نتاج التفاعل بين السمات البيولوجية والظروف الاجتماعية. وقد أدى الاحتكاك والاختلاط الاجتماعي إلى تنوع الشعوب العرقي في عصره. وقدمت من إمبراطورية النمسا ـ والمجر نموذجاً لهذا التنوع العرقي؛ إذ كان يتألف شعباهما من الألمان والبولنديين والتشيك واليهود والمجريين والسلافيين وآخرين، انخرطوا في كيان سياسي واحد، تولت مجموعة عرقية واحدة الحكم؛ هي الألمانية ـ النمساوية. وضمن التفاضل العرقي، والتقسيم الطبقي الاجتماعي والحكم السياسي بقاء النزاعات الاجتماعية، وأصبحت أكثر تنظيماً وانضباطاً. وتنبأ كتابه الأخير حول النزاعات العرقية بنشوب الحرب العالمية بين الدول الأوروبية الكبرى.

وعلى الرغم من أنه نادراً ما نسمع اسم غومبلوفيتش اليوم، فإن لأفكاره تأثيراً كبيراً في النظرية الاجتماعية، وبخاصة بين هؤلاء الذين يعملون في مجال علم الاجتماع السياسي والتاريخي. وقد تبنى ابن بلده ومعاصره غوستاف راتزنهوفر (Gustav Ratzenhofer) ، الكثير من أفكاره عن النزاع العرقي، وضمنها في نظرية «المبادرة الفردية» الخاصة به. وبسبب تأثير راتزنهوفر في ألبيون سمول جرى تبني هذه الأفكار في أعمال علماء اجتماع شيكاغو كوسيلة لفهم النزاعات العرقية والتنوع الثقافي. كما شكلت هذه الأفكار جوهر المنهجية التعددية المؤثرة في السياسة. كما كانت أفكار غومبلوفيتش عن الأقليات الحاكمة والدول محورية في أعمال موسكا والنخبة من أصحاب النظريات، وشكلت كذلك تطور نظريات تشكل الدولة كما ضمنها كتاب آخرون أمثال فرانز أوبنهايمر، وشرحت بشكل أكبر حديثاً في «نظرية النزاع» لرالف داهرندورف (Ralf Dahrendorf) والأبحاث المقارنة للسلطة التي قام بها مايكل مان (Michael Mann) .

انظر أيضاً: جيتانو موسكا ، ألبيون سمول.

أهم الأعمال:

Outlines of Sociology . 1885. Philadelphia: American Academy of Political and Social Science, 1899. 2 nd ed. of 1905 published New Brunswick, NJ: .Transaction, 1980

.Geschichte der Staatstheorien . Innsbruck: Wagner, 1905

.Der Rassenkampf . Innsbruck: Wagner, 1909

قراءات إضافية:

James A. Aho. German Realpolitik and American Sociology . Cranbury, .NJ: Associated University Presses, 1975

سيغموند فرويد (Sigmund Freud)

ولد سيغموند فرويد في العام 1856م، في مدينة مورافيان في مقاطعة فرايبرغ ـ والتي تعرف الآن باسم بيبور ـ في جمهورية التشيك. وعندما كان في الثالثة من عمره، انتقلت عائلته إلى فيينا؛ تلك المدينة الزاخمة بالفكر والأنشطة الثقافية، حيث مكث هناك حتى جلبه أصدقاؤه إلى لندن عام 1930م، هرباً من الاضطهاد النازي. كان فرويد في الأصل طبيب أمراض عصبية، غير أنه كان أول من ابتدع علم التحليل النفسي، وأصبح أحد أهم مفكري العصر الحديث. وقد جاء نشر المجلدات الـ 24 من الطبعة المعيارية (Standard Edition) حول علم النفس عقب مجموعة مهمة من الأعمال غير ذات صلة بالتحليل النفسي، سواء أعماله البحثية في علم التشريح العصبي، بما في ذلك النظام العصبي للأجنة، وتاريخ النظام العصبي، وكذلك عمله التحليلي كخبير في الأمراض العصبية للأطفال؛ الأمر الذي دفعه إلى نشر أعماله حول شلل الأطفال وفقدانهم القدرة على الكلام.

ويرتكز التحليل النفسي لفرويد على ثلاثة مستويات: العيادي، والنظري، والميثودولوجي. وتضمنت كتاباته العيادية دراسات عن الهستيريا (Studies on Hysteria) (مع جوزيف بروير) (1893 ـ 1895)، وتأويل الأحلام (1900 Intrepretation of Dreams)م، والعديد من دراسات الحالة المكثفة، والتي وضع على أساسها أفكاره ونماذجه عن النفس. وقد أصبح كثير من هذه المفاهيم التى وضعها فرويد مألوفة مثل: اللاوعي، والكبت، والتصور، وزلات اللسان، والأنا، والهو، والأنا العليا. وقد صنّف فرويد أفكاره في كتاباته النظرية في العام 1915م، وتضمنت «علم ما وراء النفسي» (Metapsychology) ، وخاصة «اللاوعي» (The Unconscious) ، و«الكبت» (Repres-sion) ، و«الغرائز وتقلباتها» (Instincts and Their Vicissitudes) .

وقام فكر فرويد الميثودولوجي على مفهوم التحول كوسيلة لدراسة اللاوعي؛ إذ يشير التحول إلى نزعة تلقائية نحو استبدال أحد الأشخاص ممن نحبهم أو نكرههم بشخص آخر؛ فنرى استبدال الأم أو الأب بالزوج أو الزوجة أو المحلل النفسي، إذ «نُحيل» شخص ما إلى نموذج الأب أو الأم (التحميل

الخيالي Fantasy Laden). ويمثل اللاوعي مخزناً لتلك العلاقات الماضية، حيث تعمل خبرات التحويل كإشارات للمحلل النفسي نحو هذه العلاقات.

ولم يكن اللاوعي ـ الذى جعل منه فرويد هدفاً للتحقق المنهجي ـ هو «اللاوعي الوصفي» (المنبثق عن الإدراك)، وإنما «اللاوعي الديناميكي» (ما يُحفَظ في اللاوعي بقوة الكبت). ولدينا هنا بعض المبادىء المختلفة: لا وقت، ولا تناقض، ودمج الأفكار (تكثيفها) أو التحول فيما بينها (الإبدال). ويميز فرويد هذه «العملية الأولية» للاوعي عن «العملية الثانوية» للتفكير الواعي، وبحث في تفسير الأحلام وأعراض الخلل العصبي بالتحليل النفسي لتلك النواتج العقلية الغريبة، الصادرة عن اللاوعي.

فيما تطور إدراكه لعملية التحول، وضع فرويد خارطة للنفس، ووصف وظائفها؛ فعلاقة التحول التي قد تساعد المحلل على فهم العديد من الشخصيات المختلفة، أو حتى جوانبها، مثل النقد، والتعليم، والدعم، كشفت أن النفس مجتمع من شخصيات داخلية في علاقات مختلفة تماماً عن ـ وعادة ما تكون أكثر تطرفاً من ـ الشخصيات الخارجية؛ مثل الوالدين، اللذين يبدو أنهما يستندان إليهما، وفي صراع مع بعضهم بعضاً. وقد قسم فرويد النفس إلى ثلاثة مستويات فيما يُعرف بنموذجه البنائي الشهير، المتألف من الهو (الحافز)، والأنا (مركز الإدراك والإرادة)، والأنا العليا (المثالية والسلطة كالأبوين).

كان فرويد مفكراً اجتماعياً ـ وهو أمر يكاد يكون مختفياً خلف إنجازاته العيادية الوفيرة. وقد اتخذت تلك القوى الداخلية شكل علاقات خارجية، حتى يكون لها أيضاً بناءً داخلياً. وعلى الرغم من أن أكثر عملياته الداخلية ثراءً تجلّت في دراساته للحالة، وتبرز أكثر الصلات مباشرةً فيما بين اكتشافاته العيادية، ونموذجه للنفس، ونظريته في التنظيم الاجتماعي في كتابه علم نفس للمجموعة وتحليل الأنا (Group Psychology and the Analysis of the Ego) وفي كتاب قلق في الحضارة (Civiliasation and Its Discontent) ؛ ففي الكتاب الأول تشاهد المجموعات الاجتماعية تتشكل على الحب والاحترام للقائد، وأما في الكتاب الثاني، فيُشاهَد المجتمع كأنه يتشكل من الصراع بين الحب والكراهية.

وعلى نحو جزئي تُستمد سلطة القائد ـ كالوالدين ـ لدى الأطفال من خبرتهم الفعلية مع آبائهم، وبذلك من امتداد الحياة الطفولية إلى مرحلة البلوغ. إلا أنه ينشأ كذلك عن الجذور الداخلية في الأنا العليا (مثالية الذات)، إذ تترسب في الأنا العليا عقدة الأوديب؛ الصراع بين الحب المتمثل عادة في الوالد المغاير في الجنس (البنت لأبيها أو الولد لأمه)، والخوف المتمثل عادة في الوالد من الجنس نفسه. إن الأنا المثالية هي فضلة دائمة الشوق إلى نعيم الطفولة المبكرة. ويتم إخضاع العقدة وإبقاؤها داخلياً بالأنا العليا والاشتياق لمثالية الأنا كما ينتج النعيم المفقودة نتيجة للقوة المفرطة.

على الرغم من أن العلاقة بين الأنا والأنا العليا متسلطة، ومثيرة للتبجيل الكلي للأنا، ولكنها محبة كذلك (لبيدياً)، فالأنا تحب الأنا العليا كما يحب الطفل والديه، تشتهي الحب في المقابل وتتوق إلى العودة إلى نعيم الطفولة المبكرة. وكذلك تتشكل جماعات المجتمع من الرابطة العاطفية نفسها. فكل شخص يستثمر القائد في أناه/أناها العليا، مشكّلاً بذلك الأنا العليا الجماعية. وفي الوقت نفسه مع وجود أنا عليا مشتركة يتماهى الأفراد مع بعضهم بعضاً في أناهم العليا، مشكّلين اللصوق للمجموعة الاجتماعية.

إن المجتمع مبني من تمويهات الأهداف الجنسية من التعبير المباشر (التسامي) الذي تفرضه الأنا العليا إلى جميع الترتيبات والسعي التي نسميها الحضارة. ولكن هناك تناقض في قلب المجتمع، لأن الكبت والتسامي للأهداف الجنسية يخلقان مجتمعاً ويقوضان جذوره الجنسية. وتتقوض كذلك الروابط الاجتماعية أيضاً بالعدوان. ويستثار العدوان إلى حد ما بإحباطات الكبت والتسامي في الدوافع الليبيدية (ما وراء مبدإ السعادة).

تستحوذ الأنا العليا على العدوان، وتحرفه عن المواضيع الخارجية، وتعيده إلى الأنا كأداة للضمير. ولكن هنا في هذه الحالة، كما في حالة الليبيدو وكبته، هنالك تناقض متأصل في في المجتمع؛ إذ يؤدي كبت العدوان من قبل الأنا العليا إلى مزيد من العدوان من قبل الأنا حيث ينبذ لذة التعبير عن غريزة العدوان. إن صراع القوى الحقيقي، في الفرد وفي المجتمع، محوري في فكر فرويد. ففي المجتمع، أشار فرويد إلى حالة تعسة من الضيق، أو الانزعاج، أو الفقر النفسي أو البؤس.

إن عمليات اللاوعي تستمر كعالم داخلي يؤثر في الواقع الخارجي كما يحدث في عملية التحويل. إنها تولّد حياة اجتماعية، وتقوضها في الوقت نفسه. وربما يكون فرويد متشائماً بشأن فرص التحسن الاجتماعي، ولكنه من الأفضل رؤيته رجلاً واقعياً معارضاً بشدة للوهم. فعلى سبيل المثال لم يكن فرويد مقتنعاً بالأيديولوجيا الشيوعية يمكن تعديل سمتها بإلغاء الحقيقة الخارجية للملكية الخاصة. فيما الواقع العدواني للمحفز الداخلي للسيطرة على الآخرين سينتقل ببساطة من الملكيات إلى السيطرة الجنسية على المرأة.

يمكن وصف السياق الفكري والثقافي عند فرويد، مثل تفكيره الشخصي، بالدورة الذاتية، كونه يمثل أساس المعرفة. وقد جادل رواد زمانه أمثال ولهيلم ديلثي، وإيدموند هيسرل، وإرنست ماك، وآرثر شنتسلر، بطريقة مماثلة من أجل وضع أسس جديدة للمعرفة في الفيزياء، والفلسفة، والعلوم الإنسانية، والآداب. فالذاتية لم تكن تعني ملاحظة ذاتية الإحساس أو مشوهة للعالم من قبل «أنا» منفصلة فردية، لكنها عملية متكاملة للانخراط العاطفي. فعملية التحول كانت عبارة عن ممارسة العلاقات. لقد بين فرويد الدورة الذاتية، وأضاف إليها الكثير، ممّا دعا الشاعر أودين إلى القول إن فرويد أصبح «مناخاً شاملاً للرأي».

انظر أيضاً: ثيودور أدورنو ، هربرت ماركوس.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists, Gilles Deleuze, Melanie Klein.

أهم الأعمال:

Studies on Hysteria . With Josef Breuer. In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud , vol. 2. London: The Hogarth Press, 1895.

The Interpretation of Dreams . In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud , vols. 4-5. London: The Hogarth .Press, 1900

The Psychopathology of Everyday Life . In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud , vol. 6. London: The .Hogarth Press, 1901

Jokes and their Relation to the Unconscious . In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud , vol. 8. London: The .Hogarth Press, 1905

Totem and Taboo . In The Standard Edition of the Complete Psychological .Works of Sigmund Freud , vol. 13. London: The Hogarth Press, 1912-13

Introductory Lectures on Psycho-Analysis . In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud , vols. 15-16. London: .The Hogarth Press, 1916-17

Beyond and Pleasure Principle . In The Standard Edition of the Complete Complete Psychological Works of Sigmund Freud , vol. 18. London: The .Hogarth Press, 1920

Group Psychology and the Analysis of the Ego . In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud , vol. 18. London: .The Hogarth Press, 1921

The Ego and the Id . In The Standard Edition of the Complete Psychologic-
.al Works of Sigmund Freud , vol. 19. London: The Hogarth Press, 1923

The Future of an Illusion . In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud , vol. 21. London: The Hogarth Press, .1927

Civilization and its Discontents . In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud , vol. 21. London: The Hogarth .Press, 1930

كما قام بيتر غاي بتجميع عدة كتابات لفرويد وحررها وقدمها في كتاب بعنوان:

.The Freud Reader . New York: Norton; London: Vintage

قراءات إضافية:

Ian Craib. Psychoanalysis and Social Theory . Hemel Hempstead: Har-
.vester Wheatsheaf, 1989

.Hannah S. Decker. Freud, Dora and Vienna . New York: Free Press, 1991

Anthony Elliott. Social Theory Since Freud: Traversing Social Imaginaries .. London: Routledge, 2004

Karl Figlio. Psychoanalysis, Science and Masculinity . London: Whurr, .2000

.Peter Gay. Freud: A Life Time . London: Dent, 1988

Ernest Jones. The Life and Work of Sigmund Freud . 3 vols. New York: .Basic Books, 1953-7

Howard Kaye. Was Freud a Medical Scientist or a Social Theorist? The .Mysterious Development of the Hero. Sociological Theory , 21, 2003

Paul Roazen. Freud: Political and Social Thought . New York: A. Knopf, .1968-70

Carl Schorske. Fin-de-Siècle Vienna: Politics and Culture . New York: .Knopf, 1980

ماكس فيبر (Max Weber)

هو أحد أعظم مفكري القرن العشرين، وهو يتمتع بإدراك العالم الباحث الحقيقي لعمليات المقارنة التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وكان فيبر أحد أكثر علماء الاجتماع تأثيراً ممن عرفهم العالم. وظهر فهم جديد لفيبر منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين، يشق طريقه عبر الأستار التي نسجتها السوسيولوجيا الأكاديمية للوصول إلى فيبر التاريخي، ولإعادة صياغة علم اجتماع ذي صلة وثيقة بأعمال فيبر الفعلية وأفكاره. ونظراً إلى ضخامة نتاج فيبر، فإن على أفضل المفسرين المعنيين، تحديد نقطة تركيزهم في أي وقت. إجمالاً، لا يمكن فصل اعتبار فيبر كأحد كبار علماء الاجتماع عن اعتبار مدى تقبل الناس له، والاستفادة منه بشتى الطرق ضمن هذا العلم.

ولد ماكس فيبر في مدينة إيرفورت في ألمانيا في العام 1864م، وهو ابن سياسي وموظف مدني. درس فيبر القانون في جامعة هايدلبرغ، وواصل دراسته في التاريخ فيما كان يمارس المحاماة. وحاز درجة الدكتوراه في تاريخ القانون في العام 1889م، وأصبح أستاذاً للاقتصاد في جامعة فرايبورغ في العام 1894م، وانتقل في العام 1897 إلى جامعة هايدلبرغ. وقد عانى فيبر فترة طويلة من الاكتئاب، واستقال من منصبه في الجامعة في العام 1903م. وأتاح له ذلك فرصة للتفرغ التام لعمل أبحاثه والبدء في أهم دراساته. كما حافظ أيضاً على اهتمامه الوثيق بالحركات الفنية والثقافية، وعلى وجه الخصوص، فن ماكس كلينغر (Max Klinger) وستيفان جورج سيركل (Stefan George Circle) ، والتجارب الثقافية المضادة في مدينة أسكونا. وعمل فيبر كذلك عن كثب مع علماء اجتماع آخرين في الهيئات المهنية، وتنهمك بنشاط في جمعية علم الاجتماع الألمانية المنشأة حديثاً في العام 1909م. وكان أيضاً نشطاً سياسياً، وكان من المفترض أن يصبح أحد أفراد طاقم التفاوض الألماني في معاهدة فرساي عقب الحرب العالمية الأولى، وأحد أعضاء لجنة صياغة دستور جمهورية فايمر. وفي العام 1918، عاد فيبر إلى التدريس الجامعي، بداية في جامعة فيينا، ثم في جامعة ميونيخ، حيث رأس قسم الاجتماع فيها. وتوفي فيبر في العام 1920م.

يعد البحث عن وحدة موضوعية أو مجموعة مبادئ تنظيمية تمسك بعمله أمراً صعباً، وقد يكون وهماً، ولكن ذلك كان مركز اهتمام دراسات فيبر المعاصرة، التي استلزمت العمل عن كثب مع النصوص. وتحدد نوعية الوحدة الموضوعية التي من المفترض تناولها، وكذلك النصوص التي من المفترض أن توجد بها، «الصورة» التي يروِّج بها فيبر، وكيف يمكن تركيب «علم اجتماع فيبر» من قبلها. فلم يعد من المقبول أن تُفهم أعمال فيبر كـ «حوار مع شبح ماركس»، وذلك لسبب واحد، هو أن مثل هذا التشديد يهمل أهمية نيتشه. ولسنوات عديدة كان كتاب الاقتصاد والمجتمع (Economy and Society) يعد أهم أعماله، غير أن فريدريش تينبروخ (Friedrich Ten-bruch) أكد أخيراً أنه من المفترض اعتبار سلسلة «الأخلاق الاقتصادية لديانات العالم» (The Economic Ethics of the World Religions) - والتي تبحث في أخلاقيات البروتستانتية والأديان في الهند والصين واليهودية القديمة - أنها أكثر محوريةً بالنسبة إلى موضوعه فك السحر عن العالم. بينما يرى بعض العلماء اهتماماً طويل الأمد لفيبر ببروز الرأسمالية الغربية، ويفضلون عملاً متأخراً جداً مثل كتاب تاريخ الاقتصاد العام (General Economic History) الذي يظهر اهتماماً مهيمناً ببروز العقلانية الغربية، أو أنهم يجدون الدليل في «مقدمة المؤلف» لفيبر على سوسيولوجيا الدين الخاصة به. وعلى الرغم من ذلك، يجد بعضهم الآخر الوحدة في شخصية فيبر، ويظهر ذلك من خلال آرائه الميثودولوجية في العلوم الثقافية ومقالاته عن «العلم بوصفه مهنة» و«السياسة بوصفها مهنة». وفي الآونة الأخيرة أكد فيلهلم هينيس (Wilhelm Hennis) أن القضية الرئيسة لفيبر كانت دائماً البحث عن أنواع البشر التي تتكون في العديد من التجمعات الاجتماعية، والمؤسسات، والأنظمة وكيف تعرب عن نفسها في السلوكيات الحياتية.

إن البحث في الوحدة الموضوعية رد فعل لاعتماد فيبر السوسيولوجي كمؤسس لسلسلة من العلوم الفرعية غير المرتبطة بطريقة أو بأخرى. وربما تجد علاقة فيبر بالعديد من العلوم الفرعية في علم الاجتماع مرساتها في هيكل ومحتوى كتاب الاقتصاد والمجتمع . ومع ذلك، فقد كان ذلك تاريخاً نصياً معقداً، توفي فيبر قبل أن يكمله. ويمكن تقسيم النص إلى جزأين: الجزء الأول، وهو الذي كُتب في الفترة من العام 1910م حتى العام 1914م، ومن المرجح أنه لم تتم مراجعته، والجزء الثاني، وهو الذي كُتب في الفترة من عام 1918م حتى عام 1920م، والذي لم يكتمل بسبب وفاة فيبر. وبناءً عليه، فهناك درجة من التداخل بين الجزأين، فتُطَوَرْ مناقشة الفئات الأساسية للتحليل الاجتماعي في

الجزء الأول ـ حيث التعريف الشهير لعلم الاجتماع كما جاء في دراسة العمل الاجتماعي ـ تعابير مفهومية لم تظهر في الجزء الثاني. ويعكس تأثير فيبر التفاضلي في العديد من العلوم الفرعية لعلم الاجتماع الأمريكي والبريطاني، تاريخه في النشر؛ إذ تُرجم الجزء الأول في العام 1947م بعنوان نظرية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي (The Theory of Social and Economic Organ-isation) ، في حين أعطت ترجمات أقسام المدينة، والبيروقراطية، وعلم الاجتماع القانوني، وعلم الاجتماع الديني، انطباعاً عن انفصال مشاريع فيبر كل على حدة. ولم تظهر الترجمة الكاملة إلا في العام 1968م فقط. ولم تجرِ إعادة تقييم مساهمات فيبر في فهم علم الاجتماع الاقتصادي وعلوم الاجتماع القانونية والدينية والمدنية، إلا حينها.

تعتبر قضية البيروقراطية قضية تثقيفية. وكان لها تأثير كبير في علم الاجتماع الصناعي، ولكنها بالفعل تشكل جزءاً من سوسيولوجيا الهيمنة لفيبر. وتولي سوسيولوجيا الهيمنة اهتماماً مماثلاً للأشكال التقليدية للسلطة المبنية على العادات والتقاليد وحكم كبار السن، وأيضاً على السلطة الكاريزمية المرتكزة على القدرات غير العادية لمواجهة التحدي اليومي، والسلطة القانونية الرشيدة المبنية على قبول حكم القانون. ويمكن العثور على أمثلة من مثل تلك الأشكال من السلطة في كل من المجتمعات التاريخية والمعاصرة؛ إذ تمثل تلك الأشكال أدوات قيّمة في عملية التحليل الاجتماعي، ولكن كان جل ما انشغلت به السوسيولوجيا هي البيروقراطية؛ إذ أخذنا في الاعتبار اهتمامها لفهم أحد الأشكال المهيمنة للتنظيم والإدارة الموجودة في الحداثة. كما يلقي النموذج المثالي للنظام البيروقراطي الضوء على سمات التنظيم الهرمي، والعمل الموجَّه بوثائق مكتوبة، ومجال تخصص محكم مصون بقواعد وموظفين يعملون بدوام كامل ممن يحتاجون إلى التدريب واحتراف مهنة ما، ويعتبرون أن من واجبهم تنفيذ المراسم الإدارية.

هناك اهتمام كبير بسوسيولوجيا السياسة في سوسيولوجيا الهيمنة لفيبر في الأجزاء الأخرى من كتاب الاقتصاد والمجتمع ، وفي العديد من النصوص الأخرى. وتزخر كتابات فيبر بنظريات علم الاجتماع التي تتعلق في أغلبها بالقضايا الملحة لألمانيا فيلهلم. وتشتمل الأمثلة على ذلك، التضاد التصنيفي بين سياسي يتبع تعاليم أخلاقية راسخة وأخلاقيات المسؤولية التي نجدها في كتاب

السياسة بوصفها مهنة ، والمقالات المطولة عن الثورة الروسية وعن الاشتراكية، و«رئيس الرايخ الألماني»، و«البرلمان والحكومة في ألمانيا في ظل نظام سياسي جديد».

في الآونة الأخيرة، أصبح مجمل أعمال فيبر محل اهتمام. فعلى سبيل المثال كان راينهارد بنديكس (Reinhard Bendix) ، وهو من العلماء الرواد في دراسة فيبر في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، وعلى علم تام بنتاج فيبر، وضمن تعليقاً على أعمال مبكرة مثل «حول تاريخ الشركات التجارية في العصور الوسطى»، و«وضع عمال الزراعة في إقليم إلبيا الشرقي الألماني»، و«سوق الأوراق المالية»، و«القضايا الاجتماعية لتدهور الحضارة القديمة»، وكذلك العمل المؤيد لنظرية التطور «الدولة القومية والسياسة الاقتصادية». ومع ذلك، فلم تُدرس هذه الأعمال بعمق إلا في الآونة الأخيرة بهدف واضح وصريح لتتبع علاقاتها بالأعمال الأخيرة. وتشمل المواضيع التي تتعلّق بهذه الأعمال اهتماماً بالتحليل الاجتماعي للظروف الريفية، واستخدام أساليب المسح الاجتماعي لدراسة الدلالة الاجتماعية والنفسية للعمل، وعلم اجتماع المجتمعات القديمة، وبالطبع، الاهتمام بأعمال الرأسمالية الحديثة وتأثيرها المحتمل في نمط حياة الفاعلين الاجتماعيين المنجذبين إلى أكوانها. ويتضح من ذلك أن هناك الكثير أو القليل من الأمور المجهولة في اعتمادات فيبر الرئيسة في علم الاجتماع.

قدم فيبر مساهمات مهمة في المناقشات الميثودولوجية من خلال نصوصه حول «الموضوعية في العلوم الاجتماعية والسياسة الاجتماعية»، و«معنى الحيادية الأخلاقية في علم الاجتماع وعلم الاقتصاد». كما إن لأعمال فيبر أهمية كبيرة في فلسفة العلوم الاجتماعية من خلال مناقشته لعمليات تشكيل المفهوم، ومكان الفهم والتفسير السببي في العلم الاجتماعي وأدوار القيم. ولم تشق هذه المناقشات طريقها في ميثودولوجيا علم الاجتماع ـ وتصنف الآن أنها منازعات بين منهجيات الكمية والنوعية، أو أنها مواقف إبستيمولوجية نسبية ـ ولكن من الضروري أن نقدر معنى الأنماط المثالية، والتحليل التصنيفي، وحرية القيمة، وارتباط القيمة، والفهم في أعمال فيبر.

يمكن أن يتضح ذلك كله من خلال أفكاره حول النمط المثالي والفهم (Verstehen) . وتعتبر الأنماط المثالية مبالغة مقصودة للظاهرة الاجتماعية، صيغت في تركيب عقلي وتمت دراستها في ضوء علاقتها بنمط آخر مماثل مصوغ، بشكل يبرز الاختلافات والعلاقات المهمة بينهما. فعلى

سبيل المثال، التضاد بين الطائفة الدينية والكنيسة يهدف إلى إبراز الاختلافات الجوهرية بينهما فيما يتعلق بمجموعة معينة من القضايا التي يدرسها فيبر في الحركات الدينية: في هذا المثال، مبدأ العضوية (سواء أكانت طواعية أم قسرية) ونتائجها المنطقية. ويمكن مشاهدة التزام فيبر بمفهوم العمل الاجتماعي (والمقدم في فكرته للفهم (Verstehet)) بكل وضوح في الرؤى العالمية، ومن خلال دوافع ممثلي العمل الاجتماعي التي ناقشها في الأخلاق البروتستانتية ؛ إذ توضح حجة فيبر بأن الكالفينيين الأوائل واجهوا قلقاً نفسياً سعى إلى التحرر في أنماط معينة من السلوك الأخلاقي، وطرق العمل، مع المادة البشرية إلى جانب إعادة التشكيل الإبداعي للحلول المتاحة المستوحاة من الأفكار الدينية والأخلاقية الموجودة في السياق الثقافي. وإضافة إلى ذلك، فإن الاختلاف الأساس فيما بين «دعاة الأخلاق» ـ البروتستانت الزاهدين، وأفراد عقلانيين في حركة تنوير بنيامين فرانكلين، وأفراد الحداثة المخدوعين ـ هو اختلاف دوافعهم لتكريس جهودهم لمهنة معينة.

في حين استهلت مقالات الأخلاق البروتستانتية الحياة كدراسة مستقلة وغير مترابطة؛ فقد شكلت أخيراً جزءاً من سلسلة «الأخلاق الاقتصادية في ديانات العالم»، ثم أعيدت صياغتها وسردها في أعمال فيبر الأخرى. وتتضمن هذه المقالات نصوصاً معقدة في الحقيقة لا يمكن إدراك المعنى المراد منها إلا بعد عدة قراءات. وفي الواقع، يقدم فيبر تشابهاً بين أسلوب الحياة المطلوبة في الثقافة الرأسمالية الحديثة، وأسلوب الحياة المبني على أسس دينية دعا إليها الزهاد البروتستانت في الماضي. وفي حين تركز الأخلاق البروتستانتية على الدوافع النفسية للفرد وإخلاصه لمهنة ما، توضح إحدى المقالات حول «الطوائف البروتستانتية وروح الرأسمالية»، كيف أثبت الزهاد البروتستانت أنفسهم لنظرائهم، من خلال الالتحاق بطائفة ما حيث تحدِّد فيها قيم المهنة الذي كان موهوباً بكونه عضواً فيها، إضافة إلى ذلك كونهم أعضاء منضبطين، من خلال المراقبة والتهديد بالطرد، وذلك للحفاظ على تلك القيم.

بعد إتمام الأخلاق البروتستانتية ، حوّل فيبر اهتمامه نحو تحليل الأخلاق الاقتصادية في ديانات العالم في الصين والهند ودراسة اليهودية القديمة؛ فقد كانت تعتبر هذه الدراسات أنها قضايا مناهضة للعلاقة المفترضة بين الأخلاق الدينية وتطوير طريقة حياة ورأسمالية، تدعم دراسات فيبر الأصلية. وفيما لو فُهم بطريقة صحيحة فليس من المستبعد أن يكون الأمر كذلك. وعلى الرغم من ذلك،

يجب عدم الاعتقاد أن ذلك هو كل ما يستطيع المرء أن يجده عن الأهمية السوسيولوجية في تلك المقالات، وينبغي أن لا يقودنا ذلك إلى الاعتقاد أن فيبر كان يعمل على تفعيل افتراضاته ليقارنها بمجموعة من البيانات الشاملة. وفي الواقع يمكن الحصول على الأهمية السوسيولوجية لتلك السلسلة من خلال المقالات التي تقدم السلسلة المعروفة بـ «علم النفس الاجتماعي للديانات العالمية»، ومن خلال المقالة التي نشرت فيما بين مقالات الصين والهند بعنوان «الرفض الديني للعالم واتجاهاته» (والمعروفة أيضاً بـ «التأملات الوسطية»).

يُظهر استقبال تحليل فيبر في علم الاجتماع لنظام الطبقات والنظام البيروقراطي كأهم عناصر إرثه، نزعة مصلحة في الحديث وعمليات التحديث. ويمكن أن يفهم ذلك أنه في مصلحة المعاصرين، ولكنه يغفل أن فيبر كان مهتماً بالأنماط الاجتماعية وأنماط الحياة في الأزمنة الحديثة والأزمنة ما قبل الحديثة. فقد كان فيبر عالماً اجتماعياً تاريخياً. وكان الهدف من اهتمامه بالأزمنة ما قبل الحديثة تفسير تميز الحديث وفهمه، ولكن من المهم أن نتذكر أن فيبر لم يحدد فترات التاريخ ولم يفترض أي تطورات أحادية الخطية. وبالنسبة إلى فيبر، يواجه البشر الحديثين صراعاً بين القيم بدلاً من دعم إطار معنوي توافقي. فقد أنشأت العقلانية والبيروقراطية نظاماً كونياً لا يمكن الخلاص منه من خلال التفكير التمني أو اليوتوبيات الصوفية، والتي يختار الأفراد فيها بالاتساق الذي يتماشى مع عقائدهم الشخصية الراسخة حتى لو كانت غير عقلانية.

وتبدو سوسيولوجيا فيبر كذلك في علم اجتماع ثقافي؛ إذ إنه يهتم بالرؤى العالمية والقيم، كما إنه يعطي للاهتمامات المثالية دوراً كبيراً في التفسير. ومع ذلك، لم يدافع فيبر قط عن منهجية أحادية الجانب في التفسير الاجتماعي: فللمصالح المادية والظروف دورها المتساوي الذي يجب أن تمارسهُ. ويمكن الحصول على استحسان أفضل لعلاقة فيبر بعلم الاجتماع الثقافي من خلال تحليل مفصل لاستخدام فيبر لمصطلح «الثقافة» في عمله كله. وبالطبع، كان فيبر في الوقت نفسه مهتماً بالفنون والمؤسسات الثقافية للمجتمعات. وهناك العديد من المراجع والدلائل المتعلقة بالثقافة والنصوص والصور التي تتطلب قدراً كبيراً من العمل التمهيدي العلمي قبل أن نستطيع تقييم أهميتها الكاملة بالنسبة إلى علم الاجتماع الثقافي لفيبر، أو قبل أن نستطيع إكمال تفسيرنا الثقافي له.

انظر أيضاً: كارل مانهايم، جورج سيميل، فيرديناند تونيس.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Alvin W. Gouldner, .Talcott Parsons

أهم الأعمال:

The History of Commercial Partnerships in the Middle Ages . 1889. Lan- .ham, MD: Rowman and Littlefield, 2003

Developmental Tendencies in the Situation of East Elbian Rural Labourers. .1894. In Keith Tribe, ed. Reading Weber . London: Routledge, 1989

.Stock and Commodity Exchanges. 1894. Theory and Society , 29, 2000

The National State and Economic Policy (The Freiburg Address). 1895. .Economy and Society , 9, 1980

Commerce on the Stock and Commodity Exchanges. 1896. Theory and So- .ciety , 29, 2000

The Social Causes of the Decline of Ancient Civilizations. 1896. In Max Weber. The Agrarian Sociology of Ancient Civilizations . London: New .Left Books, 1976

Objectivity in Social Science and Social Policy. 1904. In Max Weber. The .Methodology of the Social Sciences . New York: Free Press, 1949

The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism. 1904-5. In Peter Baehr and Gordon C. Wells, eds. Max Weber: The Protestant Ethic and the Spirit .of Capitalism, and Other Writings . Harmondsworth: Penguin, 2002

Replies to Critics (1907-10)}. In David J. Chalcraft and Austin Harrington, eds. The Protestant Ethic Debate. Max Weber's Replies to his First Critics .1907-10 . Liverpool: Liverpool University Press, 2001

Agrarian Relations in Antiquity. 1909. In Max Weber. The Agrarian Sociology of Ancient Civilizations (as chs. 1 and 2). London: New Left Books, .1976

The Rational and Social Foundations of Music . 1911. Carbondale, IL: .Southern Illinois University Press, 1958

The Social Psychology of the World Religions (the so-called Einleitung . 1915. Revised 1920). In Hans Gerth and C. Wright Mills, eds. From Max .Weber . London: Routledge, 1948

Religious Rejections of the World and their Directions (the so-called Intermediate Reflections. 1915. Revised 1920). In Hans Gerth, and C. Wright .Mills, eds. From Max Weber . London: Routledge, 1948

.The Religion of China . 1915. New York: Macmillan, 1951

.The Religion of India . 1916. New York: Macmillan, 1958

.Ancient Judaism . 1917. New York: Macmillan, 1952

The Russian Revolutions . (Essays of 1905-8 and 1917). Ed. Gordon C. .Wells and Peter Baehr. Cambridge: Polity Press, 1995

Science as a Vocation. 1919. In Peter Lassman and Irving Velody. Max We- .ber's Science as a Vocation . London: Unwin Hyman, 1989

Political Writings . (Essays of 1895-1919.) Ed. by Peter Lassman and Ron- ald Speirs. Cambridge: Cambridge University Press, 1994. Includes the es- .say on Politics as a Vocation

.General Economic History . 1919-20. New York: Greenberg, 1927

Economy and Society . 1910-14 and 1918-20. Ed. by Guenther Roth and .Claus Wittich. Berkeley, CA: University of California Press, 1968

The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism. Revised version 1920. In Stephen Kalberg, ed. Max Weber: The Protestant Ethic and the Spirit of .Capitalism . Oxford: Blackwell, 2002

The Protestant Sects and the Spirit of Capitalism. Revised version 1920. In Hans Gerth and C. Wright Mills, eds. From Max Weber . London: Rout- .ledge, 1948

للاطلاع على نصوص ألمانية نهائية، يمكن القارئ الرجوع إلى مشروع الأعمال المجمعة لماكس فيبر بعنوان الأعمال الكاملة (Gesamtausgabe) على الموقع:

.

قراءات إضافية:

Dirk Kaesler. Max Weber: An Introduction to His Life and Work . Cam-
.bridge: Polity Press, 1988

Richard Swedberg, ed. The Max Weber Dictionary: Key Words and Central
.Concepts. Stanford, CA: Stanford University Press, 2005

Alan Sica. Max Weber: A Comprehensive Bibliography . New Brunswick,
.NJ: Transaction, 2004

ثورشتاين فيبلين (Thorstein Veblen)

في 24 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1929م انهارت بورصة نيويورك، وبدأ الركود الاقتصادي الكبير، وقبل ذلك بشهرين توفي عالم الاقتصاد والاجتماع ثورشتاين بوند فيبلين. وقد حذّرت كتبه وأبحاثه بحدوث مثل تلك الأزمة التي حدثت في ذلك اليوم من شهر تشرين الأول/أكتوبر وتأثيرها في «الرجل العادي».

ولد فيبلين في العام 1857م لأسرة مزارعة مهاجرة من النرويج، وقضى معظم طفولته في مدينة نيرستراند في ولاية مينيسوتا الأمريكية. والتحق بأكاديمية كارلتون كولدج، ونال درجة البكالوريوس في العام 1880م. وفي العام 1881 بدأ بالدراسة للحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة جونز هوبكنز حيث تابع محاضرات تشارلز أس. بيرس (Charles S. Peirce) ، مؤسس البراغماتية الأمريكية، والذي أصبح مصدر إلهام لفيبلين. ويجب أن ينظر إلى الكثير من أعماله في ضوء الفلسفة البراغماتية للعلم. وانتقل فيبلين إلى جامعة يال لإكمال دراسة الدكتوراه في العام 1884م. ويُذكر أن أطروحته حول الحيثيات الأخلاقية لقانون الجزاء (The Ethical Grounds of a Doctrine of Retribution) فُقدت. ثم قضى الأعوام الستة التالية في مزرعة والديه في ولاية مينيسوتا، على الرغم من أنه لا يبدو أنه عمل أي عمل منتظم. وفي عامي 1891 - 1892م، واصل فيبلين دراسة علوم الاقتصاد السياسي والتاريخ الأمريكي في جامعة كورنيل، وعندما عُين رئيس قسمه لورانس لافلين رئيساً لقسم العلوم الاقتصادية في جامعة شيكاغو المُنشَأة حديثاً عام 1892م، أخذ فيبلين معه. وبقي فيبلين في شيكاغو حتى عام 1906م. ثم قام بتدريس علوم الاقتصاد في جامعة ميزوري (1911 - 1918م)، وفي المدرسة الحديثة للبحث الاجتماعي (1918 - 1926م).

كثيراً ما يُحتفى بفيبلين لأنه مؤسس علوم الاقتصاد المؤسسية، ولكنه كان يعد أيضاً أحد كبار علماء الاجتماع. وأنتج فيبلين أحد عشر كتاباً والعديد من الأبحاث. وكانت كتاباته في الغالب متناقضة، ويصعب تصنيفها ضمن فئات بسيطة. وكان يعتبر في زمانه مفكراً سياسياً راديكالياً، يستوحي أفكاره

من مصادر مختلفة من مختلف العلوم، ومن الفكر الداروينى والنظرية الماركسية، على الرغم من انتقاده لعدم إشارته إلى مراجعه في منشوراته.

كان فيبلين يكتب في وقت كانت تتحول فيه أمريكا من مجتمع ريفي إلى مجتمع صناعي في سرعة أكثر من أي مكان آخر. وبحلول العام 1880م، فاقت القوى العاملة غير الزراعية القوى الزراعية، وخبر المجتمع الأمريكي عملية تصنيع وتمدن سريعين، وفيضاً من المهاجرين من أوروبا. وأحرز رأس المال النقدي تقدماً على رأس المال الصناعي، ووضع مجتمع الإنتاج الكبير الجديد أسس دراسة الاستهلاك الجماعي.

كان كتاب نظرية الطبقة المرفهة (The Theory of the Leisure Class) ، الذي نُشر في العام 1899 أول كتاب لفيبلين. وقد لاقى استحساناً كبيراً جداً باعتباره عملاً مبتكراً. وتتضمن الفكرة الرئيسة لدراسته نقداً لعرض الوضع الاجتماعي. فقد كانت شيكاغو، حيث كان يعيش أثناء كتابته لهذا الكتاب، أحد أكثر المجتمعات المدينية نمواً في الولايات المتحدة في تلك الفترة، وكان الفرق بين الغني والفقير فيها واضحاً جداً بالفعل. وناقش فيبلين التصنيف الطبقي الاجتماعي في أمريكا المعاصرة بأنه نتاج النشوء من قبائل مسالمة إلى شكل أسمى من البربرية التي يُميّز فيها التنافس والصراع الحياة الاجتماعية. كما إن تراكم الثروة هو العلامة للتميز، حتى إذا اكتسبت تلك الثروة عن طريق التوارث. وكان النجاح أمراً غير ذي صلة، إذ كان يعتمد هذا النجاح على امتلاك أكثر مما يمتلكه الغير في المجتمع الذي ينتمي إليه المرء. ولم تشارك الطبقة المرفهة في الأعمال المنتجة أو في الأنشطة التي تحتاج إلى وجودهم اليومي، ولكنها كانت تتمتع بالاستهلاك المسرف. ولم تخدم «إنفاقاتهم الواضحة» أي مقاصد إلا لخلق تميز اجتماعي، وللحفاظ على الهرمية الاجتماعية، وتقسيم العمل على أساس الجنس (gender) . ولم يوجد أي شكوك بشأن أصالة الدراسة. فقد كان أسلوب فيبلين في الكتابة أسلوباً تهكمياً، وكما قيل فإن الكتاب كان يُعتقد أنه مسلٍّ بالنسبة إلى من توجّه إليهم بالنقد. وكان الشيء الذي أثار الدهشة في ذلك الوقت هو اهتمامه بمعاناة المرأة في المجتمع، وهو موضوع لم يعلّق عليه إلا قليل من علماء الاجتماع الرجال.

وبحث كتاب فيبلين الثاني، نظرية المشاريع التجارية (The Theory of the Business En-terprise) ، في تشكيل الاتحادات الاحتكارية في الرأسمالية المعاصرة، وبحث أيضاً في البروز

المتزايد لرأس المال التمويلي. وواصلت ملاحظاته النقدية عن آليات السوق لتوليد الهدر واستغلال العمالة وعمّقت نقاش الطبقة المرفهة ، ولكن جرى التشديد أكثر على الصراع بين «رجال الهدر» و«رجال العمل». كما تناولت أعماله التالية مناقشة الصراع بين الإنتاج (الصناعة) والربح (التجارة)، وخلص إلى أن الصناعة يمكن أن تنجح إذا ما تُرك شأنها للمهندسين بدلاً من الخبراء الماليين. وعرض كتاب نظرية المشاريع التجارية آفاقاً قاتمة للمستقبل في ظل الرأسمالية. ولم يعتقد فيبلين أن الصراع بين رأس المال والعمل يمكن أن يؤدي إلى حدوث ثورة، ولكنه قد يؤدي إلى خضوع الطبقات العاملة عن طريق إغرائهم بالتحسن المادي. كما قام بتشخيص تطور الرأسمالية في موازاة المسيرة الجشعة القومية، واعتبر أن ذلك سيؤدي إلى شكل من أشكال الاشتراكية والفاشية التي ستؤدي بالتالي إلى انهيار الرأسمالية نفسها. وأبدى شكّه بشأن قدرة الرأسمالية على خلق مجتمعات آمنة ومستقرة مرة أخرى في كتابه An Inquiry into the Nature of Peace and the Terms of its Perpetuation ، الذي نُشر في أثناء الحرب العالمية الأولى عام 1917م. ونال هذا الكتاب ترحيباً من قبل الجماعات الراديكالية، وكان يؤمل، من دون طائل، أن يؤدي فيبلين دوراً مهماً في تسويات السلام.

في كتابه Absentee Ownership and Business Enterprise in Recent Times: The Case of America الذي نُشر في العام 1923م، ركّز فيبلين على كيفية الفصل بين الملكية والتحكم بشكل متزايد، ما أحدث شكلاً جديداً من أشكال العزلة المتضمَّنة داخل النظام نفسه. وبالتالي يعمق هذا التحليل جوانب مناقشاته في كتاب نظرية المشاريع التجارية بطرق مهمة. فقد كانت الشركات الناشئة تُديرها وتتحكم بها طبقة مختلفة من الناس عن الذين يملكونها. ونتيجة لذلك قدموا أنفسهم بطرائق عزلت العامة وجردتهم من السلطة. ويردد هذا الكتاب تصورات فيبر عن الديمقراطية بطريقة أو بأخرى، ولكنه ركز بشكل أكبر على مظاهر الاستغلال الاقتصادي. كما إنه توقع أيضاً أن يؤدي عدم استقرار النظام الاقتصادي المعاصر إلى حدوث أزمة مماثلة لتلك التي حدثت في سوق الأوراق المالية في وول ستريت بعد موته بفترة قصيرة.

شملت تأليفات فيبلين مجموعة كبيرة من الموضوعات، إضافة إلى تلك المتعلقة بالحدود الفاصلة بين الرجال «الماليين» والرجال «العمليين». ومع ذلك، في معظم كتبه وأبحاثه تنزع مناقشة أي

موضوع إلى الجذب نحو مجال المشكلة هذه. وهناك مثال على ذلك، ففي كتابه التعليم العالي في أمريكا (The Higher Learning in America) ، الذي يعتبر نقداً شاملاً لكيفية تغلغل «الفكر المروض للثقافة التجارية» في الجامعات؛ إذ تدعم القيم المالية إدارة الجامعات، وتمكث في قلب الفصول الدراسية التي يتم تدريسها. وقد كُتب هذا الكتاب قبل سنوات من نشره، عندما كان موظفاً في جامعة ميزوري، وكان أول عنوان فرعي له هو دراسة في الفساد الشامل (A Study in Total Depravity) ، وكان السبب لعدم نشره هو توصية إدارة الجامعة بذلك.

عبر فيبلين في وصيته بعدم كتابة سيرته الذاتية بعد وفاته؛ ووصفه أقرانه بأنه شخص تصعب معرفته. كما يبدو أنه لم يكترث بالأفكار التقليدية أو الزي أو حتى السلوك التقليدي. كما إنه لم يحقق أي مهنة أكاديمية «ناجحة»، كما يبدو أن شخصيته أرغمت أغلب الناس، أصدقاء وأعداء، على الابتعاد عنه. وكانت تجربة زواجه الأولى صعبة وانتهت بالطلاق، كما تركته زوجته الثانية أرملاً في العام 1920م. وفي العام 1926م، تقاعد من عمله في المدرسة الحديثة للبحوث الاجتماعية، وانتقل للعيش مع ربيبته في كاليفورنيا، حتى وفاته التي حصلت قبل شهرين من تحقق نبوءاته القاتمة بشأن الأحداث في بورصة وول ستريت.

على الرغم من غرابته تلك، إلا أن كتاباته تنم عن عبقرية بثت الروح في غيره من مفكري القرن العشرين، ومن أبرزهم تشارلز رايت ميلز، وجون كينيث غالبريث، وبيار بورديو. وفي الفترة التي كان فيها وطن فيبلين الأم يمثل أقوى دولة في العالم، وحينما استمرت الحروب والرأسمالية العالمية في التأثير في حياة الناس اليومية نحو الأفضل والأسوأ، استمرت أعمال فيبلين في تقديم تصورات جديدة للجوانب المهمة لتنمية المجتمع المعاصر.

انظر أيضاً: كارل ماركس.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists : C. Wright Mills

أهم الأعمال:

.The Theory of the Leisure Class . New York: Macmillan, 1899

.The Theory of the Business Enterprise . New York: Scribner, 1904

.The Vested Interests . 1911. London. George Allen and Unwin, 1924

.The Instinct of Workmanship and the State of the Industrial Arts . 1914

Imperial Germany and the Industrial Revolution. 1915. London: Seeker .and Warburg, 1939

An Inquiry into the Nature of Peace and the Terms of its Perpetuation . .1917

The Higher Learning in America. A Memorandum on the Conduct of the .Universities by Businessmen. 1918. New York: Sagamore Press, 1965

The Industrial System and the Captains of Industry . New York: Oriole .Chapbooks, 1919

The Engineers and the Price System . 1921. New York: Augustus M. Kel- .ley, 1982

Absentee Ownership and Business Enterprise in Recent Times: The Case .of America . 1923. London: George Allen and Unwin, 1924

Essays in Our Changing Order . Various dates. New York: Viking Press, .1934

قراءات إضافية:

John P. Diggins. The Bard of Savagery. Thorstein Veblen and Modern So-
.cial Theory . Hassocks, UK: Harvester Press, 1978

Joseph Dorfman. 1934. Thorstein Veblen and his America . New York: Vik-
.ing, 1966

Irving Louis Horowitz, ed. Veblen's Century. A Collective Portrait . New
.Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2002

David Riessman. 1953. Thorstein Veblen . New Brunswick, NJ: Transac-
.tion Publishers, 1995

أوليفر كوكس (Oliver Cox)

أوليفر كروميل كوكس هو من أهم محللي الرأسمالية والعلاقات بين الأجناس والفاشية المهمَلين، ونشر خمسة كتب وأكثر من 30 مقالة في حياته. وتعتبر العوامل السياسية سبباً مهماً في إهماله عندما كان حياً؛ فقد أُهمل في الولايات المتحدة بسبب العنصرية ضد العلماء السود، وبسبب تفكيره اليساري، وبسبب تأثير التحليل الماركسي في عمله. وقد ظهر الكثير من أعماله في الوقت الذي خاف فيه السياسيون والجمهور في الولايات المتحدة الأمريكية من الماركسية والشيوعية أكثر من خوفهم من المرض. وجرى تجاهل كوكس بسبب انتقاداته للنموذج الاجتماعي المسيطر على العلاقات بين الأعراق في أواسط القرن العشرين، ولمدرسة الطبقات الاجتماعية لعلاقات الأعراق التي تشكلت بشكل كبير من قبل قسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو. ونتيجة لذلك تقيد بالتدريس في الكليات الصغيرة قليلة الشهرة.

على الرغم من الصعوبات التي واجهها، ومن التمييز العنصري والعداء الموجه لأعماله، استمر كوكس في متابعة تحليله بلا هوادة، واستمر بأعمال النشر وبإلقاء المحاضرات أحياناً. وعلى الرغم من ذلك لم يقتبس منه كبار الكتّاب في عصره، وكان أقل معرفة خارج الولايات المتحدة قبل سبعينيات القرن الماضي. ولم يتلقَ كوكس تكريماً رسمياً من قبل أي مؤسسة اجتماعية حتى مُنح جائزة ديبوا ـ جونسون ـ فرازير في العام 1971، وكان أول من تلقاها، وهي جائزة منحتها له الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع. ونتيجة لذلك، انتشرت قراءة أعمال كوكس بشكل أوسع في الولايات المتحدة الأمريكية منذ سبعينيات القرن الماضي، وهناك تقدير أكبر لتحليله ولمبادئه في عصرنا الحالي. وتعد حياته شهادة للعمل الدؤوب والمثابرة.

ولد كوكس في العام 1901، في ترينيداد، حيث تلقى تعليمه قبل هجرته إلى الولايات المتحدة في العام 1927 لدراسة القانون في جامعة نورثويستيرن في شيكاغو. وأثناء وجوده في الولايات المتحدة ألمّ به شلل الأطفال الذي أدى إلى إعاقته في رجليه، وأمضى بقية حياته يمشي بعكازين. كانت نيته الأولى العودة إلى ترينيداد لممارسة القانون، لكنه شعر أنه من غير المُرجَّح أن يحقق مستقبلاً في

ممارسة القانون الآن، فتحول إلى دراسة الاقتصاد. وحصل على درجة الماجستير في العام 1932، ثم نال بعدها الدكتوراه في علم الاجتماع في العام 1938، وقد حصل على هاتين الدرجتين من جامعة شيكاغو. وعلى الرغم من أنه وجد الاقتصاد غير مناسب لشرح الظاهرة الاجتماعية، فقد كان تأثير تدريبه في الاقتصاد واضحاً في أعماله المستقبلية. وقد أتم هذه الدراسات في وقت سلط فيه الكساد الكبير الضوء على عدم المساواة الاجتماعية في الأمة، وبصفة خاصة السود.

كان التمييز العنصري وعزلة جيم كرو الاجتماعية في الولايات المتحدة تعني أنه لا يوجد مجال لكوكس للتدريس في الجامعات رفيعة المستوى أو الجامعات ذات الموارد الغنية، فكانت وظيفته التدريسية الأولى في كلية ويلي، وهي مدرسة معمدانية صغيرة في مارشال في تكساس. وانتقل في العام 1944 إلى معهد توسكيجي، وأملت المدرسة أن وجود كوكس لديها سيأتي ببعض الاحترام والتقدير لها. ولم يكن القائمين على المدرسة مخطئين، فقد كان سجل منشوراته مذهلاً. وبينما كان هناك، لم يكن كوكس مناصراً لمنهجية بوكر ت. واشنطن (Booker T. Washington) ، سواء في علاقاته الشخصية أم في تحليله. وانتقل كوكس إلى جامعة لينكولن في العام 1949، وإلى جامعة ولاية واين في العام 1970. وتوفي في العام 1974.

نشر كوكس عمله الشهير «التركيز الاجتماعي ـ مدرسة الطبقات الاجتماعية الحديثة للعلاقات بين الأعراق» في العام 1942، ونشر كتاب Caste, Class and Race ، وهو أكثر أعماله شهرة، في العام 1948. وكان الموضوع الثابت في أعماله هو فشل مدرسة الطبقات الاجتماعية في التمييز بوضوح بين الطبقات الاجتماعية والعرق كمفاهيم تحليلية. ورفض كوكس أيضاً تركيز المدرسة المسيطرة على المحاباة والاتجاهات الفردية، وقال إن دراسة غونار ميردال (Gunnar Myrdal) الشهيرة، المعضلة الأمريكية (An American Dilemma) التي نشرت في العام 1944، كانت مثالاً واحداً على كل «دراسات المنح الدراسية الكلاسيكية حول موضوع العلاقات بين الأعراق في الولايات المتحدة». وتساءل كوكس عن التعريف غير الدقيق «للطبقات الاجتماعية» الذي قدمته هذه المدرسة، وتحدى ادعاءاتها للأصالة في مواجهة كثير من سابقاتها المماثلة. وإضافة إلى ذلك كله، أوضح كوكس القابلية المحدودة لاستخدام مفهوم الطبقات الاجتماعية بالنسبة إلى السود والبيض في الجنوب الأمريكي، الذي منح تصوراً في مكان وزمان آخرين، وهو الهند، منذ دهور طويلة.

وبدلاً من البحث عن سبب عدم المساواة بين الأعراق في «قلوب الشعب الأمريكي»، كما فعلت المدارس المهيمنة، وبدل القيام بالبحث عن حل مع «أوصياء الأخلاق»، اتجه كوكس إلى الطرائق التي استفاد المجتمع الرأسمالي من خلالها من وجود طبقة مستغلة ومميزة من العمال. ويعتبر كتاب Caste, Class and Race ، تحليلاً للمبادئ الواسعة لعدم المساواة والتقسيم الطبقي الاجتماعي عبر كل المجتمعات الإنسانية. وجادل كوكس أن «افتراضنا هو أن الاستغلال العنصري والتحمل العرقي تطورا لدى الأوروبيين مع نهوض الرأسمالية والقومية». ولأن «التنافر العرقي هو جزء من هذا الصراع الطبقي، فإن الاهتمام بهذا التنافر هو اهتمام استغلالي». وبالنسبة إلى كوكس، فقد نشأت العنصرية مع نهوض الرأسمالية الأوروبية الحديثة، وأن التنافر العرقي كان عنصراً أساساً في صراع الطبقات.

اعتبر كوكس الفاشية نموذجاً متطرفاً للعنصرية، وقارن اضطهاد السود ببروز الفاشية في أوروبا وآسيا. وجادل أنه لا بد من فهم كل منهما على ضوء ما قدماه إلى السيطرة الطبقية. ورفض كوكس التفسيرات المهيمنة في ذلك الوقت ـ الذي وُصفت فيه الفاشية أنها نتاج دكتاتورية الطبقة العاملة أو الشخصية الدكتاتورية. وأضاف أن فهم الفاشية أمر مهم؛ إذ إن الفاشية هي من تروج للقومية والعنصرية. والفاشية جانب منظم سياسياً للوعي الطبقي الرأسمالي؛ إذ إنه «في أي حركة فاشية يساعد التشديد على تفوق العرق وعلى التنافر العرقي، أو عدم التسامح على إرباك الجماهير وعلى نشوء أنوية مركزية عرقية».

منذ الوقت الذي كتب فيه كوكس، ظهر حجم كبير من الكتابات حول الماركسية، وحول الطبقات والأعراق، ولذا يبدو أن عمل كوكس بالٍ إلى حد ما. ويعتبر العديد من مجادلاته الرئيسة الآن بسيطة جداً. ومع ذلك قدمت أعماله وصاغت مفاهيم أساسية، وأفاض بشرح العلاقات بينها بطرائق أُدمجت في هذا العلم، وعلينا أن لا ننسى فضله. لقد كتب كوكس ثلاثة أعمال عن طبيعة وديناميكيات الرأسمالية العالمية. وقد امتدح إيمانويل والرشتاين (Immanuel Wallerstein) ـ وهو محلل رائد لنظرية الأنظمة العالمية ـ كوكس بصفته واضع الأسس والمبادئ الرئيسة لمنهجية تحليل الرأسمالية. ومن الحكمة لطلاب تحليل الطبقات والأعراق الجدد أن يراجعوا كتابات كوكس. وعلى الرغم من أن الكتابات الحديثة لفتت الانتباه إلى تعقيدات لم يكن كوكس قادراً على توقعها، فإن كوكس سيظل

جديراً بالثناء بسبب أسلوبه المباشر ووضوح مفاهيمه ومجادلاته، وكذلك لأن عمله يثير الإعجاب وهو متميز في صياغاته.

انظر أيضاً: كارل ماركس، لويد وارنر.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Immanuel Wallerstein.

أهم الأعمال:

Caste, Class and Race . New York: Monthly Review Press, 1948. Republished as: Race: A Study in Social Dynamics . New York: Monthly Review Press, 2000.

The Foundations of Capitalism . London: Peter Owen, 1959.

Capitalism and American Leadership . New York: Philosophical Library, 1962.

Capitalism as a System . New York: Monthly Review Press, 1964.

قراءات إضافية:

Herbert M. Hunter. The Sociology of Oliver C. Cox: New Perspectives (Special Issue of Research in Race and Ethnic Relations , vol. 11, 2001)).

Adolph Reed. Race and Class in the Work of Oliver Cromwell Cox, Monthly Review , February, 2001.

Christopher McAuley. The Mind of Oliver C. Cox . Notre Dame, IN: .University of Notre Dame Press, 2004

تشارلز كولي (Charles Cooley)

استحق تشارلز كولي مكانته في قاعة الشهرة لعلم الاجتماع بجدارة، بيد أن هذا الأمر كان مثيراً للدهشة إلى حد ما بسبب تاريخه الشخصي. فقد كان كولي شخصية خجولة ومنعزلة، يجد المواقف الاجتماعية مرهقة ومربكة. وكان قد بدأ حياته المهنية مهندساً ميكانيكاً، ثم تحول إلى علم الاجتماع بطريقة عرضية. كان كولي رجلاً استبطانياً كثير التأمل يميل إلى حد ما إلى الاستغراق في أحلام اليقظة. كان يقرأ بشكل انتقائي، ويكتب بشكل متقطع كلما سمح له مزاجه بذلك. وعلى الرغم من ذلك، كانت لديه قدرة استثنائية على الاسترخاء وتأمل الطبيعة البشرية والمجتمع. ويعتبر كولي الآن الأكثر شهرة لرؤاه النظرية حول النفس ولتأثيره في التقليد الرمزي التفاعلي، على الرغم من أنه كتب أيضاً على نحو واسع جوانب كثيرة أخرى للنظرية السياسية الاجتماعية.

ولد تشارلز هورتون كولي في آن أربور، في ميتشيغن، في 17 آب/أغسطس من العام 1864، وهو الطفل الرابع لتوماس كولي وماري إليزابيث هورتون. كان قانونياً مهنياً ناجحاً، أصبح في النهاية قاضي محكمة الولاية العليا بولاية ميتشيغن. وكان رجلاً متواضعاً، دمث الخلق، شابهه تشارلز في كل من الشخصية والتكوين. كان الولد صغيراً، ونحيفاً، وضعيفاً جسدياً، ولذلك أمضى الكثير من وقته في البيت، ووجد عزاءه في اللجوء إلى الكتب. ولأنه كان شخصاً خجولاً، وغير معتاد إلى حد ما على العلاقات الاجتماعية، كانت تتم إغاظته لصوته الأنثوي وسلوكه المسالم. وظل طوال حياته يهتم للغاية بما يفكر الآخرون عنه، وكان يتوق إلى الاستحسان. وكان ذكر في دورياته كيف كان يتخيل المواقف التي كان يؤدي فيها أعمالاً بطولية، وتخيل كيف يمكن الآخرين أن يغيروا آراءهم فيه. وكما أشار إدوارد جاندي (Edward Jandy) ، فقد كان من المحتمل أن هذا الميل للانعزال إلى عالم داخلي غني هو الذي شكل اهتمام كولي في مفاهيم النفس والآخرين.

على الرغم من الانقطاعات المتكررة لتعليمه بسبب سوء حالته الصحية، تخرج كولي من جامعة ميتشيغن في العام 1887، بدرجة البكالوريوس في الهندسة الميكانيكية. وكان يهدف إلى متابعة الدراسات العليا في هذا التخصص، لكنه بدلاً من ذلك وجد نفسه مهتماً أكثر بالنظرية الاجتماعية

والاقتصاد السياسي. وكان متأثراً بفلسفة المثاليين المهيمنة، وبصفة خاصة أعمال رالف إيميرسون، وجوهان فولفغانغ فون غوته، وهنري توريو (Henry Thoreau) . وقرأ أيضاً سوسيولوجيا هربرت سبنسر؛ إذ جذبت فكرة أن المجتمعات هي كائنات بيولوجية اهتمامه إلى «ميكانيكيات» النشوء. ومع ذلك، انتقد كولي بشدة الطريقة التي أهملت فيها نماذج كهذه الجانب الأكثر تجريبية وشخصية في الحياة الاجتماعية، وافتقارها إلى العنصر «البشري». وبحث الموضوع الذي نال عنه درجة الدكتوراه «نظرية الانتقال» (The Theory of Transportation) في فكرة أنظمة النقل بوصفها كيانات عضوية مقدسة تعتمد على خطوط اتصال فعالة، وقد سبق هذا المنهجية الإيكولوجية التي أتى بها فيما بعد في دراسته للمجتمع.

عُيّن كولي في وظيفة أكاديمية في جامعة ميتشيغن، حيث بقي هناك طوال حياته المهنية. وبعد ترقيته من أستاذ مساعد إلى أستاذ لعلم الاجتماع، ظل متواضعاً إزاء إنجازاته، وكان خجولاً في صحبة زملائه. فقد اعتبر نفسه دخيلاً على علم الاجتماع الرئيس الذي هيمنت عليه التحليلات الإحصائية للمشكلات الاجتماعية. وتركّز عمل كولي على خطوط أكثر جوهرية لليحث في طبيعة المجتمع والنفس الاجتماعية. وكان كولي محاضراً كاريزمياً يتمتع بشعبية كبيرة بين طلابه، وبصفة خاصة هؤلاء الذين حضروا ندوات التخرج الخاصة به. وبالنسبة إلى كولي استلزمت الأبحاث القراءة والتأمل في النظرية الاجتماعية، واستخدم دورياته لتسجيل أفكاره الناشئة. ولم يعتبر كولي نفسه عالم اجتماع، ولكن فيلسوف فنان يصف رؤيته للمجتمع من خلال نثر مصوغ بعناية. وأراد كذلك أن تكون كتاباته مقبولة للقارئ العادي المتعلم كما هي للأكاديميين، ولذلك تجنب أسس الكتابات العلمية التقليدية إلى حد بعيد في إطار نمط أكثر إبداعاً وخيالية.

نشر كولي كتابه الأول الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي (Human Nature and the So-cial Order) في العام 1902. وكان كولي متخوفاً أن يكون هذا الكتاب إلى حد ما بمثابة سيرة ذاتية له، وأنه يمكن أن يكشف الكثير من أفكاره وأحاسيسه الخاصة، إلا أن هذا الكتاب يعد في الحقيقة قراءة لنص نظري مؤثر. ويركّز النقاش الأساس لهذا الكتاب على أن العمليات العقلية التي نختبرها كأفراد مرتبطة بالعمليات الاجتماعية وبنى العالم الاجتماعي. وبتأكيده الصلة البينية للعقل والنفس والمجتمع، فقد كان كولي يردد أفكار جورج هربرت ميد، وهو تأثير أساس آخر

على التقليد التفاعلي الرمزي. ومن وجهة نظر كولي، فإن العقل إنما نتاج بيئته الاجتماعية، وإننا نطور شخصياتنا من خلال عمليات اجتماعية داخلية مثل التفاعل والتواصل. وقد شكل ذلك تحدياً لنظريات التحليل النفسي وعلم الاجتماع التي عاملت الطبيعة الإنسانية بأنها موجودة بشكل فطري مستقل عن العالم الاجتماعي. وعلى العكس من ذلك، تقترح نظرية كولي أن العقل يتشكل اجتماعياً ويبرز كنتاج للعملية الاجتماعية. وبالفعل توصف منهجيته أحياناً بأنها «عقلية»؛ إذ إنها تركز على الطريقة التي نصيغ بها التمثيلات العقلية للأشخاص والأشياء الأخرى، بما في ذلك «المجتمع». وفي هذا الإطار، تتوافق نظرية كولي مع فكر دوركهايم عن التمثيلات الكلية التي تشكل الطريقة التي يفكر ويشعر بها الأفراد.

وبالاعتماد على أفكار وليام جيمس، ميّز كولي بين النفس الإمبريقية التي يمكن أن يلاحظها الآخرين، وبين النفس الاجتماعية كمجموعة من المشاعر حول من أكون «أنا»، وما هو «ملكي». وفيما عرّف ميد الـ «أنا»، في صيغة الفاعل (I) والمفعول به (me) كصياغتين للحوار الداخلي، فقد ركز كولي على الأولى مقترحاً أن «مراحل الأنا» هي التي تشكل نواة النفس الاجتماعية. على سبيل المثال، أشار إلى الطرق المتنوعة التي استخدم الناس فيها كلمة «أنا» عند الحديث للتعبير عن «المشاعر الذاتية الداخلية المختلفة»، مثل الرغبات والطموحات والتصريحات. ويذكرنا هذا أن اللغة غالباً ما تكون عنصراً أدائياً؛ إذ يمكننا أن نستخدم المقولات الخاصة بالكيفية التي نفكر ونشعر وندرك بها الأشياء كطريقة لعرض الهوية للآخرين. وبالفعل جادل كولي بأنه من المستحيل التفكير بالذات من دون التفكير أيضاً بالآخرين، أو الموضوعات في العالم وتفاضل أنفسنا عنهم؛ إننا نعرف أنفسنا من خلال العلاقات. فكما صاغ الأمر، «لا يوجد معنى في «أنا»... من دون معناها بـ «أنت»، أو «هو» أو «هم»...». وبذلك تمثل النفسية الاجتماعية مجموعة من الأفكار والمشاعر الخاصة بالمرء. ـ «العواطف الذاتية» ـ التي تخرج من الحياة التواصلية للمجتمع.

إن محور هذه المناقشة هو فكرة كولي للذات الزجاجية، وهي تصوير المرء من منظور الآخرين. وهذا يشبه إلى حد ما فكرة ميد عن «ضمير المفعول به» (me) في أنه يتضمن أخذ وجهة نظر الآخرين تجاه المرء كشيء اجتماعي. ومع ذلك، ركّز كولي على الاتجاهات التي ننسبها إلى هذا الجمهور وآثارها على المرء. واقترح أن الذات الزجاجية لها ثلاثة عناصر: تخيل مظهرنا بالنسبة

إلى الشخص الآخر، وتخيل رأيه أو رأيها في ذلك المظهر، والمشاعر الذاتية الناتجة، مثل الفخر، والخزي، أو العار. ولذلك، فلا تعتمد الطريقة التي نفكر فيها بأنفسنا على الصورة الميكانيكية الموضوعية لـ «ضمير المفعول به»، لكن على هذه العواطف المنسوبة التي يبدو أنها لدى الآخرين تجاهنا. ويبدو أن هذا يعني أيضاً أنه يمكن أن يكون لدينا كثير من الأنفس الاجتماعية المختلفة، تماماً كما سيكشف الزجاج أمام أشخاص محددين وفي مواقف مختلفة مدى واسعاً من الصور. وتذكرنا هذه الفكرة عن النفس الديناميكية والمرنة والخاضعة للتفاوض الاجتماعي مرة أخرى بالتأثير الذي كان لكولي على التفاعلية الرمزية.

نُشر كتاب كولي الثاني، التنظيم الاجتماعي في العام 1909، واعتمد أكثر على النظرية الاجتماعية الكلاسيكية، ولذلك كان أكثر استعداداً للقبول من قبل معاصريه. وتناول فيه قضية ماهية «المجتمع»، وكيف يتم تنظيمه، آخذاً بالاعتبار بصفة خاصة العلاقة بين المنظمات الأكبر والرسمية والمجموعات الأصغر التي تتألف منها. فعلى سبيل المثال، النظام الطبقي الاجتماعي مثال للطريقة التي يمكن فيها أن تساعد بعض القيم مثل الفردانية والجدارة على الحفاظ على النظام، ومنع الصراع بين المجموعات التي تتصادم مصالحها. وقد ناقش كولي مهمة تلك الأشكال الأكبر والأكثر تعقيداً للمنظمة الاجتماعية لتنسيق أفعال الأفراد ومجموعات المصالح. وفي هذا الإطار كان كولي يدرك القوى البنيوية التي تمارس دوراً في المجتمع، وكان يظهر ولاءه لنظريات سبنسر ودوركهايم العضوية. ومع ذلك تكشف الأفكار الأخرى التي تمت مناقشتها في التنظيم الاجتماعي اهتمام كولي المتواصل بعمليات التفاعل الاجتماعي ودورها في تطوير الشخصية. وتحيل فكرته «المجموعة الأساسية» ـ على سبيل المثال ـ إلى تلك المجموعات من البشر التي توفر للفرد تجربته، أو تجربتها، الأولى للوحدة الاجتماعية، والتي تبقى مصدراً «للعلاقة والتعاون الحميم وجهاً لوجه». فعلى سبيل المثال، يمكن أن تساعد الأسرة ومجموعة الأقران ومجتمع الحي على تشكيل الأفكار والمعتقدات التي تطور الطفل، وبذلك تعمل كعوامل للتهيئة الاجتماعية. وقد اعتقد كولي أن مشاعرالتعاطف والتماهي لدينا مع المجموعات الأساسية، يساعد على ربط النفس مع العالم الاجتماعي، وعلى خلق شعور بالهدف المشترك. وعلى الرغم من أنه توصل إلى أن هذه المجموعات يمكن أن تتسم بالتصادم، وأيضاً بالحب والانسجام، فإنها «غير مستقلة عن المجتمع الكبير»، ولكن إلى حد بعيد تعكس «روح المجتمع». وفي هذا الإطار، يذكرنا كولي بنقاشه أن طبيعة البشر تتشكل بواسطة

العمليات الاجتماعية: بدلاً من وجودها المتأصل في الفرد، فإنها «طبيعة المجموعة»، أو حالة العقل الاجتماعي. وجادل كولي، مردداً دوركهايم أن «المجتمع والأفراد هما مرحلتان لا تنفصلان عن الكل المشترك، لدرجة أنه كلما وجدنا فردية، فلا بد من وجود حقيقة اجتماعية تتسق معها».

أما كتاب كولي الثالث، العملية الاجتماعية فقد نُشر في العام 1918، وعكس اهتمامه المتزايد بالصراع الاجتماعي والمنافسة السياسية. هنا بحث كولي فيما يمكن أن يحدث عندما يكون تصادم مصالح بين قيم المجموعات الأساسية والقيم المؤسساتية، مثل المعتقدات الدينية والأيديولوجيات. وقد كتب كولي هذا الكتاب في أثناء الحرب العالمية الأولى فيما أرّقته أفعال الحكومة الأمريكية. لقد كان كولي مؤمناً قوياً بالديمقراطية التي كان يعتقد أنه يمكن تحقيقها من خلال وسائل أكثر سلمية وإنسانية. وحذر أيضاً في كتابه من مخاطر تركز الثروة والسلطة في يد القلة، ودعا إلى التوزيع العادل للسلطة الاقتصادية والسياسية. واعتقد كولي أن مهمة التوفيق بين المصالح المتصارعة كانت مشكلة محورية لكل أنماط التنظيم الاجتماعي، ولكنها مهمة يمكن إنجازها على الرغم من ذلك.

في العقد الأخير من حياته، أصبح كولي أكثر استقراراً ورضاءً. فقد اعترف له زملاؤه بوصفه عالماً بارزاً، وأصبح رئيساً للجمعية الاجتماعية الأمريكية. وعلى الرغم من أنه استمر بالشعور بالتوتر حيال تقديم الأبحاث وإلقاء الخطب، فقد بدأ يستمتع بالجانب الاجتماعي للحياة الأكاديمية بشكل أكبر. وفي العام 1927، نشر كتابه الأخير، وهو مجموعة من المقالات والاقتباسات والتأملات من دورياته، والتي كانت تهدف إلى إلهام الذين يواصلون حياتهم الأكاديمية. وقد أطلق على هذه المجموعة الحياة والطالب (Life and the Student) ، وقد كان كتاباً شخصياً ككتابه الأول أفصح فيه عن جوانب من حياته الخاصة، ولكنه كان أقل خجلاً. وكان كولي قد بدأ بالبحث عن اهتمام جديد في مسألة الأسلوب الاجتماعي عندما أصيب بمرض السرطان. ومات كولي في 8 أيار/مايو من العام 1929، عن عمر يناهز الرابعة والستين.

انظر أيضاً: جورج هربرت ميد.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Howard Becker, Erving Goffman.

أهم الأعمال:

Human Nature and the Social Order . Glencoe, IL: The Free Press, 1902.

Social Organization . Glencoe, IL: The Free Press, 1909.

Social Process . New York: Charles Scribner's Sons, 1918.

Life and the Student . New York: Knopf, 1927.

قراءات إضافية:

Edward C. Jandy. Charles Horton Cooley: His Life and His Social Theory .. New York: The Dryden Press, 1942

أوغست كونت (Auguste Comte)

يعتبر كونت مؤسس «علم الاجتماع»، المصطلح الذي ابتكره في العام 1839 للإشارة إلى العلم الناشئ عن المجتمع. كما إنه أوجد فلسفة جديدة وهي الفلسفة الوضعية التي تؤكد بدورها أهمية حصر المعرفة بما يمكن ملاحظته. وأدت هذه الفلسفة إلى ابتداعه ديناً علمانياً جديداً وهو «دين الإنسانية»، فضلاً على أنه مهد الطريق لمجال أكاديمي جديد ـ تاريخ العلوم ـ الذي وضع التطورات العلمية في سياقها التاريخي. ولد كونت في مونبيلييه في فرنسا في العام 1798، في نهاية الثورة الفرنسية التي أسقطت بدورها قوانين ومعتقدات تقليدية. ولم يعد هناك إجماع بالنسبة إلى ما يعتبر شكل حكومة شرعية أو كيفية تنظيم المجتمع. وقد شارك كونت معاصريه توقهم الشديد إلى يقينيات جديدة ومجتمع جديد متماسك. وكمراهق، رفض كونت ولاء أبويه للملكية وللكنيسة الكاثوليكية. ولكونه طالباً متقد الذكاء في علم الرياضيات، قُبل كونت في سنٍ مبكرة في مدرسة الفنون المتعددة (Ecole Polytechnique) ، وهي مدرسة هندسية مرموقة في باريس. غير أنه طرد منها في العام 1816 بسبب مواقفه الثورية؛ وبعد ذلك عمل من العام 1817 وحتى العام 1824، كاتباً لدى المصلح الاجتماعي هنري دي سان ـ سيمون (Henry de saint-Simon) . وبفضله تعلم كونت التفكير من منطلق إعادة بناء المجتمع على أساس الصناعة والفلسفة الوضعية التي ترسخت فيما بعد في العلوم، وبخاصة في دراسة المجتمع. ولأنه كان دائم البحث عن طريقة وسط معتدلة، فقد تأثر كونت بمفكرين يمينيين ويساريين على حد سواء، مثل ماري ولستونكرافت (Mary Wollstone-craft) ودافيد هيوم (David Hume) ومونتيسكيو (Montesquieu) وكوندورسيه (Condor-cet) وجوهان هيردر (Johann Herder) وإيمانويل كانط وجوزيف دي ميستر (Joseph de Maistre) . وفي العام 1826، قام كونت بأولى محاولاته لجمع المعرفة وتقديمها في محاضرة عامة، ولكنه أصيب بالاكتئاب الجنوني والبارانويا، وأُدخل إلى المستشفى للعلاج. وعقب خروجه من المصحة العقلية بشهورٍ قليلة عمل كونت كاتباً صحافياً في طائفة السان ـ سيمونيين، على الرغم من أنه أقصى نفسه عن هذه الطائفة. واستطاع كونت أخيراً الحصول على وظيفة مساعد مدرس في

الرياضيات وموظف مختص بالتحاق الطلاب بمدرسة الفنون المتعددة عمل في المدرسة من العام 1832 وحتى العام 1851، وبعد فصله من هذه الوظيفة ساعده تلاميذه حتى وفاته في العام 1857.

نُشرت أعظم أعمال كونت، Cours de philosophie positive ، في ستة مجلدات في الفترة ما بين العام 1830 والعام 1842. وقُدمت الفلسفة الوضعية في هذا العمل، والتي مثلت مجموع كل المعارف القائمة على الأسلوب العلمي الوضعي. وأوضح كونت أن المعرفة العلمية يجب أن تُستمد من رصد الظواهر الثابتة. ومع ذلك فإن للإمبريقية حدوداً، إذ إن التراكم المحض للحقائق لا يمكن أن يؤدي إلى إدراك كامل للواقع، فمن المستحيل تحقيق مثل هذا الإدراك. وإضافة إلى ذلك، فإن الحقائق لا يمكن حتى إدراكها من دون توجيه نظريات انتقالية قبلية. ويجب أن يتم التحقق من هذه النظريات عن طريق الاستقراء والاستنتاج، وهما عمليتان مهمتان جداً لأي استقصاء علمي. وبشكل مشابه يجب كذلك أن تكمل العقلانية الإمبريقية؛ إذ إنه لا يمكن تحويل العلوم إلى علوم تجريبية محضة؛ فاستخدام التجريد والخيال أساس في بناء القوانين العلمية من الملاحظة. ويتكون أساس هذه القوانين العلمية من القدرة على التنبؤ. وبناءً على تصنيف كونت للعلوم، فإن هناك ستة مجالات وصلت أو أنها تصل إلى الوضع العلمي. وتتضمن الفلسفة الوضعية هذه العلوم الأساسية الستة، وهي كالآتي: علم الرياضيات، وعلم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، والأحياء، وعلم الاجتماع. وناقش كونت تاريخ كل علم موضحاً علاقته بتطور العلوم الأخرى والمجتمع بشكل أكبر. وعلى الرغم من أن كونت لم يستطع قط الحصول على كرسي في تاريخ العلم، إلا أنه قد حصل على الأستاذية في الكوليج دو فرانس (Collège de France) في العام 1892.

أكد كونت أن علم الاجتماع، آخر العلوم، يدخل مرحلة اليقين، ويمثل الركيزة الأساسية للنظام الوضعي؛ فبمجرد أن تصبح دراسة المجتمع ـ بما في ذلك السياسة ـ وضعية، فستتمتع النظرية الاجتماعية بسلطة النظريات الأخرى في العلوم الطبيعية، ويمكن استخدام مبادئها العقلانية في إعادة بناء عالم ما بعد الثورة. وينقسم علم الاجتماع إلى جزأين، هما: الثوابت الاجتماعية والديناميات الاجتماعية، اللذان غرسا على التوالي مشاعر التضامن مع أفراد المجتمع الآخرين، وإحساس تواصل الأجيال الماضية مع الأجيال المستقبلية. وبالتركيز على تنظيم المجتمع، تعرضت الثوابت

الاجتماعية لدراسة أساس النظام الاجتماعي، واستقصت القيم الأخلاقية والأسرية. وبمعالجة تطور المجتمع وتقدّمه، تمثل الديناميات الاجتماعية الدراسة العلمية للتاريخ.

كان القانون الرئيس لعلم الاجتماع، أو ـ لنكن أكثر تحديداً ـ الديناميات الاجتماعية، قانون كونت الشهير ذا المراحل الثلاث. وأكد هذا القانون أن كل فرع من فروع المعرفة وكل بنية سياسية واجتماعية تمر بمرحلة لاهوتية ميتافيزيقية وضعية من التاريخ. ففي المرحلة اللاهوتية، يحاول الناس فهم العالم من حولهم، وذلك عن طريق عزو الحوادث إلى فعل واحد أو أكثر من الآلهة. (وهناك ثلاث مراحل فرعية وهي: الفتشية والتعدد الألهي والتوحيد). وكانت تستخدم الأفكار الخارقة للطبيعة لربط الملاحظات. وأما في المرحلة الميتافيزيقية الانتقالية، فإن الكيانات المجردة كالطبيعة والعقل تحل محل الإله. وفي الحقيقة كانت المرحلة الوضعية على وشك البدء. ويتجنب الناس في هذه المرحلة قضايا الأصول أو الأسباب الأولى، ويركزون على شرح كيف، وليس لماذا، عملت الظاهرة. إن استبدال الآلهة والأفكار التجريدية الميتافيزيقية، سيؤدي بالضرورة إلى تحول القوانين العلمية إلى كونها وصفية.

لقد مر كل من العلوم الستة بهذه المراحل الست وفقاً لبعدها عن البشر وبساطة الظواهر التي تجري دراستها. وبالتعامل مع أكثر الظواهر تعقيداً، وهي الأقرب إلى الإنسان، فإن علم الاجتماع قد تطور أخيراً. وتم تطبيق الطريقة العلمية أو الوضعية بشكل حتمي على الظواهر الاجتماعية، وذلك بسبب حدوث علاقة متبادلة بين أوجه المعرفة. وقد أُجبر العقل على جعل كل الأفكار متجانسة، وبذلك سيتم في نهاية المطاف تطبيق الأسلوب العلمي أو الوضعي على الظاهرة. وبمجرد أن تصبح كل الأفكار علمية، فإن الفلسفة الوضعية، التي تتضمن كل العلوم الستة، ستكتمل وتتوحد؛ وستُجمع كل فروع المعرفة، ليس على أساس شبيه بقانون نيوتن، الأمر الذي كان أمل سانت سايمون ومفكرين آخرين، ولكن على أساس إيجاد طريقة مشتركة هي الطريقة العلمية، وإيجاد موضوع مشترك للدراسة وهو المجتمع، (يجب أن ترتبط كل نظرية علمية بالحاجات الاجتماعية)؛ فالمعرفة كلها ستصبح «وضعية»، ما يعني بالنسبة إلى كونت أن تكون مؤكدة ودقيقة وحقيقية وبنّاءة ومفيدة ومتناسبة. وبسبب اقتناعه أن النظرية تسبق الممارسة، وأن الأفكار تدير الكون، أكد كونت أن الانسجام الفكري الذي ينبعث من الفلسفة الوضعية سيؤدي إلى مجتمع صناعي مستقر.

مع ذلك اعتقد كونت، الذي كان يعيش في الفترة الرومانسية، أن العقل لا يمكن أن يُشبع كل الحاجات، وأن العواطف هي التي تشكل أفكارنا وأفعالنا وتحدد سعادتنا. فالبشر لا يتميزون بالعقل فحسب، ولكن أيضاً بنزعتهم الاجتماعية الفطرية: فقد أكد كونت أن علم فراسة الدماغ أثبت أن كل البشر كائنات محبة وودودة بفطرتها. ولذلك فالإجماع الذي يشكل أساس المجتمع يجب أن يكون موضوعياً وفكرياً. غير أن الإجماع لم يكن موجوداً في منزل كونت؛ فبعد أن تشاجر كونت مع زوجته كارولين ماسين، وافق على طلبها بالانفصال عنه. وفي العام 1842م انتهى زواجهما الذي دام 17 عاماً. وبعد ثلاث سنوات أحبّ كونت بجنون كلوتايلد دو فو (Clotilde de Vaux) ، وهي كاتبة روائية طموحة صغيرة السن، توفيت في العام 1846م. وقد عززت صداقتهما اهتمام كونت بالعاطفة. وقدمها كونت على أنها مصدر الوحي الذي ألهمه عمله الثاني نظام الفلسفة الوضعية (Système de philosophie positive) الذي ُنشر في أربعة مجلدات بين العام 1851م والعام 1854م.

وفي هذا الكتاب تحولت فلسفة كونت إلى دين صمم خصيصاً من أجل لمّ شمل الناس، وذلك للتأثير في تطور المجتمع، أي الإنسانية. ولأن الإنسانية ليست كياناً ميتافيزيقياً، فيجب أن تتمركز في العالم الفكري للناس وفي حياتهم العاطفية والعملية كذلك. وكان من بين أهدافه الرئيسة تشجيع «الإيثار»، وهو مصطلح ابتكره. وجعل كونت من الأخلاق العلم السابع الذي يبرز دور الأفراد في المجتمع.

في بنائه لـ «دين الإنسانية» الخاص به، استنتج كونت تعاليم مختلفة اعتقد أنها ستجدد حياة الناس العاطفية؛ إذ اعتقد أن تلك الحياة العاطفية تعرضت للخطر مع نمو «الوضعية» أو علمية الوجود الحديث. وبسبب تأثر كونت بالثوريين، أقام مهرجانات وحدد تقويماً جديداً ليحتفل بذكرى أعلام الماضي البارزين مثل أرسطو ويوليوس قيصر ودانتي. وفقد كان يعتقد أن طائفة الموات كانت مهمة في تعزيز التواصل البشري. وكانت نشأته الكاثوليكية ذات أثر واضح في إصراره على خلق قرابين مقدسة جديدة لتذكير الناس بصلاتهم بمجتمعهم. وبتقليده نابليون، شدد كونت على أهمية إنشاء مدارس وضعية لغرس المبادئ الفكرية والأخلاقية في الأذهان، إضافة إلى إحياء الفنون والآداب للتعويض عن «جفاف» العلوم التي سيتم قصر البحث فيها إلى الأمور ذات الصلة بالحاجات البشرية. وفضلاً عن ذلك أراد كونت للفلسفة الوضعية أن تحتضن الفتشية التي حولها

إلى نموذج يمثل بصورة مصغرة الإحساس الخيِّر والتلقائية والتواضع والصلابة. فمؤيدو الفلسفة الوضعية لم يعبدوا الآلهة الملموسة المدركة بالحواس كما فعل أتباع الفتشية الأُوَل؛ وبدلاً من ذلك فإنهم عل استعداد لتبجيل مخلوقات جماعية مجردة مثل «الكائن العظيم» (الإنسانية) و«الفتش الأعظم» (الأرض) و«البيئة العظيمة» (الفضاء). وألقى كونت الضوء على الجوانب الفتشية للفلسفة الوضعية، وذلك ليوضح أن دينه، بخلاف الكاثوليكية والبروتستانتية، سيكون له قبول عظيم لدى الأفارقة والأوشينيين والهنود الأمريكيين. وأن دينه يستطيع أن يجعل تلك الشعوب البدائية متحضرة من دون تدمير تميزهم. ولكونه عالمياً، فإن «دين الإنسانية» سيوحّد العالم أجمع.

يصعب تفسير علم السياسة لدى كونت بشكل مبسط؛ فلأنه عاصر حكومات ملكية وجمهوريات وإمبراطوريات، عمد كونت إلى مهاجمة معاصريه بسبب تركيزهم على التجارب السياسية؛ فبالنسبة إليه يجب أن تأتي الثورة الفكرية أولاً؛ فهي ستؤدي إلى ثورة أخلاقية، ثم إلى إصلاح اجتماعي وسياسي للمجتمع، فكل مجتمع يعكس التكوين السائد للمعرفة. ولتمييز التطور الاجتماعي، دمج كونت قانونه ذا المراحل الثلاث مع مبدئه «فصل السلطات»، حيث تشرف السلطة العلمانية على الأفعال البشرية، وبينما تشرف السلطة الروحية على الآراء والأفكار؛ ففي المرحلة اللاهوتية، هيمن القساوسة على المجتمع، بينما حكم العسكر والملوك. وفي المرحلة الميتافيزيقية، كان الميتافيزيقيون والمحامون هم المسؤولين في فترة انتشرت فيها البرلمانات. وأما في العهد الفتشي فإن الجمهوريات كانت هي المعيار. وسيهيمن العلماء ورجال الصناعة على المجتمع إن استطاعوا أن يطبقوا المعرفة العلمية. ولم يؤيد كونت قط حكومة توتاليتارية من العلماء. وفي الواقع اعتقد كونت أن علماء عصره كانوا محدودي الفكر، وأنهم اختصاصيون أنانيون؛ فالعلماء الذين يمثلون السلطة الروحية كان يجب أن يكونوا فلاسفة وضعيين أو علماء اجتماع ذوي معرفة واسعة بكل العلوم، إذ اعتقد كونت أن هذه المعرفة ستجعل منهم أسخياء. وبوعظهم في معابد الإنسانية سوف ينصحون رجال الصناعة ويتحققون من نزعتهم لإساءة استخدام سلطتهم. وكذلك فإن الصناعيين سيتحققون من أن هؤلاء الفلاسفة الوضعيين سيكرسون أنفسهم للتعليم وإبداء المشورة، فهم لا يستطيعون ممارسة سلطة سياسية أو عملية. ولأنها مسؤولة عن تشجيع النزعة الاجتماعية وروح التعاون، فإن السلطة الروحية سيقويها النساء والعمال لأنهم أكثر عاطفية من أفراد المجتمع الآخرين.

دافع كونت عن «طائفة المرأة»، الأمر الذي يعكس تحيزات القرن التاسع عشر. وأعلن كونت توقه الشديد إلى تحرير المرأة التي كان يرى أنها خبيرة في العواطف. ويرى كونت أن للمرأة دوراً عظيماً في مواجهة سطحية الرجال وفي خلق مجتمع رحيم. وأحيا كونت الصالونات الأدبية لكي يعطي النساء مجالاً ليختلطن بالرجال ويشكلن رأياً عاماً. ومع ذلك فقد كانت نزعته الذكورية واضحة من خلال إصراره على أن لا تمارس المرأة سلطة اقتصادية أو سياسية. كما إنه جعل من العمال مثلاً أعلى وتعاطف مع وضعهم المهمش في المجتمع البرجوازي؛ إذ يجب أن يكون العمال قادرين على تكوين نقابات واتحادات، وأن يمتلكوا أماكن إقامتهم من أجل الاستقرار، وأن يتقابلوا في المقاهي. واعتبر كونت أن معابد الإنسانية والصالونات الأدبية والمقاهي أماكن شعبية مهمة جداً من أجل إقامة علاقات اجتماعية. وندد كونت الذي كان يؤيد العمال في ثورة العام 1848م، بأصحاب العمل بسبب ماديتهم وأنانيتهم. وحتى يتم إصلاح الصناعيين، أوصى كونت أن يتم حكم الجمهوريات الوضعية من قبل حكومة ديكتاتورية مطلقة مكونة من ثلاثة عمال مهتمين بمصالح المجتمع أجمع. ولأن كونت كان معارضاً للقومية والإمبريالية، فقد رغب في أن يكون المجتمع العالمي الجديد مقسماً إلى دول مدينية (وهي دولة ذات سيادة مولّفة من مدينة مستقلة والمناطق الخاضعة لسلطانها المباشر، كأثينا القديمة)، حيث يكون من السهل ربط العائلات بالإنسانية؛ فإذا كان العالم مكوّناً من جمهوريات صغيرة ومتساوية تقريباً حيث يتلقى الناس تعليماً علمياً علمانياً مماثلاً، فستكون فرص الحرب ضئيلة.

كان لكونت تأثير كبيرٌ في مجال علم السياسة وفي المجتمع الأكاديمي؛ فمن ناحية، استخدم معارضو الوضع القائم في الجمهورية الثالثة الفرنسية وأمريكا اللاتينية، وبصفة خاصة البرازيل، فلسفته المناهضة للدين ذات النزعة العلمية، والفلسفة الجمهورية، مع تشديدها على التقدم. وقد جذبت الفلسفة الوضعية أيضاً اليساريين الأمريكيين مثل إدوارد بيلامي (Edward Bellamy) وهربرت كرولي (Herbert Croly) والإصلاحيين والكتّاب البريطانيين البارزين، بمن فيهم جون ستيوارت ميل، وهاريت مارتينو وجورج إليوت. ومن ناحية أخرى، فقد تم استحسان سلطوية كونت وتشديده على الواجبات، والهرمية والنظام كثيراً من قبل حركات الجناح اليميني، مثل فرنسا العمل (Action Française) . إضافة إلى ذلك، أثّرت منهجة كونت العلمية للمجتمع والتاريخ في الفلسفة والآداب والدراسات التاريخية وعلم الاجتماع (بصفة خاصة الخاصة بإيميل دوركهايم). ولا تزال

مخاوف كونت الخاصة بتحويل المجتمع إلى ذرات والاستمتاع بآثار مذهب الشك والهجمات على التخصص العلمي وشجب الأنانية والغرور في المجتمع الرأسمالي ونقد البشر ذوي البعد الأحادي والتوق إلى الدين في العصر العلماني وتأكيد النظرة الاجتماعية خلال التعليم والأعراف العامة مناسبة اليوم.

انظر أيضاً: إميل دوركهايم، هاربيت مارتينيو.

أهم الأعمال :

Cours de philosophie positive . 1830-42. Condensed and translated as Pos-.itive Philosophy of Auguste Comte . 2 vols. New York: D. Appleton, 1853

.A Discourse on the Positive Spirit . 1844. London: William Reeves, 1903

System of Positive Polity . 6 vols. 1851-4. London: Longman Green, .1875-7

.Catechism of Positive Philosophy . 1852. London: John Chapman, 1858

.Appeal to Conservatives . 1855. London: Trübner and Co, 1889

.Subjective Synthesis . 1856. London: Kegan Paul, Trench, Trübner, 1891

قراءات إضافية :

Pickering, Mary. Auguste Comte: An Intellectual Biography , vol. 1. Cam-.bridge: Cambridge University Press, 1993

Scharff, Robert C. Comte after Positivism . Cambridge: Cambridge .University Press, 1995

Wernick, Andrew. Auguste Comte and the Religion of Humanity: The Post-Theistic Program of French Social Theory . Cambridge: Cambridge .University Press, 2001

فريدريك لوبلاي (Frédéric Le Play)

بيار غيوم فريدريك لوبلاي، هو مهندس صناعي وتعدين، وأحد الشخصيات المهمة التي شاركت في تطوير التعليم الفني العالي في فرنسا، وشارك كأستاذ وخبير في العملية الصناعية في روسيا ودول أوروبية أخرى. وُلد فريدريك في إحدى القرى الصغيرة في النورماندي في العام 1806م، ونشأ في أسرة كاثوليكية محافظة، وتخرج من مدرسة الفنون المتعددة، ومن مدرسة التعدين، وعمل أستاذاً جامعياً في علم المعادن، غير أنه استقال من وظيفته عقب ثورة 1848م، وكرس حياته لخلق «علم المجتمع» الذي يقوم على الكيمياء وعلم المعادن والإحصائيات. وقد رفض الفردانية العقلانية للرأسمالية كما رفض التقليدية الأنانية للمفكرين السياسيين المحافظين الناشئة حديثاً. واعتقد لوبلاي أن تبجيل عصر التنوير للمنطق الخالص كان وسيلة لتفادي المهمة الصعبة للحصول على المعرفة العلمية من خلال البحث الإمبريقي.

لقد جادل لوبلاي أنه يمكن تحسين علم الحكومة باستخدام رؤية الإحصاءات كمزيج من الجغرافيا والتاريخ والقانون والعلوم السياسية والإدارة العامة (الاعتبارات العامة عن الإحصاءات (General Consideration on Statistics)). غير أنه أصبح مقتنعاً بأن على البحوث الاجتماعية أن تركّز على دراسة الحياة الخاصة للمدنيين، بدلاً من التركيز على دراسة الخصائص السكانية أو الموارد الوطنية، كما أصبح مقتنعاً بضرورة الاعتماد على الاستخدام المنهجي للمراقبة المباشرة. ويمثل عمل لوبلاي الإمبريقي الكبير العمال الأوروبيون (The European Workers) ، الذي نُشر في العام 1855، المثل الأول للبحث الإمبريقي على نطاق واسع، والذي يعتمد على أسلوب معياري يجمع بين المراقبتين الميدانيتين الكيفية والكمية. لقد كانت الدراسات الأسرية بمثابة لوحات فنية حية للأسر التقطت جميع الفروق الدقيقة لـ «السعادة الاجتماعية»، في نماذج متفرقة للمجتمعات. وتصور لوبلاي أن الأسرة هي وحدة المجتمع الأساسية، واعتقد أن «السعادة الاجتماعية» تعتمد على «السعادة العائلية»، واقترح إثبات أن العائلات السعيدة، مثل المجتمعات السعيدة، تلبي حاجتين أساسيتين: «لقمة العيش اليومية» ـ أي العمالة المنتظمة والوسائل الاقتصادية

ـ ، و«القانون الأخلاقي» بالمسؤولية تجاه أفراد الأسرة، واحترام السلطة والحفاظ على المال. وقد شمل كتابه العمال الأوروبيون ستة وثلاثين صنفاً من الدراسات (بينما تشتمل الطبعة الثانية على 57 صنفاً) عن الأسر الفردية المنتشرة في أنحاء أوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهي عائلات ضم أفرادها عمال المصانع البريطانية والحرفيين، بالإضافة إلى الفلاحين الروس، والإسبان، والفرنسيين، وعمال المناجم الألمان من جبال هارتز العليا، وصانع ساعات سويسرية، وجامِع خرق باريسي.

استخدم أسلوب لوبلاي الدراسي المراقبة وإجراء المقابلات؛ فأمضى لوبلاي وقتاً مع العائلات التي اختارها بمساعدة «السلطات الاجتماعية: المحلية، وأجرى مقابلات مع مع أرباب الأسر والابن الأكبر فيها، وحصل على المعلومات من المخبرين المحليين. كما إنه استخدم هذه المنهجية لدراسة الترتيبات المؤسساتية التي قد تمثل نجاح أو فشل العائلة في تلبية الحاجتين الأساسيتين لتلك الأسر. وركّز كذلك في ذلك الأمر، على علاقات العمل، وحيازة الأراضي، والبيئة، والمنظمات المهنية والجمعيات التطوعية. وتصور لوبلاي نظام مساحة الملكية ثنائي البعد؛ حيث يقدِّم ما يُعرَف بالمحور الأفقي أربعة نماذج من الأنظمة الاجتماعية أو النقابات الاجتماعية، وهي: (البدو الرحل، واتفاقات العمل غير التطوعي، والكفالة، والعمالة الصناعية)، بينما يقدم المحور الرأسي سبعة نماذج من العمال (عمال المنازل، والعمال اليوميون، والعامل المستأجر، والعامل بالقطعة، ورئيس الحرفيين، وصاحب العمل، وصاحب الملك)؛ وركزت الدراسة على نقاط التلاقي بين البعدين، مقدمة توزيع دراسات الأسر باختيار واحدة على الأقل من كل مجموعة.

لم يؤمن لوبلاي بالبحث عن القوانين العرضية العامة، وإنما سعى إلى تعميمات نموذج مختلف عن طريق دراسة الأسلوب الذي تعمل به الأسرة لتحديد ترتيبات العمل والترتيبات المؤسساتية التي يمكن أن تؤدي إلى السعادة الاجتماعية (تنظيم العمل (The Organisation of Work). من الجدير ذكره أن لوبلاي استخدم أساليب تصنيف معقدة لجمع المعلومات عن ميزانية الأسر كجزء محوري لدراساته الأسرية. واعتقد لوبلاي أنه بمطابقة إجمالي مداخيل ميزانية الأسرة مع إجمالي إنفاقها يمكنه التحقق أنه قام بحساب أوجه الحياة المختلفة بالنسبة إلى الأسرة. وكانت معرفة مداخيل الأسرة يعرض الطرق المختلفة لحصول عوائل العمال على عيشها. وشملت جميع موارد

كسب العيش ـ الدخل النقدي، والدخل في النوع وقيمة الممتلكات المملوكة. وفيما يتعلق بالإنفاق فقد تم تسجيل جميع تفاصيل الحياة من مأكل وملبس ومسكن ونفقات احتياجات معنوية ومالية (كالضرائب والفوائد والديون والتأمين والمساعدات الاجتماعية المتبادلة) بدقة، وتم تحليل نزعات الإنتاج والاستهلاك بطرق تنبأت بالتحليلات المعيارية السائدة للمعيشة.

من دون جميع مساهمات لوبلاي حاز تفصيل نماذج الأسر (في كتاب تنظيم الأسرة (The Or- ganisation of the Family)) على إعجاب الجميع من معلقين وتلامذة. فقد قارن لوبلاي ما بين الأسرة الأبوية، والأسرة «الجذر»، والأسرة غير المستقرة على أساس ممتلكات الأسرة وطبيعة تكوينها والعلاقات بين أفرادها وقوانين الميراث المعمول بها داخل تلك الأسرة؛ فالأسرة الأبوية تعتمد على الملكية الجماعية، وعلاقات أسرية صارمة، وذهاب الميراث (والعناية بالوالدين) إلى الابن الأكبر، بينما تعتمد الأسرة الجذر على اختيار أحد الأبناء لأخذ الإرث والعناية بالوالدين كبار السن والإخوة الذين لم يهاجروا. وأما الأسرة غير المستقرة الضعيفة فتعتمد على الملكية الخاصة، وفي ظل تآكل سلطة الوالدين، يتم توزيع الإرث على الجميع بالتساوي، ولا يوجد هناك أي مسؤولية تجاه الوالدين كبيري السن المنعَزلَيْن. وتعتبر الأسرة الجذر التوازن المثالي بين التقليد والتغير الموجود في البلدات الصغيرة والقرى في البلدان الأنكلوسكسونية، فيما توجد الأسر غير المستقرة في المجتمعات المدنية الكبرى، مثل فرنسا حيث يضمن قانون الميراث التقسيم المتساوي للممتلكات.

انتُقد أسلوب لوبلاي في الدراسة لكونه وصفياً للغاية، وتعميمه استنتاجاته من الأسر الفردية على المجتمع كله، (كتاب الدستور الإنكليزي)، وبأنه منحاز لتركيزه على الألفة والتعاون الاجتماعيين وفشله لذكر النزاعات والخصومات في الأسرة والمجتمع. وعلى الرغم من هذه الانتقادات، فليس من المبالغة الادعاء أنه تم لأول مرة دراسة الجماهير العريضة الصامتة وغير المتعلمة من الفلاحين والعمال في أوروبا بطريقة علمية بأساليب تضاهي جداً الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية المعاصرة. وبسبب اهتمامه بمشاكل التنقل والتغير الاجتماعيين في زمن التطورات السياسية والاقتصادية السريعة، فقد قام لوبلاي بقفزة حاسمة إلى ما عُرف فيما بعد بعلم الاجتماع الإمبريقي.

إن أعمال لوبلاي مليئة بالاهتمامات العلمية والمقولات الأيديولوجية التي من الصعب التوفيق فيما بينها. غير أن التناقض الظاهري يمكن أن يعكس ببساطة فكرة مختلفة عن العلم الاجتماعي، برزت

في النصف الأول من القرن التاسع عشر في بداية ظهور ذلك العلم. فهو لم يخفِ الصلة بين أبحاثه العلمية والمعتقدات الأخلاقية التي أراد أن تخدمها أبحاثه. وقد جمعت تفسيراته للمجتمع الأفكار المحافظة والأفكار الليبرالية حول النظام الاجتماعي والتغير الاجتماعي لدرجة أنه قدمها، كعضو مرشح لمجلس الشيوخ الفرنسي، كرؤية لحل المشاكل (الدستور الأساس للإنسانية (The Essen-tial Constitution of Humanity).

وكمُصلح اجتماعي، ولأنه كان مقتنعاً بأنه اكتشف بطريقة علمية حقائق اجتماعية، فقد ترجم لوبلاي اكتشافاته إلى مقولات أيديولوجية، فشجب العقيدة الزائفة للثورة الفرنسية (قوانين المساواة في الإرث)، ودعا إلى العودة إلى الدين، والسيادة المحلية، وإلى التقاليد وسلطة الوالدين. وبعد وفاته في العام 1882م، ظل طُلابه وأتباعه، لعقود عديدة، ينشرون تلك الدراسات الأسرية في صحيفة The Workers of Two Worlds . وقد كان لآراء لوبلاي أثر دائمٌ، وذلك من خلال إنشاء صحيفتين، إحداهما في فرنسا والأخرى في بريطانيا. ومع ذلك فقد أدى فشل أتباعه المتكرر في كبح الانشغالات الإصلاحية والأيديولوجية إلى تهميشهم أكاديمياً، وإلى الانتشار المحدود لأسلوبه في إجراء الدراسات.

إن منهجية وأفكار لوبلاي مهمة من حيث إنها توضح، حتى في المراحل الأولية، أن علم الاجتماع قدم بديلاً حقيقياً للفلسفة الوضعية الكونتية. ربما لم يوجد أي مشروع تحليل داخلي ثابت، سواء رجعي أم ليبرالي، يمكن أن ينتج تلك الأنواع من الاهتمامات والتوترات التي استجابت معها سوسيولوجيا لوبلاي الإمبريقية المقارنة، ما أكد صلته المستمرة في حقبة تهتم بتحليل السياسة.

انظر أيضاً: تشارلز بوث ، بنيامين سيبوم راونتري.

أهم الأعمال:

.Vues générales sur la statistique . Paris: La Nouvelle Encyclopédie, 1840

Les Ouvriers européens. 1855. 6 vols. Tours: Mame. 2 nd ed. 1877-9. Partial translation of vol. 1 in C. Zimmerman. Family and Society . London, 1936.

L'Organization de la travail . Tours: Mame, 1870.

L'Organization de la famille . Tours: Mame, 1871.

La Méthode de la science sociale . Tours: Mame, 1879. Re-edited Paris: Meridiens-Klincksieck, 1989.

La Constitution essentielle de l'humanité . Tours: Mame, 1881.

Les Ouvriers des deux mondes . Monograph Series, Paris: International Society of Practical Studies of Political Economy, 1857-1912.

ويمكن الاطلاع على بعض المقتطفات في:

Catherine Bodard-Silver, ed. Frederic Le Play: On Family, Work and Social Change . Chicago: University of Chicago Press, 1982.

قراءات إضافية:

Catherine Bodard-Silver. Introduction. In Catherine Bodard-Silver, ed. Frederic Le Play: On Family, Work and Social Change . Chicago: University of Chicago Press. 1982.

Michael Z. Brooke. 1970. Le Play, Engineer, and Social Scientist: The Life and Work of Frederic Le Play . Harlow: Longman.

B. Lecuyer. 1992. Frederic Le Play fondateur de la science sociale. Extraits de communications du groupe d'etudes des methodes de l'analyse sociolo-
.gique , vol. 54. Paris: CNRS/Paris IV

جورج لوكاش (Gyorgy Lukacs)

بوصفه مُنظِّراً أدبياً وفيلسوفاً سياسياً، يُعدّ لوكاش من أكثر شخصيات القرن العشرين تأثيراً. وقد كان كتابه التاريخ والوعي الطبقي (History and Class Consciousness) أكثر ما لفت الانتباه إلى العلوم الاجتماعية، وهو عمل أثر في الفكر اليساري بدءاً من أدورنو وماركوس إلى ميرليو ـ بونتي وريموند وليامز، ومن لوسيان غولدمان إلى والتر بنيامين. وإضافة إلى ذلك، فقد كانت تضم دائرته من الأصدقاء بعض مشاهير القرن أمثال ماكس فيبر، وجورج سيميل، وإرنست بلوتش، وفيردينانند تونيس، وكارل مانهايم، وكارل كورتش، والروائي توماس مان، والملحن بيلا بارتوك.

ولد لوكاش في المجر ونشأ في بودابست، وكانت الألمانية هي اللغة التي كتب بها مقالاته؛ إذ قدمت إليه مصادر غنية للألفاظ والتعبيرات الفلسفية. فقد نشأت والدته في فيينا وبذلك اكتسبت اللغة الألمانية بسهولة، كما تعلّم والده ـ الذي كان على وشك أن يشغل منصب رئيس بنك جنرال كريديت بالمجر ـ في أوقات فراغه عدة لغات، من بينها اللغة الألمانية. وقد درس لوكاش في جامعة بودابست، كما درس في برلين وهايدلبرغ على يد سيميل وماكس فيبر، ونشر أعماله باسم جورج لوكاش. ومع أنه لم يكن ثورياً في شبابه، إلا أنه ظل شخصية مثيرة للجدل كثيراً طوال حياته. وفي بنائه لعمله اعتماداً على الماركسية الهيغلية كفلسفة تطبيقيه، فقد تسنى له القيام بتطبيقها مرتين كوزير في المجر وهي مهمة لا يُحسد عليها: أولاً في العام 1919م كنائب كوميسار للتعليم في الجمهورية السوفياتية المجرية، وثانياً في العام 1956م كوزير للثقافة بالمجر. وعلى الرغم من أن هذين الحدثين استمرّا لفترة وجيزة، فيمكننا أن ندرك أن عمله كان محاولة لحل التوتر بين رومانسيته الفطرية والروح اليوتوبية ورغبته في دعم المطالب البيروقراطية العقلانية للنظام السوفياتي. وفي الواقع كان عمله عبارة عن مجهود طويل لحل الاختلاف بين «الروح» و«الواقع».

في عمله الأول، ما قبل الماركسية، الروح والشكل (Soul and Form) ، يتناول لوكاش هذه المعضلة؛ فقد احتوى الكتاب على عشر مقالات كُتبت ما بين الأعوام 1907 - 1910م، ويتناول فيها الحقيقة المؤلمة أن طبيعة الحياة الغنية الفوضوية (الروح)، تتخبط عندما يحين إثمارها (الشكل)؛ وفي

الحقيقة فحتى تتحول الروح إلى شكل يعني هزيمتها المؤكدة. وعندما يتوقف اندفاع الحياة اللامتناهي من أجل مثالية ثابتة، سواء كانت فنية أو شخصية، فإن الحياة تفقد حيويتها تحت مسمى زائف. وتظهر هذه الأفكار هنا في أشكال أخرى فيما بعد. وقد تحدى لوكاش ادعاء هيغل بأن هناك عقلانية خفية خلف تفكك الحياة، ورفض فكرة وحدة «كلية» تجمع بين الروح والشكل وتزيل التعارض بينهما. ورفض لوكاش أيضاً الرومانسية الأدبية لجورج نوفاليس، التي كانت تسعى إلى الوحدة من خلال جوهر شعري يتخطّى الواقع. وغطى هذا الرفض للتجربة الشخصية استخدام علم نفس يقصر معنى الأحداث على دوافع الناس في تحقيقها (الأحداث).

عاودت أهمية «الكلية» (Totality) الظهور بشكل أكثر إيجابية فيما بعد في نظرية الرواية (The-ory of the Novel) حيث نجد ابتعاداً عن استحالة تجاوز المعارضة بين التصنيفات (الكانطية) نحو بحث أكثر هيغلية لـ «كلية» موحدة: وهو أمر تابعه لوكاش في الأدب. غير أن آماله لتحقيق هذا في العالم الحديث كانت ضئيلة، بينما وجد في الأوديسا والإلياذة لهوميروس، التوحدات التي كان يتوق إليها؛ ففي تلك الملاحم الإغريقية القديمة لا يوجد فجوة بين الرغبة والواجب، ولا يوجد انشطار بين الفرد والعالم، ولا فصل بين الفاعل والمفعول. إن هذه النظرة الموحدة لا تعرف شيئاً عن الزمن أو التغير؛ فشخصيات الأوديسا تبقى كما هي، على الرغم من الأحداث التي تحدث خلالها. وفقط عند تغير أشكال الفن، يبرز إحساس دنيوي تتساقط معه توحدات الملحمة.

وعلى العكس من ذلك، فإن للروايات الحديثة ـ باستثناء القليل منها ـ القدرة على التعبير عن الحنين إلى هذه الكلية المفقودة. وتنتج تجزئة الحياة الحديثة واستبدادها، وفقدانها البارز للمعاني، روايات تعكس فقط ما أطلق عليه لوكاش «تشردنا المتعالي». فالناس في العصر الحديث لم يعودوا يستقرون في بيوتهم في هذا العالم، ربما يستغلونها لغاياتهم الخاصة، ولكنهم يبحثون من دون جدوى عن معنى فطري. وسواء كان ذلك بتأثير من فيبر أم لا، فإن تلك النظرية قريبة من اعتقاد الأخير بأن العملية الغربية الحديثة لـ «العقلانية» تتطلب «فك الارتباط» بهذا العالم. وبكل تأكيد فقد قرأ كل من فيبر وتوماس مان كتاب لوكاش ووافقاه على ما ورد فيه. وكما هو الحال مع فيبر، فعلى المرء أن يتنبه إلى اعتبار مساهمات لوكاش أنها مجرد تشاؤم رومانسي.

وهناك تواصل بين هذا الكتاب وعمل لوكاش التالي، غير أن الأسلوب والمحتوى قد تغيرا في كتاب التاريخ والوعي الطبقي الذي نُشر في العام 1923م. وبغض النظر عن الحكم النهائي على هذا العمل، فقد مثل في ذلك الوقت التأكيد الأكثر تطوراً للماركسية حتى يومنا هذا؛ إذ لم يعد بالإمكان، بعد نشر كتاب التاريخ والوعي الطبقي ، انتقاد الماركسية لحتميتها الاقتصادية، أو اتهامها بالسذاجة، أو رؤاها «الوضعية» للتاريخ. وإضافة إلى ذلك فإن أثرها ومفاهيمها ما تزال بيننا. فالمفاهيم مثل «التمدية» (reitification) و«السلعية الفتشية» ذكرت بشكل كبير هناك، وأصبحت الآن جزءاً من المفردات التي لا غنى عنها في أي سوسيولوجيا مهمة. ففي حين عرف ماركس تلك الأمور كظواهر اقتصادية، فإن لوكاش مَوْضَعها في قلب الأمور، معتبراً أنها تجاوزت الاقتصاد، ودخلت في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية. فقد تغلغلت القوة المفرطة لمبدإ السلعة في داخل الفرد، طابعة «آثارها في كل الوعي البشري». فالنوعيات والقدرات التي كانت في الماضي جزءاً عضوياً من الشخصية، أصبحت أموراً يمكنه «امتلاكها والتخلص منها مثل أمور العالم الخارجي». وسواء نظر المرء إلى أعمال مدرسة فرانكفورت، وإلى مبدإ غيدنس لـ «العلاقة الخالصة»، أو إلى مبدإ بودريارد للمادة المفقودة في الواقع الممتد، فإن المفهوم الذي نطلق عليه الآن مصطلح تسليع الهوية هو من إرث لوكاش الفكري. وفي الواقع، فإن الماركسية كعلم أكاديمي مهم بدأ هنا.

لقد اعتبر لوكاش الماركسية منهجية متفوقة على المنهجيات الأخرى، لأن «الكلية» كانت محورية لهذا المنهج. وفي حين اعتبر لوكاش في عمله ما قبل الماركسية، برهة قصيرة من الوحدة، وأن التاريخ التالي محاكاة واهية، لأنها تتبع شكلاً تقدمياً دينامياً. واعتبر أن «كل شيء» يظهر في التكوين الموضوعي ينتهي في الشيوعية. وعلى الرغم من ذلك، فـ «الكلية» ليست مادة يمكن تحليلها من الخارج. بل هي عملية تاريخية شاملة تتضمن الموضوع والمادة. وفي الواقع، فالماركسية، شأنها شأن البروليتاريا، توجد داخل هذه العملية وهي نتاجها كذلك. والماركسية هي نتاج هذه العملية وهي كذلك النظرية التي يمكنها إدراك «الكلية». وبالتأرجح بين المادة والموضوع، فإن للأسلوب الماركسي الدياليكتيكي القدرة على الوصول إلى ما وراء المظاهر الإمبريقية لمعرفة كيف تنشأ «الحقائق». إن رفض ترسيخ الفلسفة الوضعية بالحقائق الإمبريقية أمر مألوف في عصرنا هذا، ولكن لوكاش كان من أوائل من نادوا بأن الحقائق تكون ذات معنى عندما تتموضع في الإطار الذي أنتجها.

وفي تشديده أكثر على تطبيقها العملي، فقد عرّف البروليتاريا أنها «تطابق الموضوع ـ المادة للتاريخ». وعنى «موضوع التاريخ» أن البروليتاريا كانت المحفز الرئيس لجعل التاريخ مثمراً؛ إنها الطبقة العالمية التي يمكنها إقامة كلية موحدة. وكذلك فقد كانت مادة التاريخ هي الغاية الحتمية لها. وبادعائه هذا، قام لوكاش بمزج الماركسية والهيغلية معاً. فالرأسمالية على استغلال وعزل البروليتاريا. وبسبب مركزها البنائي، فقد مثل كفاح البروليتاريا من أجل الوجود الإمكانية التامة للتعالي على الرأسمالية (ماركس). ويمكن تجاوز المشاكل الإبستيمولوجية لإكسابِ الموضوع المعرفة المناسبة للعالم. وللمرة الأولى سيرتبط استيعابنا للعالم ـ من دون تشويش ـ بالطريقة التي كان عليها، وسيرتبط العالم نفسه بفهمنا له (هيغل).

وبكل تأكيد كان لا بد من أن يظهر الخلل في فهم طبقة اجتماعية في مفاهيم ميتافيزيقية عند مواجه الاضطراب السياسي الذي حدث في أوروبا ما بين العام 1917 والعام 1924م. وقد صهر لوكاش مصير البروليتاريا بالمعرفة الماركسية التي أقرها الحزب الشيوعي. فقد كان على الحزب أن يتوسط بين البروليتاريا والتاريخ، وعلى البروليتاريا أن تتوسط بين التاريخ والحزب. لقد كانت علاقة متبادلة. ولكن إذا تخلف الوعي العملي للبروليتاريا عما يجب أن يكون، فإن على الحزب «عزو» الوعي الصحيح إليها. لقد توقف التاريخ المتقلب لكتاب لوكاش على هذه المعضلة. وبالنسبة إلى لينين، فإن الحزب يجب أن يكون متفوقاً إذا ما كان للاشتراكية أن تنجح: إذ إن منح البروليتاريا نفس وضع الحزب سيعوق الثورة. وقد اضطر لوكاش بالتالي إلى التخلي عن موقفه لمصلحة موقف لينين.

لقد طفت هذه القضايا في الآونة الأخيرة في أماكن غير متوقعة. فعندما تدافع النسويات المعاصرات مثل ساندرا هاردينغ عن النظرية «الاستشرافية» في مقابل الإمبريقية النسوية، فإنهن يرددن بشكل واضح ادعاء لوكاش بأن الحقائق الإمبريقية تفهم فقط داخل الإطار الذي أنتجها. وكما ادّعى لوكاش بأن الموقع البنيوي للبروليتاريا يمكن استشرافها من كشف حقيقة الرأسمالية، فكذلك تدّعي هاردينغ أن استشراف النساء كشفت حقيقة المجتمع الأبوي، وتتشابه المشاكل التالية. فإذا فشل الوعي الإمبريقي العملي للنساء، فإنه يجب على النظرية النسوية التدخل والتعديل. حقّاً هناك تحول في المصطلحات من «الاستشراف النسائي» إلى نظرية «الاستشراف النسائي». يُذكر أن النسويات

المعاصرات مثل ستانلي ووايز مدركات أن التعقيدات الخاطئة لهذه الرؤية مثيرة للشفقة بالنسبة إلى الحركة النسوية، ويقمن بجهود لدحضها. وبالتأكيد فبعد ظهور الحركات النسوية السوداء، والسحاقية وما بعد الحداثة، فإن فكرة أن الحركة النسوية غير متلاحمة وأنها مجموعة عالمية باتت فكرة غير قابلة للدفاع عنها، تماماً مثل فكرة لوكاش عن البروليتاريا العالمية.

على الرغم من أن كتاب لوكاش التاريخ والوعي الطبقي ، لفت انتباه الكثيرين، إلا أن اهتمامات لوكاش تحولت بعيداً عن السياسة خلال ثلاثينيات القرن العشرين. فقد تضمن انهماكه بالحداثة الأدبية عموماً وبالتعبيرية (الألمانية) بخاصة، مناظرات ساخنة مع كل من إرنست بلوش وبيرتولت بريخت. فقد استحسن بلوش التعبيرية كرد مناسب على طبيعة الحياة غير المكتملة في العقود الأولى للقرن العشرين. وبالنسبة إلى لوكاش، فقد كان التشديد على الأحاسيس والتأثيرات على حساب الإحالة يعني أن التعبيرية فشلت في الكشف عن الطبيعة القمعية للكلية الأوسع. فقد اشتركت التعبيرية في التشويش على العصور باللعب على رد موضوعي تعبيري على الواقع المؤلم. وفي ردهما أشار بلوش وبيرتولت إلى بعد أفكار لوكاش عن حقائق الإنتاج الفني. وقدم بريخت ككاتب مسرحي (ماركسي) رداً عرضياً بارعاً، مجادلاً أنه بالدفاع عن تقليد النثر الموضوعي المفترض لكتّاب القرن التاسع عشر العظماء أمثال ديكنز وتولستوي وبالزاك، فقد تجاهل لوكاش حقيقة أن الكلية التاريخية قد تغيرت، وتغيرت معها التقاليد الفنية.

لا ريب في أن لدى لوكاش نزعة نحو صقل الأفكار وقياسها من منطلق معرفته المتفوقة المفترضة عن «الكلية». وتظهر هذه الاختزالية في كتابه تحطيم العقل (Destruction of Reason) ، حيث انتقد مجموعة كبيرة من المفكرين ـ شيلنغ وديلتي وكيركغارد ومانهايم وشيلر ـ صراحة متهماً إياهم باللاعقلانية لكونهم غير ماركسيين. وقد كتب في علم الجمال كما كتب دراسة عن الأنطولوجيا الاجتماعية، وهي عمل لم يكمله بسبب وفاته في العام 1971م. ومع أن القصور واضح في أعماله، غير أنهم قليلون هم المؤلفون الذين وضعوا نظرية منهجية بهذا المدى من الطموح المعياري. ولو اعتبرنا أن إثارة الفكر يعد قياساً لنجاح نظرية ما، فقد نجح لوكاش.

انظر أيضاً: ثيودور أدورنو ، كارل مانهايم ، ماكس شيلر.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Zygmunt Bauman, Jürgen Habermas.

أهم الأعمال:

Soul and Form . 1910. London: Merlin Press, 1974.

Theory of the Novel . 1914-15. London: Merlin Press, 1974.

History and Class Consciousness . 1923. London: Merlin Press, 1971.

Lenin . 1924. London: New Left Books, 1970.

A Defence of History and Class Consciousness: Tailism and the Dialectic . 1925 , unpublished. London: Verso, 2000.

The Historical Novel . 1937. Harmondsworth: Penguin, 1976.

Studies in European Realism . 1946. London: Merlin Press, 1972.

The Destulction of Reason . 1952. London: Merlin Press, 1980.

The Meaning of Contemporary Realism . 1958. London: Merlin Press, 1963.

The Ontology of Social Being . 1971. Vol. 1: Hegel and vol. 2: Marx . London: Merlin Press, 1978.

قراءات إضافية:

.Frederic Jameson. ed. Aesthetics and Politics . London: NLB, 1977

Martin Jay. Marxism and Totality . Berkeley, CA: University of California .Press, 1984

Istvan Meszaros. Lukcs' Concept of Dialectic . London: Merlin Press, .1972

.Liz Stanley and Sue Wise. Breaking Out Again . London: Routledge, 1993

هارييت مارتينيو (Harriet Martineau)

عُرفت هارييت مارتينيو كأول امرأة عالمة اجتماع، ومؤرخة وصحافية. وكانت مارتينيو مبتكرة ورائدة في القيام بالأبحاث الاجتماعية، وفي صوغ ميثودولوجيا لعلم الاجتماع، وفي تكوين براديغما سوسيولوجية لدراسة المجتمعات كلها، وفي تحليل آثار التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، وفي إيصال المعرفة السوسيولوجية إلى العامة، وفي المشاركة في الحوار حول العلم الاجتماعي المبكر. وفي حقبة لم تكن النساء قادرات على الالتحاق بالجامعات البريطانية وكان يجري قبولهن ببطء في الحلقات العلمية، تخطت هارييت كل هذه العقبات وقامت بالكثير من الأبحاث، فنشرت الكثير من الأعمال. فقد نشرت وهي فيما بين التاسعة عشرة والرابعة والسبعين من عمرها أكثر من سبعين كتاباً والعشرات من المقالات في الدوريات والمنشورات الأخرى، وكذلك ما يقرب من 2000 افتتاحية صحافية ومقالة ورسالة. وتضمنت أعمالها تصوراً خيالياً للاقتصاد السياسي، والدراسات الماكروسوسيولوجية لعدد من المجتمعات، ورسائل في القانون والاجتماعيات والمرض، ومقالات صحافية ووصف الأحداث، وأبحاث دينية، وتصوير الرحلات، وروايات، وقصص قصيرة، وشعر، ومراسلات. واشتملت كتاباتها، من بين مواضيع أخرى، على: الطبيعة البشرية والتطور والتعليم والاجتماعيات والدين والرق والتاريخ الحديث والكولونيالية والعمل والصناعة ووضع النساء.

ولدت هارييت مارتينيو في العام 1802م، وهي الرابعة بين ست أولاد، لأسرة وحدوية من أصحاب المصانع والطبقة المتوسطة في نوريش في إنكلترا. ولم يكن يسمح للنساء في العقود الأولى من القرن التاسع عشر من متابعة التعليم العالي، ومع ذلك فقد استكملت مارتينيو تعليمها الجامعي، فدرست اللغات والتاريخ والأدب والفلسفة، ومواضيع أخرى واسعة في الإنسانيات والعلوم. وقد كان لذكائها وفضولها وطفولتها المريضة وفقدانها للسمع وهي في الثانية عشر من عمرها، دافعاً لاهتمامها بقراءة الكتب بشكل كبير. وعندما أصبحت في أواخر العشرينيات من عمرها، أصبحت صماء تماماً، وبدأت باستخدام سماعات الأذن التي أصبحت فيما بعد أداة للحديث وفاتحة جيدة للمقابلات. وعلى الرغم من خطوبتها في الرابعة والعشرين من عمرها، غير أنها لم تتزوج لمرض خطيبها ووفاته بعد ذلك

بوقت وجيز. ولم تتزوج البتة، بل فضلت التركيز على عملها، وذلك بسبب هوسها بالأفكار والقيود التي فرضها عليها صممها. واستنتجت مارتينيو أنها «أسعد امرأة عزباء في إنكلترا».

وكابنة عصر التنوير، فقد آمنت مارتينيو بالتقدم الاجتماعي، والكمال البشري وأولوية العقل. وتأثرت مارتينيو بالفلسفة الألمانية (كانط، ليسينغ، هيغل)، والاشتراكية الفرنسية (ديشتال، سان ـ سيمون، أوغست كونت)، والاقتصاد السياسي البريطاني (آدم سميث، توماس مالثوز، دوغالد ستيوارت، دافيد ريكاردو، جيمس ميل)، والنفعية (بينثام، ج. س. ميل) وبأدب أوستن، وبونيان، وميلتون، وشكسبير، وبيكون، وغوته، وفي الأعمال العلمية لدافيد هارتلي (نظرية الجمعية الرابطة) وجوزيف بريستلي (مذهب الضرورة الفلسفية). وبعد نشر ما يقرب من 100 مقالة وقصة قصيدة شعرية في المجلة الوحدوية Monthly Repository وهي لم تزل في العشرين من عمرها، انخرطت مارتينيو في مشروع مكون من 25 رواية قصيرة نُشرت بعنوان إيضاحات الاقتصاد السياسي (Illustrations of Political Economy) ، من أجل إيضاح مبادئ الاقتصاد السياسي، وذلك بناء على قناعاتها بأنه ما دام الاقتصاد والمجتمع يعملان طبقاً لقوانين طبيعية فطرية، فإن انسجام النظام الاقتصادي الناشئ وتأثيره ورفاهية أفراد المجتمع تتطلب أن تدرك جميع الطبقات الاجتماعية إدراكاً تاماً لأعمال الاقتصاد السياسي. وقد تضمنت كل رواية من تلك الروايات تلك المبادئ. وتلا ذلك كتاب إيضاحات الضرائب وقوانين الفقراء والمعدومين (Illustrations of Taxation and Poor Laws and Paupers) . وقد كان يباع من هذه الكتابات، وبخاصة سلسلة الاقتصاد السياسي ، 10.000 نسخة شهرياً، ما ضمن لمارتينيو استقلالاً مالياً، ورسخ شهرتها ككاتبة ومثقّفة اجتماعية.

سافرت مارتينيو إلى أمريكا في العام 1834م، حيث أمضت سنتين في القيام بدراسات اجتماعية عامة عن المجتمع الأمريكي. وخلال رحلتها خططت لعملها مسبقاً بكتابة كيف تراقب الطبائع والأخلاق (How to Observe Morals and Manners) . ونُشر هذا العمل في العام 1838م، ويعد أول رسالة ميثودولوجية حول دراسة المجتمع، وقد سبقت الفلسفة الوضعية لكونت، وجاءت قبل عقود من قواعد المنهج السوسيولوجي (Rules of Sociological Method) لدوركهايم. ويحدد كتاب كيف تراقب الطبائع والأخلاق المبادئ العامة للبحث، ومناهج جمع البيانات

ومصادرها، وتقنيات إجراء المقابلات، وأدوات تدوين الملاحظات والبيانات، وتفاصيل ما يجب ملاحظته في دراسة ماكروسوسيولوجية للمؤسسات الأساسية والطبقات والثقافة الشعبية... إلخ. وقد استخدمت مارتينيو في كتاباتها هذه، والكتابات التالية تحليلاً دراسة الرموز لشرح الظواهر كالانتحار والدين كمؤشرات رئيسة للثقافة والسلوك الاجتماعي.

قُدِّمت دراستها في الولايات المتحدة التي استمرت لعامين في كتاب المجتمع في أمريكا (Society in America) ، وهو تحليل ماكرو ـ سوسيولوجي شامل، وفي كتاب استذكار رحلة الغرب (Retrospect of Western Travel) ، وهي دراسة إثنوغرافية لأشخاص وأماكن جغرافية وممارسات ثقافية مختارة في أمريكا. واتسمت دراسة مارتينيو بأسلوب نقدي ملازم، وتحليل يقارن ويقيم التراكيب المعيارية، أي المبادئ السياسية والثقافية وقيم المجتمع الأمريكي في هذه الحالة، كما هو موضح في الوثائق، والعقائد، والسياسة، والمؤسسات الاجتماعية، إضافة إلى الممارسات الاجتماعية وسلوك أفرادها. واعتبرت مارتينيو أن المسائل المحورية لهذه الديمقراطية الفتية كانت المساواة والعدل. وما كان يتناقض مع التزامات أمريكا تجاه حقوق الأفراد و«الحكم بموافقة الرعية» قوانين الرق وممارساته، وتابعية المرأة، إن لم يكن اضطهادها. وبعد تقديم اكتشافاتها ومناقشتها تخلص مارتينيو إلى القول: إن حضارة وطبائع الأمريكيين أدنى من مبادئهم أنفسهم». ولا بد من حل هاتين المشكلتين إذا كان لا بد للمجتمع الجديد من أن يستمر. ويمكن مقارنة دراسة مارتينيو عن أمريكا بكتاب أليكسيس دو توكفيل الديمقراطية في أميركا (Democracy in America) . وفيما يتفقان في العديد من النقاط العامة حول الديمقراطية (الأمريكية) الفتية، فإن منظوريهما (كرجل فرنسي وامرأة بريطانية) وتحليلاتهما مختلفة تماماً. فقد كانت مارتينيو أكثر منهجية، وشمولاً، وإمبريقية في بحثها، ويعتبر كثيرون أن كتبها حول أمريكا أكثر شمولاً وعلمية.

لقد دمجت هارييت مارتينيو حياتها بعملها من خلال رحلاتها، وقراءاتها وأبحاثها وكتاباتها. وقد استمرت بالكتابة حتى في فترات مرضها بين عامي 1839م و1844م، وفي العام 1855؛ إذ كتبت الحياة في حجرة التمريض (Life in the Sickroom) ، و رسائل عن التنويم المغناطيسي (Letters on Mesmerism) عالجت فيها الأوجه الاجتماعية للمرض، وكذلك الصحة والعلاجات المحتملة. وكتبت في العام 1855 سيرتها الذاتية التي طبعتها واحتفظت بها ليتم

نشرها بعد وفاتها، وبذلك تحكمت بقصة حياتها. واستغلت فترة نقاهتها وتماثلها للشفاء في كتابة الساعة والإنسان (The Hour and Man) عن ثورة هايتي، وهي عبارة عن قصص أخلاقية للأطفال، ونقد لقوانين اللعبة التي وُضعت لإفادة الطبقات العليا وغبن الفلاحين والفقراء. وفي العام 1846م سافرت مارتينيو إلى الشرق الأوسط، ومكثت هناك سبعة أشهر تجري دراسات عن مصر وسيناء وفلسطين وسوريا. وسجَّلت ملاحظاتها واكتشافاتها في كتاب حياة الشرق: الماضي والحاضر (Eastern Life: Present and Past) ، تثبت فيها أن الديانات اليهودية والنصرانية والإسلامية مرتبطة فيما بينها، أنها مستمدة من الديانة المصرية القديمة، واستشهدت على ذلك بأساطير وممارسات موجودة في المعالم المصرية القديمة. وقد كانت مارتينيو مقتنعة، كعالمة اجتماعية، أن الدين هو أحد المؤسسات الأساسية للمجتمع، ولكن ذلك تغير كثيراً من خلال تأريخ الأساطير. وتوصلت مارتينيو في نهاية المطاف إلى أن الدين الممأسس هو دين استبدادي، خاصة بالنسبة إلى المرأة والرق في الإطار الأمريكي، لأنه يقاوم التغيير ويقمع الفردية والحرية؟ وكانت على قناعة أن العلم يوفر طريقاً أوضح إلى الحقيقة، وإلى الفهم والتسامح والمعرفة. واعتقدت أن الدين في حقبة عصر العلم يجب أن يأخذ أشكالاً أكثر عقلانية وأخلاقية، مثل تلك الموجودة في الوحدوية والطوائف المعارضة والثقافة العلمانية.

وقد قادها التزامها بأهمية العلم في العالم الحديث إلى التعاون مع هنري جورج أتكنسون (Henry George Atkinson) في كتاب رسائل حول قوانين طبيعة البشر والتطور (Letters on the Laws of Man's Nature and Development) ، وهو عبارة عن مجلد من الرسائل المتبادلة حول القوانين الكونية الطبيعية، وحول مادية العقل والوجود الإنساني، والحاجة إلى دراسة السلوك البشري والشؤون العلمية البشرية، وضرورة استخدام المعرفة العلمية في أمور التشريع والتعليم والنظام الاجتماعي. وشددت تلك الرسائل بشكل خاص على عمومية السبب والأثر والحاجة إلى أدلة إمبريقية.

رحبت مارتينيو بالفلسفة الوضعية الحديثة، وتبنت تشديدها على الوحدة الفطرية للعلوم وتأثير قوانين الطبيعة على الوجود البشري وأهمية الميثودولوجيات العلمية والمعرفة الإمبريقية والدور الحاسم للعلم في التغير والتقدم الاجتماعي في المجتمع. ومنذ العام1830م، دأبت مارتينيو على

قراءة علم الاجتماع الفرنسي، بما في ذلك كتابات سان سيمون. وفي العام 1853م، أكملت مارتينيو ترجمة وتلخيص مجلدات أوغست كونت الفلسفية الستة Cours de philosophie positive في جزأين، واعتبرت ذلك تخطيط للعلوم وأساس ميثودولوجي صحيح للعلم السوسيولوجي الجديد. وتبقى ترجمة مارتينيو هي النسخة الإنكليزية المعتمدة لعلماء الاجتماع. وقد كانت مهتمة بـ «قانون المراحل الثلاث»، اعتبرت أن التحول المعرفي نشأ عن المرحلة الثيولوجية إلى مرحلة تالية فلسفية أو ميتافيزيقية وأخيراً إلى المرحلة العلمية. وقد كانت مقتنعة بهذه المراحل لدرجة أنها صاغت قصة حياتها في سيرتها الذاتية من منطلق قانون المراحل الثلاث. وخلال هذه الفترة روجت لفكرة العلم الاجتماعي، وعلم الاجتماع، جزئياً من خلال «الجمعية القومية لتنمية العلوم الاجتماعية»، ولكنها أوضحت أن «العلوم الاجتماعية غير موجودة حتى الآن... إن علم المجتمع الحقيقي هو إنشاء القوانين التي تعيش البشرية في ظلها». كما أكدت أن «أفضل ممارسة يجب أن تنشأ عن نظريات صحيحة».

من المهم الإشارة إلى نسوية مارتينيو التي انعكست في دراستها عن أمريكا والشرق الأوسط، وأيرلندا، والعديد من الدراسات الإمبريقية. وكانت مارتينيو أول من بدأ البحث في مجالات مثل السوسيولوجيا الصناعية، وسوسيولوجيا المهن، والتعليم، والدين، والصحة، والمرض، والإعاقة، والاقتصاد السياسي، والكولونيالية، والزواج، والعائلة، والأعراق، والعلاقات، والمرأة، والعمل والمواضيع الرئيسة لعلم الاجتماع. وكانت مارتينيو نشطة في قضايا المرأة مثل إصلاح قوانين الزواج والطلاق، وحق المرأة في التصويت وحقوق الأطفال وظروف المصانع، والتشريعات، و«قوانين الأمراض المعدية». وفي هذه الإطارات وغيرها تناولت مارتينيو المشاكل السوسيولوجية المهمة، وعمليات التغيير الاجتماعي والنقاشات الفكرية في عصرها.

توفيت مارتينيو في العام 1876م. وقد أثرت بأفكارها وأعمالها الاجتماعية الكثير ممن جاؤوا من بعدها، مثل دوركهايم، وفيبلن، وميردال، وتشارلوت غيلمان، وبيتريس ويب، ووليام سامنر. وتقدم أبحاث مارتينيو ونظرياتها عدسة مهمة لفحص الممارسات الاجتماعية من منطلقات سوسيولوجية، وتاريخية، وإنسانية، وإحصائية تجاه بناء جسم من المعرفة الاجتماعية المفيدة.

انظر أيضاً: أوغست كونت ، أليكسيس دو توكفيل ، بياتريس ويب.

أهم الأعمال:

.Illustrations of Political Economy . 9 vols. London: Charles Fox, 1832-4

Society in America . 3 vols. London: Saunders and Otley, 1837. Abridged .ed., ed. with an intro. by S. M. Lipset. New York: Doubleday, 1962

.Retrospect of Western Travel . 3 vols. London: Saunders and Otley, 1838

How to Observe Manners and Morals . London: Charles Knight, 1838. Sesquicentennial ed., with intro., appendices and index by Michael R. Hill. .New Brunswick, NJ: Transaction, 1989

.Eastern Life: Present and Past . London: Edward Moxon, 1848

Letters on the Laws and Man's Nature and Development . With Henry G. .Atkinson. London: John Chapman, 1851

The Positive Philosophy of Auguste Comte, freely translated and condensed by Harriet Martineau . 2 vols. London: John Chapman, 1853. Many .later editions

قراءات إضافية:

Michael R. Hill and Susan Hoecker-Drysdale. Harriet Martineau: Theoretical and Methodological Perspectives . New York: Routledge, 2001 and .2003

Susan Hoecker-Drysdale. Harriet Martineau: First Woman Sociologist . .Oxford and New York: Berg Publishers, 1992

Susan Hoecker-Drysdale. Harriet Martineau: The Theory and Practice of Early Critical Social Research. In Mary Ann Romano, ed., Lost Sociolo- .gists Rediscovered . Lewiston, NY: The Edwin Mellen Press, 2002

Susan Hoecker-Drysdale. Harriet Martineau. In George Ritzer, ed., The Blackwell Companion to Major Classical Theorists . Malden, MA: Black- .well Publishing Ltd., 2003

Susan Hoecker-Drysdale, ed. Harriet Martineau: Studies of America, .1831-1868 . 8 vols. Bristol: Thoemmes Continuum, 2004

Robert Nisbet. Tocqueville's Ideal Types. In Abraham S. Eisenstadt, ed. Re- considering Tocqueville's Democracy in America . New Brunswick, NJ: .Rutgers University Press, 1988

توماس همفري مارشال (T. H. Marshall)

كان توماس همفري مارشال أحد أبرز علماء الاجتماع البريطانيين خلال أواسط القرن العشرين. ومثل العديد من علماء الاجتماع البريطانيين، فقد دخل مجال علم الاجتماع بعد أن خاض في علوم أخرى وإثر تجارب شخصية. وُلد مارشال في العام 1893م في أسرة تقطن حي بلومزبيري اللندني (وكانت أخته هي كاتبة اليوميات فرانسز بارتريدج)، وقد تلقى تعليمه في كلية رجبي وترنتي في كامبردج، حيث حصل على المركز الأول في التاريخ في العام 1914م. ولتحقيق رغبته بالالتحاق بوزارة الخارجية، فقد سافر إلى ألمانيا خلال موسم الصيف لدراسة اللغة الألمانية، وحين نشبت الحرب العالمية الأولى تم التحفظ عليه باعتباره عدواً أجنبياً في معسكر الاعتقال بالقرب من برلين خلال فترة الحرب العالمية الأولى.

لقد أثرت فيه هذه التجربة التي خاضها بعيداً عن خلفيته ذات الطبقة الوسطى وهو في العقد الثاني من عمره. فقد كان معسكر الاعتقال يضم العديد من الأشخاص من طبقات مختلفة من المجتمع جمعتهم حادثة الحرب. وقد وفرت هذه التجربة رؤية للبناء الاجتماعي كان لها أثر بالغ. وبعد عودته إلى جامعة كامبردج بعد نهاية الحرب، انتُخب مارشال زميلاً من قبل كلية ترنتي، فواصل دراسة التاريخ، وكتب عن حياة جيمس وات. وانقطع عن ذلك لفترة وجيزة حين ترشح عن حزب العمل لمقعد لم يفز به في الانتخابات العامة التي أُجريت في العام 1922م. وفي العام 1925م عين مدرساً خاصاً في العمل الاجتماعي في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية (LSE) .

بقي مارشال في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية لبقية حياته المهنية، حيث تمت ترقيته كمعيد في عام 1933م، ثم إلى أستاذٍ للمؤسسات الاجتماعية، ورئس قسم العلوم والإدارة الاجتماعية من العام 1944م حتى العام 1949م، ثم أستاذية مرتن وايت لعلم الاجتماع من العام 1954م وحتى العام 1956م عندما غادر الكلية ليعين رئيساً لقسم العلوم الاجتماعية بمنظمة الأونيسكو من العام 1956م وحتى العام 1960م. وقد سبق له أن عمل بوزارة الخارجية بقسم الأبحاث من العام 1939م حتى

العام 1944م، ومع لجنة السيطرة في ألمانيا من 1949 - 1950م. وقد تولى رئاسة الجمعية الدولية لعلم الاجتماع من العام 1959 حتى العام 1962م.

لقد بدأ مارشال بتنمية اهتماماته الاجتماعية في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية في ثلاثينيات القرن العشرين، عندما كتب عن التقسيم الطبقي والسياسة الاجتماعية. وكان علم الاجتماع بسيطاً في كلية لندن؛ إذ كان يهيمن على الكلية آنذاك بالاهتمامات الفلسفية لليونارد هوبهاوس وموريس جينسبرغ. وقد قدم مارشال منهجية بديلة أزهرت فيما بعد خلال توسع وانتشار تدريس علم الاجتماع عقب الحرب العالمية الثانية وإشرافه على رسائل دكتوراه بعض الطلاب أمثال دافيد لوكوود ورالف دارندورف.

يعتبر اسم مارشال جزءاً من قانون علم الاجتماع؛ إذ إنه أول من مَوضَع المواطنة في المجتمع الحديث، وألقيت أول مرة بمسمى محاضرات مارشال في جامعة كامبردج في العام 1949م. فكما علق دافيد لوكوود أثناء احتفاله ببلوغه الثمانين من العمر، أن هذه المقالة جمعت اهتماماً بالأفكار النظرية وبالدليل، محضرة السوسيولوجيا الأكاديمية إلى احتكاك ذهاني مع الاهتمامات العملية من خلال «العمل السوسيولوجي الوحيد في بريطانيا ما بعد الحرب العالمية الذي برؤاه ومفاهيميته الشجاعة يحوي مقارنة مع النصوص الكلاسيكية التي تحدد أصل السوسيولوجيا الحديثة، وأشير بهذا، بكل تأكيد، إلى المواطنة والطبقة الاجتماعية ((Citizenship and Social Class 1950))».

كان تركيز مارشال في العام 1949م، على حقوق المواطن ومسؤولياته في المجتمعات الصناعية، صاغها في فروق ثلاثية بين أنواع المواطنة تندمج في صياغتها العامة مع المفاهيم الفيبرية. ومع أنها كانت مؤسسة في التحليل التاريخي للقضية البريطانية، فقد قدمت أصنافه كنماذج مثالية كانت أدوات تحليل، وليس مجرد افتراضات محددة لعالم الاجتماع التاريخي. وقد ميز مارشال بين «المواطنة المدنية» و«المواطنة الساسية» و«المواطنة الاجتماعية». فأما المواطنة المدنية، فتتضمن الاعتراف بأن جميع أفراد المجتمع متساوون أمام القانون، وكذلك إلغاء قوانين الرق والعبودية. وأما المواطنة السياسية، فتتضمن إشراك جميع أفراد المجتمع البالغين في العملية الانتخابية، وأن لهم حق التصويت في الانتخابات وتولي المناصب. وأما المواطنة الاجتماعية،

والتي يعتبرها مارشال إحدى مميزات القرن العشرين، فإنها تكفل تغطية الحقوق الاجتماعية لكافة المواطنين عن طريق تدخل الدولة أو من خلال فرض أنظمة تأمينية إلزامية للجميع. وهذا يعكس عمق اهتمامه بالسياسة الاجتماعية، واهتمامه بالتغير الاجتماعي الناجم عن امتداد مواد الرفاهية.

يثير هذا التشكيل مجموعة كبيرة من الأسئلة عن المجتمع الحديث. ما هي حدود المجتمع؟ وما المجموعات التي تنتمي إليه والتي لا تنتمي؟ وهل «المواطنة» مفهوم أكثر فائدة من المفهوم المبهم نوعاً ما «المجتمع»؟ وما هي معايير المواطنة الكاملة؟ وما هي المؤهلات التي يتمتع بها مختلف أفراد المجتمع للإفادة من الخدمات الاجتماعية؟ وما العلاقة بين توزيع الحقوق العملي وتوزيعها المثالي؟ وما هي الموازنة بين الالتزامات والحقوق في المجتمع المعاصر؟

كان مارشال يهدف إلى الجمع بين مناقشة الالتزامات والحقوق، وبين اعتبار سمات التقسيم الطبقي للمجتمع الصناعي الحديث، وبخاصة المجتمع البريطاني في النصف الأول من القرن العشرين. وقد قدمت مفاهيمه عن المواطنة أدوات لنسج تحليل الطبقة الاجتماعية مناقشة حقوق المواطن. وكما علق لوكوود:

تمتلك المواطنة منطقاً داخلياً يؤدي إلى تغير اهتمامات مجموعات المصالح التي تشكل الصيغ المؤسسية في أي مرحلة محددة وتعيد توجيه قواها الاجتماعية كنتيجة إعداد هذه الترتيبات والمبادئ الكامنة فيها؛ المبادئ غير المدركة حتى الآن في العلاقات الاجتماعية، والتي تتمتع بإمكانية مفاقمة وتقويض تأثير طبقة ما.

لم تمر قيمة تكوين مارشال للمواطنة من دون أي منازعة منذ وفاته في العام 1981م، وبكل تأكيد كانت موضوع نقاشات حية. فقد انتُقدت منهجيته لإهمالها المرأة والأسرة؛ وللذين يفتقرون إلى تقرير مصيرهم؛ والفقراء المعدمين؛ وللأقليات العرقية؛ وللبلاد الأخرى التي لا يمكن فيها تعميم نمذجة مارشال فيها. وقد تم تحدي علاقتها الدقيقة بالتطور التاريخي. ومع ذلك كله تبقى نظرية المواطنة معلماً مؤثراً في علم الاجتماع فيما تتفتح أبواب القرن الحادي والعشرون.

انظر أيضاً: ليونارد هوبهاوس.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists : David Lockwood

أهم الأعمال:

Citizenship and Social Class and Other Essays . (Essays of 1934-39.) Cam-
.bridge: Cambridge University Press, 1951

Sociology at the Crossroads and Other Essays . (Essays of 1938-60.) Lon-
.don: Heinemann, 1963

Class, Citizeship and Social Development . (Essays of 1937-60.) With in-
.tro. By S. M. Lipset. Garden City, NY: Doubleday, 1964

.Social Policy . London: Hutchinson, 1970

A British Sociological Career. International Social Science Journal , vol.}
.25, 1973

The Right To Welfare, and other Essays . (Essays of 1964-72.) London:
.Heinemann, 1981

قراءات إضافية:

Martin Bulmer and A. M. Rees, eds. 1996. Citizenship Today: The Con-
.temporary Relevance of T. H . Marshall . London: UCL Press, 1996

Albert H. Halsey. Marshall, Thomas Humphrey (1893-1981)}. Oxford Dic-
.tionary of National Biography . Oxford: Oxford University Press, 2004

.David Lockwood. For T. H. Marshall. Sociology , vol. 8, 1874

كارل ماركس (Karl Marx)

وُلد كارل ماركس في مدينة تراير في العام 1818، وتوفي في لندن في العام 1883، وعلى الرغم من أن والده يتحدر من أسرة من الحاخامات، إلا أنه كان يحمل ولاءً لعصر التنوير. وانضم بشكل رسمي، بوصفه موظفاً في الحكومة البروسية، إلى الكنيسة اللوثرية. وقد درس ماركس القانون والفلسفة وكتب رسالة علمية حول هرقليتوس، كما شارك في المناظرات والمناقشات الجدلية للفلاسفة الهيغليين الشباب، وسعى في كراساته الأولى إلى تطوير تفسير هيغل لمفهوم تحويل الملكية. وعندما بلغ أواسط العشرينيات من عمره، كان ماركس بالفعل مؤيداً نشطاً للحركة الديمقراطية في ألمانيا، وعمل في تحرير واحدة من أكثر الصحف تأثيراً هناك، وهي جريدة النهضة الجديدة (Neue Rheinische Zeitung) ، وقد تأثر بثورة عمال النسيج في سيليسيا (Revolt of Silesian Weavers) في العام 1948، وشرع في إبداء اهتمامه بكل من المؤسسات العمالية والنظرية الاشتراكية. وقد اعتبر لينين أن أفكار ماركس المتميزة تنبع من ثلاثة مصادر مهمة، الفلسفة الألمانية؛ النظرية الاقتصادية السياسية الإنكليزية؛ والاشتراكية الفرنسية. غير أن انخراط ماركس في هذه التيارات الفكرية اتخذ في العادة شكل ناقد لها.

وبذلك، فبينما تقبل ماركس بشكل عام الفكر الهيغلي عن التاريخ باعتباره يمثل إظهاراً لأشكال أسمى من الحرية، فقد سعى إلى تصحيح ما اعتبره السمة الافتراضية للهيغلية، وذلك باللجوء إلى فكرة المراحل المتعاقبة للتطور التاريخي كما تم إعدادها من قبل الكتّاب التنويريين الاسكتلنديين من أمثال فيرغسون وميلر. وبالمثل، فعندما قبل ماركس بفكرة هيغل عن العلاقة الجدلية بين السيد والخادم، سعى على الرغم من ذلك إلى ترسيخها من خلال تفسير دقيق لسمات العمل بالأجر. وقد عكف ماركس على كتابات الاقتصاديين السياسيين الكلاسيكيين، وعلى رأسهم آدم سميث ودافيد ريكاردو. بيد أنه سعى إلى تصحيح ما اعتقد أنه اختزاليتهم وتحفظهم مستعيناً في ذلك بإتقانه المؤثر للأدب الإنساني والكلاسيكي والرومانسي لشرح آرائه. وأخيراً فقد تعلم الكثير من الاشتراكيين الفرنسيين، ولا سيما فورييه (Fourier) وبرودون (Proudhon) ، ولكنه اعتقد أنه خفي عليهم الدروس

الحقيقية للصراع الطبقي وللثورة الفرنسية، كما تناوله آبيه سييس (Abbé Sièyes) في أكثر من موضع في ما هي الطبقة الاجتماعية الثالثة ، وبوناروتي في مؤامرة المتساوين .

كان أول عرض لنظرية المادية التاريخية الناشئة لماركس في كتاب الأيديولوجية الألمانية (The German Ideology) ، ولا سيما في القسم الذي يتحدث فيه عن فيورباخ، ولكن لا ريب في أنها كانت ستتجسد بصورتها الأكثر إدهاشاً وفعالية في البيان الشيوعي (The Communist Manifisto) ، الذي كتبه مع فريدريك إنغلز، ونشر في العام 1848 في عشية الاضطرابات الثورية الكبرى لذلك العام. وقد وُضع البيان الشيوعى قيد التطبيق من قبل نادي العمال اللاجئين الألمان الذين دعوا علانية إلى رؤية وبرنامج سياسيين عالميين، الأمر الذي تعارض مع ما كان يراه كاتبا البيان من عالم سرية المنظمات الاجتماعية السابقة وخيالها ومؤامرتها. وقد دمج البيان بين الاقتصاد السياسي والتحليل الطبقي والجدل الاشتراكي في صورة واحدة من صور التاريخ الإنساني. فبينما رأى الكتّاب السابقون مراحل تاريخية متعاقبة تنشأ من منطق داخلي مبهم، ربط ماركس هذه المراحل بطرق الإنتاج، وأصر على الدور الرئيس للعلاقات الطبقية. وقد تبنت تلك الأخيرة كلا من الصراع بين المستغِلين والمستغَلين، والمنافسة بين تلك المجموعات المختلفة من المستغلين مثل مالكي العبيد، والإقطاعيين من مالكي الأقنان، والتجار، والملاك، والرأسماليين. واعتبر ماركس أن الانتقال من نظام اقتصادي اجتماعي إلى الذي يليه متجذر في التفاعل بين الصراع الطبقي من ناحية، والإمكانات الجوهرية وحدود النظم الاقتصادية الاجتماعية المتعاقبة، ولاسيما قدرتها على رفع إنتاجية العمل من ناحية وتطوير قوى الإنتاج، من ناحية أخرى.

في خمسينيات القرن التاسع عشر، وما بعد ذلك، طور ماركس أفكاره في كتابات تحتوي مجلدات ضخمة تتنوع ما بين المقالة المختصرة «مقدمة لنقد الاقتصاد السياسي» (Introduction to the Critique of Political Economy) ، وهوالمجلد الأول من رأس المال في العام 1986، إضافة إلى مسودات وكراسات موسعة نشرها فيما بعد بوصفها الجزأين الثاني و الثالث من كتاب رأس المال بعنوان نظريات القيمة الفائضة ، و غروندريس (الخطوط العامة). وجعلت النقاشات التي أثارها ماركس في تلك الكتابات منه أبرز دارس للرأسمالية من بين مؤسسي علم الاجتماع، ومصدر الرؤى المهمة في أصول هذا النظام الاقتصادي الاجتماعي المتميز ومصيره. وقد بدا

أحياناً، كما هو الحال في البيان الشيوعي ، كما لو كان ماركس قد رأى بعيداً؛ إذ تنبأ بالفعل بالعولمة من دون أن يستوعب تماماً الدور المعقد والمتعارض للأشكال الوطنية والرؤى العالمية الدينية للتطور الرأسمالي. وإضافة إلى ذلك، لم يتنبأ ماركس أن أفكاره الخاصة كانت ستحوز على إعجاب أنظمة شيوعية في دول متخلفة أو شبه نامية، تروج للتحديث غير الرأسمالي لنظمها الاقتصادية ومجتمعاتها.

لقد عزل ماركس نفسه عن أغلب الاشتراكيين الآخرين في ذلك العصر من خلال تشديده على الإنجازات العظيمة للرأسمالية وعلى حاجة الاشتراكية إلى الاعتماد على الإنتاجية المتفوقة وعلى التقسيم الدولي للعمل الذي قامت به الأكثر توحد بحسب البرجوازية. فقد اعتبر بعض الاقتصاديين في عصره، من أمثال سيسموندي (Sismondi) ، أن الرأسمالية لا تولد سوى البؤس والمنافسة المدمرة، وقد سلم ماركس ببساطة أن تقدم الرأسمالية يتطلب تكلفة بشرية باهظة. وكان ما يدعوه بـ «التراكم الرأسمالي البدائي» يتضمن تجارة الرق، وتجريد الفلاحين الأوروبيين من ممتلكاتهم، والكولونيالية والحرب، كما عُرِفَت أيضاً بالأزمات المتكررة وتراكم الثروة في قطب، والفقر في القطب الآخر. بيد أنه أكد أيضاً أن الرأسمالية قد طبقت التكنولوجيا على عملية الإنتاج، وجعلت العمل البشري عموماً أكثر إنتاجية مما كان عليه من قبل، وفي رأي ماركس فقد أنتجت الرأسمالية إمكان وجود صورة أسمى للتعاون الاجتماعي، ما جعل من الممكن القضاء على الفقر وإعتاق المنتجين.

وبينما تعلق الكثير من الرؤيويين الاشتراكيين بالعصر الذهبي المفقود، فقد رحب ماركس بالحداثة وتطلع إلى العصر الذي سوف تتحقق فيه بكامل إمكاناتها من خلال تجريد الملاك من أملاكهم والتحرير الذاتي للمنتجين. وكما صورها هو وإنغلز، على نحو بارز في البيان الشيوعي ، فإن الشرط المسبق للتطوير الحر للجميع هو التطوير الحر لكل فرد.

لقد أعلن ماركس في «مقالة عن فيورباخ»، أن الهدف لم يكن تفسير العالم بطرق مختلفة، بل تغييره. وكان البيان الشيوعي قد كُتب لصالح الرابطة الشيوعية، وهي شبكة من العمال الألمان اللاجئين. وفي ستينيات القرن التاسع عشر عمل مع رجال نقابات العمال الإنكليز على تأسيس وتطوير رابطة الرجال العاملين الدولية. وقام على مدى عدة عقود بمراسلات مكثفة ليس مع

أتباعه من المفكرين الاشتراكيين فحسب، بل ومع مؤسسي الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية أيضاً ومنظمي الاتحادات العمالية. ومن المؤكد أنه كان يعتقد أن تغيير العالم يتطلب فهمه، وأن التفسير الذي طوره في رأس المال وغيره من الكتابات، كان له سمة موضوعية وعلمية؛ فمن ناحية صمم نموذج استطلاع، «إنكويت أوفرير» (Enquète ouvrière) ، يتيح له معرفة تفاصيل ظروف حياة العمال الفرنسيين ووجهات نظرهم. كما إنه أمضى أياماً طويلة في المتحف البريطاني يدرس قوائم الشخصيات البارزة في الحكومات البريطانية وكذلك أعمال التاريخ والاقتصاد.

أثر عمل ماركس في النظرية الاجتماعية العامة، والسوسيولوجيا التاريخية، وسوسيولوجيا الطبقات، والسوسيولوجيا الاقتصادية، والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي، والاقتصاد السياسي. وقد ظهرت التيارات الماركسية في تلك الفروع المعرفية، كما ظهرت في دراسات أخرى تتناول البحث في فروع متعددة من المعرفة، وبينما أثر كل من إميل دوركهايم وفيبر وسيميل، بشدة في الأجيال التالية في العلم الاجتماعي، فمن الصواب القول إن تأثير ماركس كان الأكثر انتشاراً، ولا سيما خارج الحياة الأكاديمية، وأن عمل أصحاب النظريات الآخرين كانت قد تحفزت بتفسير ماركس للرأسمالية وللصراع الطبقي.

تعد نظرية ماركس عن الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي من أكثر أعماله تميزاً، بيد أنها أيضاً من أكثرها نقداً، فقد اعتقد ماركس أن أولئك الذين تعرضوا للاستغلال سوف يدركون، عاجلاً أم آجلاً، بسبب الصراع اهتماماتهم الحقيقية ومصيرهم. وقد تعرض هذا الادعاء لكثير من الانتقاد نظراً إلى غائيته المزعومة ولتعارضه مع فكرة «الاهتمامات» الطبقية الصريحة في مقابل فكرة «الفتشية السلعية» المشوشة أو «الوعي الزائف» للعديد من العمال. وقد فرّق ماركس بين الطبقة «في ذاتها» والطبقة «لذاتها»؛ فالأخيرة لم تكن مقتصرة على التركيز على المصلحة الاقتصادية، بل على التوجه الجماعي المحتمل أو الناشئ نحو المجتمع والتاريخ. ففي كتاباته عن الصراعات الطبقية الفرنسية في الفترة ما بين الأعوام 1848 و1852، أبدى ماركس اهتماماً قوياً بالروح المعنوية الجماعية ومشروعات الأحزاب الطبقية، وكيف أنها منخرطة في مشروع تاريخي عظيم. ومع ذلك، فعلى الرغم من تميّز منشوراته في ذلك الوقت، إلا أنها لا تعطي بالضرورة تصديقاً لنظريته الأشمل عن الطبقات.

هناك مشكلة أخرى؛ إذ بدا ماركس أنه يشدد على الاستغلال كمصدر للفقر، في حين أن عدم المساواة الكبير في العالم المعاصر ترجع أصولها إلى الإقصاء. وإلى حد ما فربما يعتبر هذا الإقصاء ذا وظيفة بالنسبة إلى الاستغلال الرأسمالي؛ إذ إنه يرسّخ ضغط ما سماه ماركس بـ «الجيش الاحتياطي للعمل»، أي مجموعة هائلة من العمال العاطلين الذين يضعفون القوة التساومية لأولئك الذين يعملون. غير أن مدى الفقر والإقصاء في العالم المعاصر أكبر مما هو مطلوب ببساطة لتحقيق هذه الأهداف. وهناك تفسير آخر محتمل لهذه الظاهرة، وهو أن العديد من المجتمعات تجد من الصعب أن تزدهر بطريقة رأسمالية، وأن السلوك الرأسمالي غير طبيعي، وإنما يجب تعلمه، وأنه غالباً ما يجري في اتجاه معارض للقيم التقليدية. وقد تساعد رؤى ماركس في منطق العمل بالأجر والإنتاج المعمم للسلع، على توضيح مفهوم اجتماعي معقد كهذا (انظر على سبيل المثال كوكب الأحياء الفقيرة (The Planet of Slums) لمايك دافيس). وبشكل أعم، فإن الأخطاء والفجوات في تفسير ماركس، يمكن التعامل معها ليس على أنها أخطاء قاتلة، وإنما ببساطة كأسباب لتدعيم التفسير المادي التاريخي بمعالجة المشكلة من خلال تفسير جديد للقومية على سبيل المثال، و«مجتمعها المتصوَّر» أو الدين المنظم كبعد لـ «الهيمنة»، أو نشأة «الأرستقراطية العمالية».

لقد ادّعى ماركس أن الرأسمالية أفرزت طبقة، هي البروليتاريا، ستصبح أداة للإطاحة بها (الرأسمالية). ويبدو جلياً أن هذا التنبؤ لم تثبت صحته؛ فقد تطورت السياسة الطبقية إلى عدة دول رأسمالية، ونشأت الحركات العمالية في أجزاء عدة من العالم، وغالباً ما كان قادتها متأثرين بأفكار ماركس، ولكن في الولايات المتحدة الأمريكية، ذات الاقتصاد الرأسمالي الرائد في العالم لفترة طويلة، لم تنشأ أي حركة عمالية سياسية متميزة البتة. وقد حدثت ثورات اشتراكية في دول لم تكن دولاً رأسمالية بشكل كامل، مثل روسيا والصين وفيتنام وكوبا؛ وقد مارست منظمات أقلية عمالية وعسكرية دوراً ما في هذه المحاولات للإطاحة بالرأسمالية، ولكنها كانت مسيطر عليها من قبل الحزب الحاكم، ولم تكن هي المسيطرة عليه، في الدولة في حقبة ما بعد الثورة. وبدا أن فكرة ماركس عن أن حكم الطبقة البرجوازية سيخلفه «ديكتاتورية البروليتاريا»، افترضت نوعاً من الاختزال الاجتماعي الذي عجز عن استيعاب الحاجة إلى التعبير السياسي للقوة الطبقية. وبينما مارست أحزاب الطبقة العاملة والاتحادات العمالية دوراً كبيراً في تاريخ القرن العشرين، إلا أنه لم يكن الدور الرائد الذي أوكله إليها ماركس. كما مارست القوة الطبقية غير العاملة ـ الفلاحين

وصغار البرجوازيين ـ دوراً أكثر أهمية مما توقع ماركس، وكذلك كانت الأيديولوجيات والأهداف القومية؛ فمع اقتراب نهاية القرن العشرين مارست القوى العاملة المنظمة دوراً رئيساً في تحدي نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، والديكتاتورية في كوريا الجنوبية والبرازيل، بيد أن هذا لم يكن تمهيداً لوجود أي تحدٍّ للرأسمالية؛ ففي بولندا وروسيا، ساعد النشاط الميليشياوي العمالي في نهاية المطاف على الإطاحة بأنظمة كانت تدعي أنها شيوعية.

بحلول أواخر القرن العشرين بدأ التأثير السياسي للحركات العمالية في التراجع، ومع ذلك، فإن البحث الاجتماعي لا يزال يظهر طبقات لتفسير الكثير عن العمل الداخلي للمجتمعات الرأسمالية، وفرص الحياة المتاحة لأعضائها، وتوقع أنماط المدى العمري والصحي، والنزوع لقراءة جريدة ما أو دعم حزب سياسي ما. وقد اشتهر ماركس بتعريفه للطبقة ليس من منطلق التفاوت في الدخل فحسب، بل على أساس العلاقة المشتركة مع الملكية لوسائل الإنتاج؛ فقد تم تعريف العمال المعاصرين على أساس حقيقة حاجتهم إلى بيع قوة عملهم مقابل حصولهم على الغذاء والملبس والمسكن لأنفسهم ولأسرهم (شدد ماركس وإنغلز على أهمية مجال إعادة إنتاج القوة العاملة. انظر على وجه الخصوص دراسة إنغلز عن أصول الأسرة والملكية الخاصة (The Origin of the Family, Private Property) .

عندما كتب ماركس أن قيمة قوة العمل تتحدد بما هو مطلوب لإعادة إنتاجها، فقد اعتبر أنها تتضمن الاحتياجات الثقافية إضافة إلى الاحتياجات الحضارية وكذلك السوسيولوجية؛ فقد شرح:

على النقيض من العبد، فإن العمل [بالأجر] يصبح أكثر إنتاجية لأنه أكثر إلحاحاً؛ إذ إن العبد يعمل فقط بسبب ضغط الخوف الخارجي، وليس من أجل وجوده... ومع ذلك فالعامل الحر تدفعه احتياجاته. وبذلك فإن الوعي بـ (أو الأفضل: الفكرة) حرية تقرير المصير، والحرية، من شأنه خلق عامل أفضل من عامل آخر. فالعامل الحر تدفعه احتياجاته... بالطبع فظروف وجوده ـ والقدر المحدود من المال الذي يمكنه كسبه ـ تضطره إلى الاختيار بين سلع محدودة. لكن التنوع الممكن، وهو ما يمكن إدراكه من حقيقة كون الجريدة، على سبيل المثال، تمثل جزءاً من المشتريات الأساسية للعامل الإنكليزي المديني. ويمكنه أن يوفر أو أن يدخر قليلاً أو يمكنه أن يبدد أمواله على

الشراب، ولكن حتى في هذه الحالة، فإنه يتصرف كرجل حر؛ ويجب أن ينفق أمواله وفقاً لطريقته الخاصة، وهو مسؤول أمام نفسه عن الطريقة التي ينفق بها أجره.

في مثل هذه الصياغات اعتبر ماركس «الفتشية السلعية» ومصير البروليتاريا يتصارعان من أجل روح العامل. ومع ذلك، فأياً كان قدر التهذيب أو الإحساس بالمهمة الذي يمكن للعاملين إنجازها، فقد تم تعريف وضعهم بانعدام الوسائل الكافية، وهذا ما يدفعهم إلى بيع قوة عملهم.

من ناحية أخرى، فإن لدى الرأسمالي مشكلة من نوع مختلف؛ فهو قد اشترى قوة عمل العامل، ولكنه في حاجة الآن للجمع بينها وبين الأدوات والمواد الخام وفرص السوق. ويمكن للرأسمالي أن يحصل على القيمة الفائضة فقط إذا تمكن من بيع ناتج العمل بأكثر مما كلفه الحصول عليه. وكان هذا الأمر يمثل مشكلة «تحقيق» القيمة الفائضة التي لم تعد تتعلق بالطرق المختلفة للحصول على عمل أكثر من قبل العامل فحسب.

بعد مرور قرن ونصف على تطوير ماركس لتحليله الطبقي، فلم يعد من الصعب تحدي أهميته القصوى. فالنوع (gender) والعرق كانا دائماً مهمين في تخصيص فرص الحياة، وقد صارا مؤخراً أكثر أهمية في تحفيز حركات التحول التاريخي؛ فالعمال أنفسهم يطمحون لتحقيق الأهداف البرجوازية. بيد أن الانقسامات الطبقية مميزة ـ وغالباً ما تتداخل مع الانقسامات القائمة على الجنس والعرق ـ سواء أنظرنا إلى تيسر الحصول على التعليم، أم توقع المدى العمري، أم الفضيلة الاجتماعية، أم السلوك السياسي. وغالباً ما خيب العمال الآمال السياسية التي كان يؤمن بها ماركس، متبعين في ذلك أسلوباً جماعياً بدا أنه يعكس موقف الطبقة ووجهة نظرها.

تكمن قوة تفسير ماركس في تشديده على كلية العلاقات الاجتماعية وعلى تهيئتها من قبل التاريخ، وكان ماركس مهتماً بالرأسماليين اهتمامه بالعمال، ومنشغلاً بتحديد العمل الداخلي للنظام الرأسمالي. ففي تفسير كارل ماركس للرأسمالية، فإن على الذين يتحكمون في الاستثمار اتباع إملاءات العملية التراكمية واستنباط قانون القيمة. ويجب اتباع الأهداف والخاصيات المحددة للفرد الرأسمالي داخل إطار بنيوي يتحدد بناء على قدرته (أو قدرتها) على تحقيق القيمة الفائضة. وفي نص شهير يعلن ماركس قائلاً: «راكموا! راكموا! هذا هو موسى والأنبياء!» وبالنسبة إلى ماركس،

فإن أفعال الرأسمالي «هي مجرد وظيفة لرأس المال»، ومن هذا المنطلق، فإن «حتى استهلاكه الخاص يعتبر جريمة سرقة تُرتكب ضد تراكم رأسماله». ويبدو جلياً في هذا التفسير أن الرأسمالي مقيد بشدة بالبيئة وبالحاجة إلى استخلاص فائض القيمة وإعادة استثماره في دائرة التراكم. وقد أعطى ماركس في نص سابق تفسيراً لقيود المنافسة التي تفرض نفسها على الرأسمالي؛ إذ تمنعه هذه القيود من شراء قوة العمل بثمن باهظ، تماماً كما تمنعه من بيع السلع بأسعار زهيدة جداً، على أنه لا يجب أن يفهم أنه يمكن للرأسمالي رفع الأسعار ببساطة أو خفض الأجور بأمر فظ لزيادة معدل الاستغلال.

وهكذا، فإن الإطار التنافسي يضطر الرأسمالي إلى أن يقدر تأثير الابتكار في العملية الإنتاجية؛ إذ يمكن لصاحب رأس المال المبتكر أن يجد فائدة في خفض الأسعار كي يستولي على المزيد من السوق:

يتمكن قانون تحديد القيمة على أساس وقت العمل من جعل نفسه محسوساً من قبل الرأسمالي الفرد الذي يطبق الأسلوب الجديد في الإنتاج من خلال إلزامه بيع سلعه بأقل من قيمتها الاجتماعية، كما إن هذا القانون نفسه يعمل كقانون قسري للمنافسة، ويجبر منافسيه على تبني هذا الأسلوب الجديد.

يعتبر ماركس هذا عملية «تظهر فيها القوانين الباطنية للرأسمالي ذاتها في الحركة الخارجية للرأسماليين الأفراد، مؤكدة كونها القوانين القسرية للمنافسة، وهي بذلك تدخل في وعي الرأسمالي الفرد باعتبارها الدوافع التي تدفعه إلى الأمام». وتظهر مناقشة ماركس لتشريعات التصنيع عملية أخرى حيث يخلق حظر عمل الأطفال أو تحديد ساعات العمل اليومية، ظروفاً تعد بشكل عام في مصلحة رأس المال الكبير، وتساعد على دعم سيطرته على مجالات أوسع من الإنتاج.

عندما يتحدث ماركس عن «فوضى الطريقة الرأسمالية للإنتاج»، فإنه يؤكد أنها ليست خاضعة لإرادة الرأسمالي الفرد ـ إلا عندما يجعل هذا الأخير نفسه حاملاً للقوى غير الشخصية للتراكم. وتؤدي القوانين الباطنية للتنافس والتراكم الرأسمالي إلى ابتلاع رؤوسِ الأموال الضخمة رؤوسَ الأموال الصغيرة، وإلى تقويض رؤوس الأموال بعضها بعضاً (إذا ما استطاعوا)، وإلى استهلاك رؤوس الأموال لكل من العامل والأرض لمصلحة المحافظة على الذات والتوسع الذاتي. وبينما

يمكن وضع قيود على رأس المال، فإنه من طبيعته مقاومة القيود الخارجية قدر استطاعته، وبالتالي، فعلى سبيل المثال، إذا كان عمل الطفل يحظر بفعالية في نطاق ما، فإنه يبرز في مجال آخر.

في مفهوم ماركس عن عمل النظام الرأسمالي، فإن الزيادة القاسية لتسليع رأس المال وتوسعه الذاتي هي العملية الرئيسة. فالمشروع التجاري يتم التحكم به من قبل الرأسمالي، إلا أنه ببساطة حامل آلية اجتماعية أشمل. وسيكون استنتاجاً سهل القول بأن مزاياه أو مزاياها وميولهما ليست ذات تأثير. وستكون هناك فروق عديدة في القدرة والحكم بين الرأسماليين الأفراد. فبعضهم سيتفهم مدى الإبداع بسهولة، أو سيفهم أن القيود المفروضة على يوم العمل ستكون في مصلحتهم على المدى البعيد. في حين سيعجز آخرون عن إدراك الإمكانات الحقيقية لوضعهم. وقد كان ماركس مدركاً تماماً أن العديد من الصراعات الاجتماعية الكبيرة سيتم خوضها قبل تحديد أي طرق الاستمرار ستسود. ولم تكن تلك الصراعات، بما لها من حلفاء مختلفين، لتنشأ فقط بسبب النتائج الفرعية لعمل منطق أسمى. بل إنها بذاتها جزء مهم من الآلية التي نشأت من خلالها «القوانين الحديدية» المزعومة للتراكم (انظر على سبيل المثال مقالة ماركس النقدية عن «القانون الحديدي للأجور» المزعوم، في مناقشته مع ويستون في الأجور والأسعار والربح (Wages, Prices and Profit) . إضافة إلى ذلك، فقد كان ماركس يدرك أنه في النماذج الأكثر تطوراً للإنتاج الرأسمالي هناك فصل مبدئي للمال عن الإدارة التشغيلية. وبذلك فمع نشأة شركات الأسهم المشتركة أصبحت الرقابة على العملية الإنتاجية وتنسيقها أكثر تميزاً؛ فالعمل المتضمن هنا يصبح، كما يرى ماركس، منتجاً. بل إنه يعلن «أنه قد أصبح من غير الضروري أن يمارس الرأسمالي ذلك العمل الإشرافي». بيد أن عملية الإنتاج الرأسمالي يمكن فقط أن تتقدم إذا كان هناك استخلاص وتحقيق متجدد للقيمة الفائضة. وأما الفائدة التي يعد الرأسمالي بدفعها إلى هؤلاء الذين يمدونه بالديون، فهو «القيمة الإضافية المتضمنة في رأس مال السلعة كإمكانية». ويحتاج الرأسماليون الصناعيون والتجاريون إلى الوصول إلى الدَّيْن، وإلى ما سماه ماركس «رأس المال الزائف»، إذا ما أرادوا من استغلال الفرص المربحة. وفي الغالب لا تكون الأرباح المباشرة التي يحققونها كافية لهذا الغرض، ولا سيما عند الحاجة إلى استثمارات ضخمة. وفي تفسير ماركس فإن الصناعيين يتطلعون إلى المصرفيين لتقديم القروض التي يحتاجون إليها. وأما هؤلاء المصرفيون فإنهم يحتفظون بما لديهم من ودائع نيابة عن جمهور كبار وصغار المنتجين. ويشمل هذا القرض المحتمل لرأس المال كل من رأس المال الاحتياطي

والميزانية المالية للتجار والصناع، كما إنه يشمل أيضاً مدخرات جميع الطبقات: «مبالغ صغيرة غير قادرة على العمل كرؤوس أموال بمفردها يتم ضمها إلى مبالغ هائلة، وبالتالي تشكل قوة مالية». وبذلك، فإن ماركس يرى «أن أصحاب المصارف هم ممثلو جميع مقرضي المال الذين يواجهون الرأسماليين التجاريين والصناعيين». ويكون المال الذي يقدمه المصرفيون هو، بادئ ذي بدء، «رأس المال الزائف» لأنه يتعلق حينها بـ «سلعة رأس المال بوصفها إمكانية». ويعود الأمر لصاحب رأس المال لضمان وضع تلك الموارد المالية في مشروع مربح. ولكن لا أحد يستطيع الجزم مسبقاً كيف ستسير الأمور، واحتمالية الخسارة الكاملة تكون قائمة دائماً. (لم يتم تدوين المعاني الضمنية لهذا التحليل بشكل كبير. وكان هناك ميل إلى إغفالها عندما كانت الكارتلات الوطنية في أوج قوتها).

من يسيطر على عملية التسليع؟ هل هو المصرفي أو الرأسمالي التجاري أو الرأسمالي الصناعي؟ ربما يبدو من الوهلة الأولى أنه صاحب المصرف؛ إذ إن المصارف هي التي تقرر ترجيح أفضلية إحدى الاستثمارات الخاصة. غير أن المدى الحديث لأنماط التسليع يظهر في الأساس على يد صاحب المشروع أو الرأسمالي المستثمر، ويتم استغلال الفرصة المربحة فقط إذا نجح الرأسمالي الصناعي في تحقيق المبيعات التي تكون أضخم بشكل كبير من رؤوس الأموال التي يضعها في المشروع. وقد يتطلب الأمر بعض الوقت لتأكيد ما إذا كان المشروع ناجحاً أم لا، وقد لا يتمتع المصرفي بالصبر الكافي ـ ولكنه يكون في منافسة مع مصرفيين آخرين. ولذا فهناك علاقة هيكلية، وعناصر خصومة، وعناصر تعاون، واحتمالية للصراع على تقسيم الغنائم. ويتحكم المصرفي في الوصول إلى ما سماه ماركس «رأس المال الزائف»، بينما يتحكم الرأسماليون في الاستثمار المربح، وسواء أكان لأحدهم أو للآخر اليد العليا في أي زمن من المشروع، فإن هذا يعتمد على توفر مجموعة من الظروف الخاصة. وبمرور الوقت فستظهر النماذج، ومن ثم، من الممكن أن يظهر التغيير الذي يعكس مجموعة من الظروف الطارئة مع تسلسل الدورة التجارية، والتطور التكنولوجي، والصراع الطبقي، والتعبئات الثقافية، والحروب، والثورات، وما إلى ذلك من الأمور التي تتفاعل معاً بطريقة لا يمكن التنبؤ بها. وتكون النتيجة النهائية هي إخضاع مزيد ومزيد من الأنشطة والعمليات للشكل السلعي من قبل الباحثين عن الربح. إن انتشار «المأكولات السريعة» والصناعات الثقافية، وخصخصة الخدمات العامة ـ بل وحتى السجون الخاصة وشركات الأمن

ـ والاستغلال التجاري لشبكة الويب العالمية لتحقيق الربح، من شأنها جميعاً أن تنقل المبادئ الرأسمالية إلى مجالات جديدة تماماً.

اهتم تحليل ماركس بالنظام الرأسمالي ككل، وهو تحليل مجرد بشكل عام من السمات الخاصة بكل دولة رأسمالية، على الرغم من أن بريطانيا والولايات المتحدة تؤخذان غالباً كحالتين تمثلان اتجاه التطور الرأسمالي. على أن مسألة التطور غير المنتظم تتجسد في عمله من خلال مصير أيرلندا والجنوب الأمريكي؛ فإمكانية ظهور كارتلات منتجين واحتكارات داخل كل دولة رأسمالية، هو أمر مشار إليه، غير أنه غير محوري في التحليل. ومع ذلك، فقد يرجع هذا إلى أن تلك التطورات لم تكن على درجة كبيرة من القوة في ستينيات القرن التاسع عشر عندما كان ماركس يكتب رأس المال ؛ إذ إنه من المفترض أن تكون قد حدثت فيما بعد في العصر المذهب (Gilded Age) في الفترة ما بين 1873 و1914 تقريباً. ولم يتجنب ماركس مفهوم الاحتكار في حد ذاته؛ إذ إن تفسيره لوضع البروليتاريا يؤكد أن الرأسماليين يحتكرون الوصول إلى وسائل الإنتاج، وكان لدى ماركس بضعة أفكار بشأن شركات الأسهم المشتركة، وهي السلف المباشر للشركات الحديثة، بيد أن هذه الصيغة الاقتصادية كانت لا تزال في مهدها في ذلك الحين.

لقد كتب ماركس القليل جداً بشأن مؤسسات النظام الاجتماعي ما بعد الرأسمالي، وجاء ما قاله بشأنه مختلفاً بالفعل بشكل ملحوظ عن النموذج السوفياتي؛ ففي الواقع كان النظام السوفياتي الذي اتسم بالسيادة القومية المطلقة، أقرب إلى نموذج فيخته لـ «الدولة ذات الاقتصاد المغلق» (عام 1809). وعندما أعلن ماركس أن قيمة السلع تنبثق من «وقت عمل الضرورة الاجتماعية» الذي تجسده هذه السلع، وأنه يجب بناء الاشتراكية على إنجازات الرأسمالية، كان في رأسه تصوراً يختلف بشدة عن النموذج السوفياتي لقيادة الاقتصاد. فقد تأسست أنظمة قيادة الاقتصاد على يد أغلب الحكومات الشيوعية. وعلى الرغم من الامتيازات التي كانت تقدمها لكوادر البروليتاريا وما حققته من نجاحات في وقت الحرب، إلا أنها أثبتت فشلها في العمل كاقتصاد معقد يتطلبه النظام الاقتصادي الحديث. وإذا كان من الممكن العثور على بديل مجدٍ للرأسمالية، فلا ريب في أنه سيتعلم من التجربة الشيوعية.

كتب ماركس في موضوعات عدة، وبينما كانت كتاباته الاقتصادية مكثفة في بعض الأحيان، فإن فلسفته ونزعته الصحافية وخطاباته تعج بعبارات مدهشة وأفكار مثيرة. ولكن في قلب عمله، والأهمية الخالدة لعلم الاجتماع هو تفسيره للرأسمالية. وإن سبب بقاء أفكار ماركس حية حتى الآن، هو تلك البصيرة الهائلة التي كان يتمتع بها فيما يتعلق بنظام اقتصادي اجتماعي لا يزال يشكل عالمنا.

انظر أيضاً: ثيودور أدورنو ، أنطونيو غرامشي ، جورج لوكاش، هربرت ماركوس.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Louis Althusser, Jür-
.gen Habermas, Ralph Miliband

أهم الأعمال :

Critique of Hegel's Philosophy of Right . 1843. Cambridge: Cambridge
.University Press, 1970

Economic and Philosophical Manuscripts . 1844. London: Lawrence and
.Wishart, 1959

.The Holy Family . 1845. London: Lawrence and Wishart, 1956

.The German Ideology . 1846. London: Lawrence and Wishart, 1970

.The Poverty of Philosophy . 1847. Chicago: C. H. Kerr, 1910

Communist Manifesto . 1848. With Friedrich Engels. Harmondsworth:
.Penguin, 1967

.The Class Struggles in France . 1850. Moscow: Progress Publishers, 1968

Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte . 1852. Moscow: Progress Pub-
.[.lishers, [n. d

.Grundrisse . 1858. Harmondsworth: Penguin, 1973

A Contribution to the Critique of Political Economy . 1859. London:
.Lawrence and Wishart, 1971

Theories of Surplus Value . 1862-3. London: Lawrence and Wishart,
.1969-72

.Capital , 3 vols. 1864-78. Harmondsworth: Penguin, 1976-81

The Civil War in France . 1871. Beijing: Foreign Languages Publishing
.House, 1970

قراءات إضافية:

.Robin Blackburn, ed. After the Fall . London: Verso, 1991

Gerry A. Cohen. Karl Marx's Theory of History . 2 nd ed. Cambridge:
.Cambridge University Press, 2000

Rodney Hilton, ed. The Transition from Feudalism to Capitalism . London:
.Verso, 1978

Ernest Mandel. The Formation of the Economic Thought of Karl Marx .
.London: New Left Books, 1971

.Edmund Wilson. 1940. To the Finland Station . London: Collins, 1960

هربرت ماركوس (Herbert Marcuse)

هربرت ماركوس هو فيلسوف ومنظر اجتماعي وناشط سياسي، وقد اشتهر خلال فترة ستينيات القرن العشرين (1960 - 1970) بـ «أب اليسار الجديد». وقد حاز ماركوس الذي ألّف العديد من الكتب والمقالات، والذي شغل منصب أستاذ جامعي لعدة عقود سمعة سيئة عندما اعتُقد أنه كان ذا تأثير ومدافع عن «اليسار الجديد» في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا. وتقدم نظريته عن المجتمع ذي «البعد الواحد» نقداً للمجتمعات الرأسمالية والاشتراكية المعاصرة، فيما أكسبته فكرة «الرفض العظيم» شهرة كصاحب نظرية تدعو إلى التغيير الثوري وإلى «التحرر من المجتمعات الثرية». ونتيجة لذلك أصبح ماركوس واحداً من أعظم مفكري الولايات المتحدة الأمريكية خلال حقبة الستينيات والسبعينيات (ما بين 1960 - 1980م).

ولد ماركوس في برلين في العام 1898م، وبعد أن خدم في الجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى ذهب إلى فرايبرغ لإكمال دراسته. وبعد حصوله على شهادة الدكتوراه في الأدب في العام 1922م، وبعد عمله لفترة قصيرة كبائع كتب في برلين، عاد إلى فرايبرغ في العام 1928م ليدرس الفلسفة على يد مارتن هايدغر، وهو أحد أكبر مفكري ألمانيا. وقد حاول ماركوس في أول مقالة نشرت له في العام 1928م، أن يوفق بين الوجهات الفلسفية لعلم الظواهر والوجودية والماركسية، وهو توافق قام به فيما بعد العديد من المفكرين الوجوديين وماركسيي علم الظواهر، مثل جان بول سارتر وموريس ميرلو ـ بونتي، إضافة إلى طلاب ومفكري اليسار الجديد في أمريكا.

نشر ماركوس أول مراجعة لـ المخطوطات الفلسفية والاقتصادية الماركسية للعام 1884 (Eco-nomic and Philosophical Manuscripts of 1844) ، والتي طبعت للمرة الأولى في العام 1933م. وقد دعت هذه المراجعة إلى إعادة النظر في التفسيرات الماركسية من وجهة نظر الأعمال الأولى لماركس. وفي العام نفسه، التحق ماركوس بمعهد الأبحاث الاجتماعية في فرانكفورت (In-stitut für Sozialforschung) وانخرط في مشاريع المعهد متداخلة العلوم، والتي شملت إنشاء نموذج لنظرية اجتماعية راديكالية، وتطوير نظرية المرحلة الجديدة للدولة والاحتكار الرأسمالي،

وتقديم تحليل منهجي ونقد للفاشية الألمانية. وقد كان ماركوس شديد الإيمان بـ «النظرية النقدية» للمعهد، وظل طوال حياته قريباً من ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو وغيرهما من الدائرة الداخلية للمعهد.

وفي العام 1934م، فر ماركوس ـ اليهودي والراديكالي الألماني ـ من النازية، وهاجر إلى الولايات المتحدة ليقضي فيها بقية حياته. وقد منح معهد الأبحاث الاجتماعية مكاتب وانتماء أكاديمي لجامعة كولومبيا، حيث عمل ماركوس في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن الماضي. وفي أول أعماله باللغة الإنكليزية العقل والثورة (Reason and Revolution) ، تتبع ماركوس نشوء أفكار هيغل وماركس والنظرية الاجتماعية الحديثة. وأوضح ماركوس في كتابه أوجه التشابه بين هيغل وماركس، وعرف القراء الناطقين بالإنكليزية إلى تعاليم هيغل وماركس وأسلوبهما الفكري الجدلي. وفي العام 1941م، التحق ماركوس بمكتب الخدمات السرية OSS)، ثم عمل في وزارة الخارجية، وأصبح بعد ذلك رئيساً لمكتب أوروبا الوسطى بحلول نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد ذكر ماركوس أن عمله في الحكومة الأمريكية منذ العام 1941 وحتى أوائل الخمسينيات كان بدافع محاربة الفاشية.

بعد هذه الحقبة من العمل الحكومي، عاد ماركوس إلى العمل الفكري، ونشر كتاب الإيروس والحضارة (Eros and Civilisation) ، حاول فيه الجمع بين الماركسية ونظريات فرويد، ووضع الخطوط العامة لمجتمع غير قمعي. وجادل ماركوس أن التنظيم الحالي للمجتمع يؤدي إلى «الكبت الزائد» بفرض عمل اجتماعي غير ضروري، وقيود غير ضرورية على الجنسانية، ونظام اجتماعي منظم على أسس المنافع والاستغلال. وفي ضوء نقصان الندرة واحتمال الوفرة المتزايدة، دعا ماركوس إلى إنهاء الكبت الاجتماعي غير الضروري وإلى خلق مجتمع جديد. وقد تسبب نقده للمجتمع الحالي وقيمه، ودعوته إلى حضارة غير قمعية، في إثارة النزاع بينه وبين زميله السابق إريك فروم الذي اتهمه بـ «العدمية» حيال القيم والمجتمع الموجودين، وباعتماده مذهب المتعة غير المسؤولة. ومع ذلك فقد أصبح هذا العمل أثراً أدبياً في خمسينيات القرن العشرين، وكان ذا شعبية كبيرة في الستينيات التي تنبأ العمل بروحه ومضاداته الثقافية.

في العام 1958م، تولى ماركوس منصب أستاذ متفرغ في جامعة براندیس، وأصبح واحداً من أكبر أعضائها شعبية وتأثيراً. وكان ماركوس خلال فترة عمله في الحكومة متخصصاً بالفاشية والماركسية، وقد نشر في العام 1958م نقداً للاتحاد السوفياتي بعنوان الماركسية السوفياتية (Soviet Marxism) . وقد كان ذلك كسراً للمحرمات في دوائره ضد انتقاد الاتحاد السوفياتي والشيوعية السوفياتية. وفي محاولته تطوير تحليلٍ متعدد الجوانب للاتحاد السوفياتي، ركّز ماركوس نقده على البيروقراطية السوفياتية والثقافة والقيم، وعلى الفوارق بين النظرية الماركسية والنسخة السوفياتية من الماركسية. وفيما نأى بنفسه بعيداً عن الذين يدعون أن الشيوعية السوفياتية ما هي إلا نظام بيروقراطي غير قادر على الإصلاح والدمقرطة، فقد أشار ماركوس إلى إمكانية وجود «ميول لبرلة» تحققت خلال حقبة الثمانينيات في عهد الرئيس غورباتشوف.

في بداية الستينيات قام ماركوس بنشر كتاب إنسان ذو بعد واحد (One-Dimensional Man) ، أعرب فيه عن نقد كل من الرأسمالية المتقدمة والمجتمعات الاشتراكية. وقد نظّر هذا الكتاب في تراجع الإمكانات الثورية في المجتمعات الرأسمالية، وتطور أشكال جديدة للسيطرة الاجتماعية. وجادل ماركوس أن «المجتمعات الصناعية المتقدمة» تنشئ احتياجات زائفة تدمج الأفراد في النظام الحالي من الإنتاج والاستهلاك؛ وتقوم الوسائط الإعلامية والثقافة، والإعلانات، والإدارة الصناعية وأسلوب الفكر المعاصر بإعادة إنتاج النظام الموجود نفسه، وتحاول القضاء على السلبية والنقد والمعارضة. وكانت النتيجة كوناً فكرياً ذا «بعد واحد» من التفكير والسلوك، تتلاشى فيه القدرة والاستعداد لتفكير نقدي وسلوك معارض.

لم تقم الرأسمالية بدمج الطبقة العاملة فقط، بل طورت تقنيات جديدة من خلال سياسات الدولة، ومن خلال تطوير أشكال سيطرة اجتماعية جديدة. وبذلك شكك ماركوس في مسلمتين أساسيتين من مسلمات من الماركسية الأورثوذكسية: البروليتاريا الثورية، وحتمية أزمة الرأسمالية. وعلى عكس المطالب المفرطة للماركسية الأورثوذكسية، فقد ناصر ماركوس قوى الأقليات غير المدمجة، والغرباء، والمفكرين الراديكاليين، وحاول دعم الفكر والسلوك المعارض عن طريق دعم الفكر الراديكالي والمعارضة.

لقد انتقد الماركسيون الأورثوذكسيون التقليديون وأصحاب النظريات السياسية المتفرقة والالتزامات النظرية الأخرى بشدة كتاب ماركوس إنسان ذو بعد واحد . وعلى الرغم من تشاؤم الكتاب، غير أنه أثر كثيراً في اليساريين الجدد؛ إذ عبر عن استيائهم من المجتمعات الرأسمالية والمجتمعات الشيوعية السوفياتية. وقد ظل ماركوس يناصر مطالب التغيير الثوري، ويدافع عن قوى المعارضة الراديكالية الناشئة الجديدة، وبذلك حاز كراهية بعض القوى الممؤسسة، واحترام الراديكاليين الجدد.

تلا كتاب إنسان ذو بعد واحد العديد من الكتب والمقالات التي عبرت عن سياسات اليسار الجديد، وفي نقد المجتمعات الرأسمالية. فهاجم ـ في مقالة بعنوان «التسامح القمعي» ـ الليبرالية وأولئك الذين رفضوا اتخاذ مواقف أثناء نزاعات الستينيات. وقد أكسب ذلك ماركوس شهرة بأنه راديكالي عنيد وصوت لليسار. وفي مقالة حول التحرير (An Essay on Liberation) احتفى ماركوس بجميع حركات التحرر بدءاً من الفيت كونغ (الثوار الفيتناميين) وحتى الهيبيين، وأثار بهجة العديد من الراديكاليين، بينما أقصى أكاديميي المؤسسة وأولئك الذين عارضوا حركات التحرر في حقبة الستينيات. وعلى العكس من ذلك فقد عبر كتاب الثورة المضادة والثورة (Counterrevolution and Revolt) عن الواقعية الجديدة التي كانت تنشأ في أوائل الستينيات عندما أصبح واضحاً أنه يتم تحطيم معظم آمال العقد المفرطة بالتحول إلى اليمين، وإلى «الثورة المضادة» ضد الستينيات.

ورفضت جامعة براندیس تجديد عقد ماركوس التدريسي في العام 1965م، ولكنه لم يلبث أن تلقّى عرضاً من قبل جامعة كاليفورنيا في لاجولا، واستمر بالعمل هناك حتى تقاعده في السبعينيات. وخلال تلك الحقبة من تأثيره الكبير، نشر ماركوس الكثير من المقالات، وألقى العديد من المحاضرات، وقدم النصائح إلى الطلاب الراديكاليين في جميع أنحاء العالم. وقد سافر ماركوس كثيراً، وغالباً ما نوقشت أعماله في وسائل الإعلام. ولذا يعتبر ماركوس واحداً من المفكرين الأمريكيين القليلين الذين حظوا بانتباه العالم. ولم يتخلَّ ماركوس قط عن نظريته الثورية أو عن التزامه، وظل حتى وفاته يدافع عن النظرية الماركسية والاشتراكية التحررية. وقد كان مدرساً كاريزماتياً، وقد بدأ طلابه يحوزون مناصب أكاديمية، وبدأوا يروجون لأفكاره، جاعلين منه قوة رئيسة في الحياة الفكرية الأمريكية حتى بعد فترة طويلة من وفاته في العام 1979م.

لقد أثارت أعمال ماركوس الفلسفية ونظرياته الاجتماعية جدلاً واسعاً، كما تمتاز معظم دراساته بالتحيّز والتعصب. وعلى الرغم من أن معظم أعماله تنتقد المجتمعات الرأسمالية الحديثة وتدافع عن التغيير الاجتماعي الراديكالي، فإن ماركوس خلف أعمالاً معقدة متعددة الجوانب تشبه ما خلفه كل من إرنست بلوخ، وجورج لوكاش، وثيودور أدورنو، ووالتر بنيامين من أعمال. وتتميز أعمال ماركوس بكثرة بجدليته الليبرالية والسيطرة. وقد طور رؤية للتطوير الكامل للفرد في مجتمع غير قمعي، إضافة إلى نقد حاد لأشكال السيطرة والقمع السائدين. ومع أنه كان فيلسوفاً في الأصل، فقد افتقرت أعماله إلى التحليل الإمبريقي السائد في بعض ما تناوله عن النظرية الماركسية، كما افتقرت إلى التحليل المفهومي التفصيلي الموجود في كثير من تصنيفات النظريات الاجتماعية والسياسية. ومع ذلك، فقد أوضح ماركوس باستمرار أن العلوم والتكنولوجيا وحتى النظريات، لها بعدٌ سياسيٌ وتنشئ هيكلاً قوياً من التحاليل الفكرية والسياسية لأشكال السيطرة الاجتماعية والثقافية والفكرية خلال فترة مضطربة عاش فيها، والتي كافح فيها من أجل عالم أفضل.

انظر أيضاً: ثيودور أدورنو ، سيغموند فرويد ، كارل ماركس.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Jürgen Habermas

أهم الأعمال:

.Negations . 1936-8. New York: Beacon Press, 1968

.Reason and Revolution . New York: Oxford University Press, 1941

.Eros and Civilization . Boston, MA: Beacon Press, 1955

.One Dimensional Man . Boston, MA: Beacon Press, 1964

.An Essay on Liberation . Boston, MA: Beacon Press, 1969

.Counterrevolution and Revolt . Boston, MA: Beacon Press, 1972

أوراق ماركوس غير المنشورة مجمعة في: Stadtsbibliothek بالفرانكوفونية والألمانية، وعدة مجلدات من عمله غير المنشور صدر باللغة الألمانية من قبل زو كلامبين (Zu Klampen) ، حررها بيتر - إروين جانسين (Peter-Erwin Jansen) ، وبالإنكليزية من قبل روتلدج (Rout-ledge) ، حررها دوغلاس كيلنر (Douglas Kellner) .

قراءات إضافية:

John Abromeit and Mark Cobb, eds. Herbert Marcuse: A Critical Reader . .London and New York: Routledge, 2003

John. Bokina and Timothy J. Lukes, eds. Marcuse: New Perspectives . .Lawrence, KS: University of Kansas Press, 1994

Douglas Kellner. Herbert Marcuse and the Crisis of Marxism . London and .Berkeley, CA: Macmillan and University of California Press, 1984

Robert Pippin, Andrew Feenberg and Charles P. Webel, eds. Mar-cuse.Critical Theory and the Promise of Utopia . South Hadley, MA: Bergin and Garvey, 1988. برونيسلو

مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski)

كتب برونيسلو كاسبر مالينوفسكي ذات مرة أن عائلته كانت تنتمي إلى «العائلات البولندية النبيلة الصغيرة التي تعرضت للطرد والفقر». وقد ولد مالينوفسكي في العام 1884م بمدينة كراكو عاصمة مقاطعة متعددة الجنسيات بمملكة المجر والنمسا. ودرس في جامعة جاجيلونيان، حيث كان والده أستاذاً في علم فقه اللغة. وقد فاز بالجائزة الملكية عن رسالة الدكتوراه التي أعدها، وقد قام بعمل الدراسات العليا مثل والده في جامعة لايبتزغ. وفي العام 1910م، تخصص في الإثنولوجيا على يد إدفارد فسترمارك (Edvard Westermarck) في كلية الاقتصاد في لندن. وقد ظل وفياً بولائه لمملكة المجر والنمسا، وخلال الحرب العالمية الثانية أصبح نوعاً ما قومياً بولندياً، ولكنه نجح بعمله في العالم الأنكلوسكسوني، فأجرى أعماله الميدانية في غينيا الجديدة عندما كان في أستراليا. ورفض فيما بعد فرصة تعيينه في كرسي أستاذية في جامعة جاجيلونيان لكي يحصل على وظيفة دائمة بكلية لندن للاقتصاد في العام 1923م، حيث اعترف بتأثير الثقافة الإنكليزية الغامضة عليه. وفي العام 1939 انتقل إلى جامعة يال، وظل فيها حتى توفي في العام 1942م إثر أزمة قلبية حادة.

سافر مالينوفسكي إلى أستراليا في العام 1914م لحضور اجتماع كبير للجمعية البريطانية لتقدم العلوم. وعندما نشبت الحرب وجد نفسه أجنبياً معادياً. وسمحت له السلطات الأسترالية بالقيام بأبحاثه بمقاطعة جزر بابوَا، كما قدمت له مساعدات مالية لتمويل أبحاثه. وبعد إجراء دراسات أولية في غينيا الجديدة، أجرى أبحاثاً إثنوغرافية في جزر تروبرياند (1915 - 1918م)، وثوّر في أثناء ذلك الأساليب الميدانية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية. وبابتعاده عن التقليد الإثنوغرافي الذي كان سائداً، فقد أصر مالينوفسكي على «أن على المراقب أن يتخلى عن مكانه المريح على الشرفة حيث يجمع المعلومات من المخبرين». وبدلاً من ذلك عليه أن يقوم بنصب خيمته وسط القرية، وزرع حديقته، وتبادل الهدايا، والاستماع إلى المحادثات، والتغزل، والنقاش. فالتواريخ الشخصية الحميمة، ونزاعات الجيران، وإحساس المرء بالولاء أو الكراهية لالتزاماته القانونية، تتوفر فقط للمراقب عندما يغمس نفسه في الحياة اليومية للقرية. فتلقّي الأصول من الخبراء لا يخبرك كيف يتم لعب

اللعبة. فالأطباء المشعوذون يختلفون فيما بينهم، تماماً كما يختلف الأطباء العاديون. ويميل الناس إلى قول أمر ما، ويفعلون أمراً آخر، إذ إن «متى ما تمكن المرء من التملص من التزاماته من دون أن يخسر ماء وجهه أو من دون خسارته لأي مكسب، فإنه يفعل ذلك؛ تماماً كما يفعل رجل الأعمال المتمدن».

لقد ابتكر مالينوفسكي طرقاً جديدة لطلب وتسجيل البيانات الميدانية. وكان مؤمناً كذلك أن الإثنوغرافي يجب أن يستجوب نفسه بعناية فيما يقوم بدراسة موضوعاته. فقد واظب على كتابة يومياته بشكل متقطع لعدة أعوام منذ قراءته الأولى لنيتشه في مراهقته. وأما الآن فقد أصبحت كتابة اليوميات أداة بحثية فيما كان يرصد حالته الروحية والجسدية ويحث نفسه للقيام بالعمل الشاق. وفي إحدى ملاحظاته نجد قوله «الأمر الأساس لفعله هو التأمل في جانبين: عملي الإثنوغرافي واليوميات التي أكتبها؛ فهما يتممان بعضهما بعضاً». لقد خط مالينوفسكي معظم ملاحظاته الميدانية باللغة الإنكليزية، بينما دوّن ملاحظاته الخاصة باللغة الكيريوينية، نظراً إلى تحسن مستوى هذه اللغة لديه؛ غير أن اليوميات الخاصة فقد كان يكتبها بالبولندية. وقد كان ذلك، من بين أمور أخرى، صمام أمان يعبّر من خلاله عن عواطفه، وكانت صفحاتها مليئة بسورات الاستياء، وحتى الغضب من سكان الجزر.

كتب مالينوفسكي ذات مرة عن «سحر الباحث الذي يمكّنه من إثارة الروح الحقيقية للسكان المحليين والصورة الحقيقية للحياة القبلية». وإن لم يكن ذلك سحراً، فهو فن، ولكن لا بد للباحث من أن يتمركز في البحث الإمبريقي. وكونه درس الفيزياء والكيمياء كطالب جامعي، فقد تخصص في فلسفة العلوم. فقد كتب دراسة عن فلسفة ماك الوضعية، غير أن الأمر انتهى به إلى استخلاص مذهبه الإمبريقي «لا شيء بلا تجربة». «إن المبدأ الأساس لعملي في الميدان: تجنب التبسيطات السطحية. ومن أجل هذه الغاية عليك ما أمكن جمع المواد الصحيحة: راقب كل معلومة؛ اعمل مع الأطفال و الغرباء و المتخصصين . خذ الآراء والأضواء الجانبية». ومع ذلك فقد شعر أحياناً أثناء عمله مع سكان جزر تروبرياند أنه أفرط في ذكر التفاصيل. وكان لا بد من صوغ التجربة. فالنظرية لا بد من أن تأتي قبل الوصف؛ فقد كتب في إحدى مقالاته النظرية في العام 1911م، «يتطلب كل وصف دقيق للحقائق مفاهيم دقيقة، ويمكن فقط أن يتوفر ذلك من خلال نظرية ما».

وقد كان الهدف من ذلك فك الخطوط المتداخلة ـ السحر والاقتصاديات والقرابة والسياسات ـ التي كانت منسوجة سوية حتى في أكثر الأعمال الأساسية، مثل بناء المنازل، أو الإبحار، أو الزراعة. وكان لا بد من تقديم البيئة، التي سماها مالينوفسكي الـ Stimmung (قطعة فنية موسيقية)، كذلك في شكل متابعة فنية للواقع.

كان مالينوفسكي أول إثنوغرافي يمثل «المتوحشين» كفاعلين عقلانيين. فقد كان سكان تروبرياند يستخدمون الأساطير لادعاء الملكية، والطقوس لتوسيع سلطتهم، والزواج لكسب النفوذ. غير أن وصفه كان يفتقر إلى بعد أساس، فقد تجاهل مالينوفسكي المضمون الاستعماري؛ إذ يبدو المسؤولون الحكوميون، والمبشرون، والتجار، صوراً ظلية في كتبه ومقالاته التي نشرت في العام 1935م؛ فقد كتب مالينوفسكي نفسه: «إن الحقائق الإمبريقية التي أمام الإثنوغرافي في جزر تروبرياند في الوقت الحاضر، ليسوا سكاناً أصليين لم يتأثروا بالعوامل الأوروبية فحسب، بل شعباً تغير إلى حد كبير بهذه التأثيرات». وقد أقر مالينوفسكي أن تجاهله للواقع الاستعماري «يمكن أن يعد أكبر نقطة ضعف وقعت فيها خلال القيام بأبحاثي في ميلانيزيا». وفي كلية الاقتصاد في لندن في ثلاثينيات القرن العشرين، دعا مالينوفسكي إلى قيام فرع جديد في الأنثروبولوجيا أطلق عليه «أنثروبولوجيا السكان المحليين المتغيرين». ومع ذلك يحتفظ الإثنوغرافيون بسلطتهم؛ إذ إن مالينوفسكي العالمي اعتبر سكان تروبرياند تماماً مثله.

بين العامين 1923 و1939 أسس مالينوفسكي المدرسة الرائدة في الأنثروبولوجيا في أوروبا في الكلية الاقتصادية في لندن لأول مرة، ودرب الشخصيات الرائدة في الجيل للأنثروبولوجيا البريطانية. وجزئياً بسبب تنافسه مع ألفريد رادكليف ـ براون، الذي كان يعتبر مُنظِّراً معروفاً، حاول مالينوفسكي تطوير نظرية اجتماعية أطلق عليها شبه متهكماً «المدرسة العملية للأنثروبولوجيا». وتقوم الفكرة الأساسية على أن احتياجات البشر هي احتياجات عالمية، وأن على كل «ثقافة» ابتكار المؤسسات التي تناسبها، وتتطلب هذه المؤسسات بالتالي أنظمة دعم، تقدمها المؤسسات الجديدة. ولم تلقَ مساهمات مالينوفسكي النظرية الحماس المطلوب. ولكن أعماله الإثنوغرافية كانت تحوي بداخلها نظرية أكثر تطوراً. فالبشر حيثما كانوا فإنهم يستغلون المؤسسات الاجتماعية لخدمة مصالحهم الخاصة. وإذا ما كان لتلك المؤسسات أن تستمر فعليها أن تقدم شيئاً

عملياً في المقابل. ويلبي السحر والممارسات الدينية الاحتياجات العاطفية، وتساعد على تنظيم الاحتياجات الاقتصادية والعلاقات السياسية. ولذلك يجب على الإثنوغرافيين أن يركزوا على ما يفعله الناس لا على ما يقولون إنه يجب أن يفعلوه.

كان التركيز عندما دخل مالينوفسكي مجال الأنثروبولوجيا على الفروق بين الشعوب، كما أشار هو ذات مرة: «لقد أدركت لأن دراساتهم مهمة، ولكني اعتقدت لأن تبيان أوجه الشبه أكثر أهمية. وما زلت أعتقد أن الشيء الأساس أهم من العجائب... «. لقد وضع مفهوماً لـ «إنسانية جيدة» تستند إلى الفلسفة وعلم الاجتماع. وهذا يتطلب دراسة «الإنسان الحي، واللغة الحية، والحقائق الحية».

انظر أيضاً: إميل دوركهايم، ألفريد رادكليف ـ براون.

انظر أيضاً:

.Fifiy Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Talcott Parsons

أهم الأعمال:

The Family among the Australian Aborigines . 1913. New York: Schocken .Books, 1963

The Ethnography of Malinowski: The Trobriand Islands 1915-1918 . Ed. .M. W. Young. London: Routledge, 1979

Argonauts of the Western Pacific: An Account of Native Enterprise and Adventure in the Archipelagoes of Melanesian New Guinea . London: .Routledge, 1922

.Crime and Custom in Savage Society . London: Routledge, 1926

.The Sexual Life of Savages . London: Routledge, 1929

.Coral Gardens and their Magic , 2 vols. London: Routledge, 1935

A Scientific Theory of Culture and Other Essays . 1939-41. Chapel Hill, .NC: University of North Carolina Press, 1944

يمكن القارئ متابعة تأملات مالينوفسكي في عمله عن سكان جزر تروبرياند في:

A Diary in the Strict Sense of the Term . ed. Raymond Firth. Stanford, CA: .Stanford University Press, 1989

قراءات إضافية:

Adam Kuper. Anthropologists and Anthropology: The Modern British .School . London: Routledge, 1996. ch. 1

George W. Stocking, Jr. After Tylor: British Social Anthropology .1888-1951 . Madison, WI: Wisconsin University Press, 1995

Michael Young. Malinowski: Odyssey of an Anthropologist 1884-1920 . .New Haven, CT: Yale University Press, 2004

كارل مانهايم (Karl Mannheim)

يَذكُرُ كثير من الناس مشاهير علم الاجتماع لمساهماتهم الأصيلة والمؤثرة في نظرية أو منهج التحقيق الاجتماعي. وقياساً على هذه المعايير يُعد كارل مانهايم واحداً من هؤلاء العلماء المتميزين في مجال علم الاجتماع. ويميز مانهايم بدراساته عن الأجيال، والطموح الاقتصادي، والمنافسة، وبناء التفكير وغيرها من الموضوعات المشابهة في سوسيولوجيا الثقافة، إضافة إلى عمله اللاحق السوسيولوجيا السياسية، وخاصة أسلوب التخطيط. وفضلاً عن ذلك كله، فقد اشتهر مانهايم بأعماله المثيودولوجية النوعية، بدءاً بمقالته المهمة عن الفكر المحافظ، وفي العلم الفرعي، «سوسيولوجيا المعرفة»، الذي ساعد على إنشائه. وعلى الرغم من إنجازاته الأخرى، فإن منهجيته في المعرفة هي التي تؤهله ليكون كلاسيكياً. ويعد كتاب الأيديولوجيا واليوتوبيا (Ideology and Utopia) أشهر مؤلفاته على الإطلاق. وقد نُشر هذا الكتاب للمرة الأولى في ألمانيا في العام 1929م، ثم نشر مرة أخرى بالطبعة الإنكليزية الموسعة والمفصلة في العام 1936م. واستمر طبعها منذ ذلك الوقت. وفي التحليل الأخير، فإن مساهمات مانهايم في السوسيولوجيا هي تلك المساهمات التي تجسد رؤية السوسيولوجيا كتطبيق.

وُلد مانهايم في بودابست في المجر في العام 1893م، ومات في لندن في إنكلترا في العام 1947م. وعندما كان لا يزال طالباً ومفكراً شاباً في المجر، كان مانهايم قريباً من شخصيات أصبحت فيما بعد من أشهر الشخصيات الشيوعية. وبما أنه لم يكن ذا ولاء شيوعي، فقد اضطر إلى الفرار عندما تمت الإطاحة بالحكم السوفياتي الوجيز في المجر في العام 1919، إذ إن الحكام الجدد كانوا يضطهدون كل شخص لا يثقون به. وعاش مانهايم في ألمانيا بين الأعوام 1920م و1932م، وقام بالتدريس هناك في جامعة فرانكفورت. وفي ربيع العام 1933م، بعد تولي هتلر الحكم بفترة وجيزة، فقد مانهايم وظيفته كأستاذ جامعي، ونُفي لأنه كان يهودياً وأجنبياً. ويمكن اعتبار اضطهاد مانهايم المتكرر بسبب الاضطرابات السياسية ذا صلة بفهم منهجيته في تناول الأفكار السياسية. فقد كان مانهايم يدرك أن الأفكار السياسة ليست مجرد كلام سياسي خاوٍ، وإنما كلام له تبعات قد يكون بعضها قاتلاً.

وككاتب، وحتى أكثر كمدرس، اعتقد مانهايم أن على المرء التحدُّث مباشرة عن تجارب الناس؛ وأنه من غير المجدي الإجابة عن أسئلة لم ينقَدْ الناس لها خلال حيواتهم ليسألوها أو يدركوها. وقد سعى مانهايم، بسوسيولوجيا المعرفة الخاصة به إلى توضيح ـ والمساعدة في التغلب على ـ ثلاثة أنواع، على الأقل، من التجارب المقلقة، وكلها تجارب مشتركة في الزمن الحاضر كما كانت في زمانه هو.

تتخذ التجربة الأولى شكل التناقض بين حالة المرء الخاصة، كما يتم عيشها ذاتياً في العقل والبدن، وبين المعنى الموضوعي المفترض المعزو إليها من قِبَل طُرُق الحديث المعترف بها من قِبَل العامة ومُجَازة رسمياً. وذكر مانهايم مثلاً قضايا النساء والشباب: فهناك تعريف مقبول لما يمكن أن يكون امرأة أو شاباً، غير أن النساء والشباب لا يمكنهم تطبيق هذه المعاني على أنفسهم ليدركوا ما الذي يحدث لهم، وما الذي يفعلونه أو يشعرون به. وقد جذب منذ وقت مبكر انتباه مانهايم وجود بناء موضوعي مقبول بشكل عام للمعاني ـ غالباً ما يسمى «الرؤية العالمية» ـ وهو ما تعلمه من مدرسين مفكرين في فترة شبابه، وعلى رأسهم عالم الاجتماع جورج سيميل، والأديب وصاحب النظرية الاجتماعية جورج لوكاش. وبينما يؤكد علماء اجتماع آخرون المدى حيث تُشَكِّل وتُعرِّف، هذه البناءات الاجتماعية للحقائق، تجاربنا، فقد ركز مانهايم على تجربة التناقضات بين «الموضوعية» و«الذاتية» اللتين يعتبرونهما مصدراً للاستياء العميق الذي لا علاج له (سيميل في «تراجيديا الثقافة»)، أو سبباً محتملاً للأزمات أو التحول الثوري. (نظرية لوكاش عن «الإقصاء»).

وتحد التجارب الثانية التجارب الأولى وتقوضها إلى حد ما؛ إذ إننا نواجه هنا طرقاً متنازعة لتعيين «المعاني». فلا يمكن أن توجد «طريقة معترف بها من قبل العامة ومجازة رسمياً». ويمكن أن تكون هذه المفاهيم المختلطة مفهومة لدى بعضهم، ومبهمة لدى بعضهم الآخر؛ إذ لا يمكن على سبيل المثال أن تفهم مجموعة ما تعنيه مجموعة أخرى. «إنهم يفقدون الحوار فيما بينهم». وأكد مانهايم هذه المفاهيم المتباينة مثل الدين والخرافات والعلوم والتربية، إضافة إلى التصنيفات الفلسفية الأساسية كالزمان والفضاء. وقد استنتج مانهايم بعد وصوله إلى ألمانيا التي كانت تموج في ذلك الوقت بتيارات فكرية وسياسية واجتماعية متعارضة، أن معظم القطاعات في المجتمعات الحديثة تتميز بالتنافس حول أساليب مختلفة للمعاني، «وليس برؤية عالمية متكاملة. وقد استعار

مانهايم مفاهيم النظرية الماركسية وراجعها لتصنيف تلك البناءات العديدة. ومن الماركسية كذلك تبنّى مانهايم فكرة أنّ الأيديولوجيات يجب أن تفهم كـ «وظيفة» موقع اجتماعي ما مميز، وأن هناك «تطابقاً» بين شغل مكانة اجتماعية في المجتمع وتفسير العالم بطريقة معينة؛ فالأيديولوجيات متجذرة اجتماعياً: إنها تُعزى إلى موقع اجتماعي ما. وقد تجنب مانهايم العبارات العرضية، ولم يدّعِ أن كل الأشخاص الذين يتشاركون موقعاً اجتماعياً ما يعتنقون أيديولوجيا واحدة. ومع ذلك فقد كان مانهايم واثقاً من أنه يمكن إظهار «ملاءمة ما» وأنه يمكن شرح الأيديولوجيا فقط بالإحالة على الأساس التجربي ذاك.

يختلف تبنّي مانهايم عن النظرية الماركسية في أمرين مهمين: أولهما ، أنه عرف الموقع الاجتماعي إضافة إلى الموقع الطبقي الاقتصادي أساساً للأيديولوجيات. وكانت البيروقراطية هي المثال الأساس الذي ذكره في كتابه الأيديولوجيا واليوتوبيا ، والذي عزا فيه إليها نوعاً خاصاً من «المحافظة البيروقراطية، وكذلك عزا إلى التكوين الاستراتيجي للمفكرين، شريحة مستأصلة تقوم بمهمة الإحالة الاجتماعية لفهم الأيديولوجية الفاشية. وقد قام كذلك بإدخال الاختلافات الجندرية والجيلية، ولكن كمصدر للتعديلات أو الملاءمات للبناءات الأيديولوجية. وكما توحي هذه الأمثلة، فقد اعتبر مانهايم أن الأيديولوجيات الأولية التي كانت تتنافس في زمانه بأنها اتخذت شكل أيديولوجيات سياسية، وعرفها بأسماء الميولات السياسية البارزة والأحزاب: الاشتراكية، والليبرالية، والمحافظة البيروقراطية والفاشية. ومع ذلك، على خلاف ماكس فيبر الذي كان مهماً بالنسبة إليه في العديد من الجوانب، لم يعتبر مانهايم الأيديولوجيات على أساس الدين أو الدوائر الاجتماعية، على الرغم من نفوذ الحزب الديني الكاثوليكي في الحياة السياسية في فايمر. وتظل هذه النقطة نقطة عمياء في سوسيولوجيا مانهايم.

وفي شرحه الرابطة بين المواقع الاجتماعية والأيديولوجية، تجنب مانهايم تماماً فكرة أن المجموعات تتكلم على العالم بطريقة معينة لأن ذلك يعزز مصالحهم الاقتصادية. وأقر مانهايم بوقوع ذلك، إلا أنه لم يعتبر أنه التفسير النهائي للأيديولوجيا. وبدلاً من ذلك فإنه يبحث في اللغة الاستعارية لـ «المنظور» (perspective) و«الاستشراف» (standpoint) ؛ فهذه التفسيرات الاجتماعية الخاصة تمكن المجموعات من توجيه نفسها إلى النشاطات والمشاكل الخاصة بمواقعهم

في الفضاء والزمان الاجتماعيين، بما في ذلك صراعها على السلطة. فالأيديولوجيات تفهم العالم الذي تواجهه.

ثانياً يختلف مانهايم عن الماركسية برفضه ادعاءها أن الطبقات يمكن أن يقدرها التاريخ بوجهة نظر متميزة؛ إذ إنها مهيأة أن تشكل المرحلة التالية من التاريخ. وكثيراً ما يطلق الماركسيون لفظ «أيديولوجيا» على آراء خصومهم، بينما يطلقون لفظ «علم» على آرائهم هم. ويشدد مانهايم أن الماركسية هي أيديولوجية تماماً كما هي «الليبرالية» البرجوازية و«المحافظة» المجموعات الاجتماعية الأقدم المهيمنة المناوئة للحداثة.

وأما التجربة الثالثة الأكثر جدية من بين «التجارب المقلقة» المذكورة أعلاه فهي تستلزم الاثنتين الأخريين. ففي المسرح السياسي الألماني في عشرينيات القرن العشرين شخّص أزمة من «انعدام ثقة» الشاملة. فجميع الأحزاب السياسية كانت تدعي أنها على دراية تامة بآراء الأحزاب الأخرى، وأنها كانت لا ترى فيها سوى وجهات نظر ذات مصلحة ذاتية لطبقة ما أو تجمع اجتماعي، أي «الأيديولوجيا» بمعناها السوقي. وفي ظل هذه الظروف استنتج مانهايم، أنه لا يوجد أي تنافس مثمر بين الأيديولوجيات؛ فلا يمكن لأحد أن يقنع أحداً بحجته؛ ولا يمكنهم حتى التفاوض. وعلق مانهايم أن الفاشيين في عصره كانوا مؤيدين تماماً للفكرة القائلة بأنه لا يوجد ما يفاوض عليه أو ما يُساوَم عليه في السياسة، وأن الأمر الوحيد المطلوب هو وجود أيديولوجيا تفوز. وطبقاً لذلك فإن «الأيديولوجيا» والعنف جزآن من معادلة واحدة.

وعلى العكس من ذلك، فإن «الأيديولوجيا» بالنسبة إلى مانهايم أمر جزئي، ولكنها أسلوب قيّم من أساليب المعرفة. إن سوسيولوجيا المعرفة عند مانهايم شكل من أشكال «العلاج» الأساس.. إنها استراتيجية جعل المعرفة الاجتماعية متاحة لاتخاذ شكل يعزز الإدارة المنطقية للشؤون البشرية. الواضح هو إمكانية تحقيق «التوافق» الذي يتطلب رؤية «كلية» تجمع في كلٍّ متعدد الأبعاد تكون فيه المنظورات الأيديولوجية المتنوعة في موقع يمكن أن يُرى؛ فعلى سبيل المثال يستطيع الاشتراكيون رؤية آليات الاستغلال الاقتصادي، بينما يرى الليبراليون السلطة القمعية للدولة؛ إن «التوافق» بين وجهات النظر لن يزيل الصراعات الموجودة بين المجموعات، ولكنه يمكن أن يوفر نقطة مرجعية مشتركة لحساب تكلفات ومنافع البدائل المختلفة، ونقطة مرجعية مشتركة

أيضاً للمساومة ولعقد الصفقات. وسيكون هناك فرص جديدة لوجود اختيارات مسؤولة داخل نظام دستوري للتنافس الديمقراطي، وهي نقطة تتوج التحليل وتكشف كون مانهايم خليفة ماكس فيبر في الفكر السياسي.

ولكن كيف يمكن أن يتأتى مثل هذا «التوافق» وجميع الأحزاب متحيزة؟ وكان جواب مانهايم الشهير عن ذلك بأن هناك في المجتمع الحديث طبقة من الفاعلين مستقلة في طريقة مهمة عن الأرضية الاجتماعية تتمثل في المفكرين. ويمكن توظيف هذا التكوين، البعيد عن الجزء الفاسد المرتبط بالفاشية، من مواقع اجتماعية عديدة ويشترك في نشاطات ـ في الغالب من النوع الفكري ـ تبقي أفراده بمنأى عن التماهي بالمجموعات وآرائهم الأساسية. وتنتج خبراتهم التكوينية، الناتجة عن التعليم المكثف والمتطور، مسافة بين الأيديولوجيات في الوطن في موقع اجتماعي ما أو موقع آخر. إن لديهم رؤىً للأيديولوجيا من دون المرارة والإحباط الذي يرافق الأوصاف الرافضة لتلك الرؤى، وهو أمر نموذجي للمجموعات السياسية المشاركة في «أزمة انعدام الثقة». وفيما يطور المفكرون الذين تحولوا إلى علماء اجتماع ويهذبون سوسيولوجيا المعرفة، فإنه يمكنهم نشر هذا «التوافق» والتغلب على «الأزمة»، وذلك ليس بتولي القيادة (كما يفعل الفاشيون)، وإنما بالجمع بين أمرين: أولاً ، إنهم يتصرفون كمحفزين في العملية السياسية، يقدمون تفسيرات تبرد الحرارة وتروج المساومة. و ثانياً ، إنهم يجلبون «التعليم السياسي» للجماهير الديمقراطية التي حصلت حديثاً على حق الاقتراع، وذلك لمواجهة التعصب، ولغرس الإدراك في الناس بعدم وجود منقذين أو رؤى منقذة، وكذلك ـ مردداً فيبر ـ بغرس شعور مسؤولياتهم الخاصة.

ماذا يمكننا أن نذكر اليوم عن رؤية مانهايم لعلم الاجتماع كتطبيق؟ من الواضح أن اقتراحاته، على الرغم من مناقشتها الواسعة، لم تؤثر شيئاً في منع استيلاء النازيين على الحكم. وإضافة إلى ذلك، فعند ترجمة أعماله إلى الإنكليزية فقدت كثيراً من أهدافها الأساسية حتى بالنسبة إلى هؤلاء الذين اعتبروها ذات قيمة، وأصبحت السوسيولوجيا المعرفية مجرد طريقة لشرح الأفكار السياسية، أو أشكال المعرفة الاجتماعية من دون أي توقع أن هذا الشرح سيحسن المعرفة السياسية العملية أو يحد من الخصومة السياسية. لقد أصبحت سوسيولوجيا المعرفة جزءاً من علم الاجتماع كعلم شرحي من دون قيمة، بدلاً من أن يكون تطبيق لتشخيص المشاكل السياسية وابتكار تدخلات

علاجية. ومع ذلك، فإن فكرة السوسيولوجيا كنوع من التدخل في الحياة الاجتماعية يُمارس من قبل الفاعلين ولأجلهم، وليس كشرح علمي ناءٍ، كما يتم تطبيقه من قبل متفرج غير مهتم بالكلية، لا تبقى (الفكرة) ميتة لمدة طويلة. ويشجعنا العمل من خلال أعمال «كلاسيكية» مثل كتاب مانهايم الشهير، الأيديولوجيا واليوتوبيا ، العودة إلى الأسئلة حول حدود ومسؤوليات العلم الاجتماعي؟ وهذا ما يجعل تلك الأعمال أعمالاً كلاسيكية.

انظر أيضاً: جورج لوكاش ، كارل ماركس ، ماكس شيلر، ماكس فيبر.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Norbert Elias

أهم الأعمال:

.Structures of Thinking . 1922-4. London: Routledge & Kegan Paul, 1982

.Conservatism . 1925. London: Routledge & Kegan Paul, 1986, 2001

Essays in the Sociology of Knowledge . 1923-30. London: Routledge & .Kegan Paul, 1952

Sociology as Political Education . 1930. New Brunswick, NJ: Transaction .Publishers, 2001

.Ideology and Utopia . London: Routledge & Kegan Paul, Rev. 1936

Man and Society in an Age of Reconstruction . 1935-7. London: Routledge .& Kegan Paul, 1940

Essays in Sociology and Social Psychology . 1936-40. London: Routledge .& Kegan Paul, 1953

Diagnosis of Our Times . 1939-43. London: Routledge & Kegan Paul, .1943

يمكن إيجاد مجموعة مفيدة من مقتطفات مانهايم في:

From Karl Mannheim (2 nd expanded ed.), ed. Kurt H. Wolff. New Brun- .swick, NJ; London: Transaction Publishers, 1993

تم نشر مقالات عديدة مختلفة الجودة والأصالة مثل:

Freedom, Power and Democratic Planning . London: Routledge & Kegan Paul, 1951; Essays in the Sociology of Culture . London: Routledge & Kegan Paul, 1956, and Systematic Sociology , London: Routledge & .Kegan Paul, 1957

قراءات إضافية:

David Kettler and Volker Meja. Karl Mannheim and the Crisis of Liber- alism: The Secret of these New Times . New Brunswick, NJ: Transaction .Publishers, 1995

Colin Loader and David Kettler. Karl Mannheim's Sociology as Political .Education . New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2002

Volker Meja and Nico Stehr. Knowledge and Politics. The Sociology of .Knowledge Dispute . London: Routledge & Kegan Paul, 1990

لويس مورغان (Lewis Morgan)

يعد الكثيرون لويس هنري أنه مؤسس الأنثروبولوجيا الأمريكية، إن لم يكن مؤسس هذا العلم بشكل كلي، وهو صاحب نظرية «المجتمع الأول» الذي اعتمد عليه كل من ماركس وإنغلز حين اعتبار أصول المجتمع وتطوره. وُلد مورغان في 21 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1818 بالقرب من مدينة أورورا في نيويورك. ولم يكن عالماً تخرج من الجامعة، وإنما حصل على تدريبه كمحام ممارس، وأصبح رجل أعمال ناجح شارك في السكة الحديد والتمويلات الصناعية وفي السياسة أيضاً، كما كان عضواً في البرلمان في ولاية نيويورك (في الفترة ما بين 1861 و1868)، وعضواً في مجلس الشيوخ (في الفترة ما بين 1868 إلى 1869). وتوفي مورغان في العام 1881.

وصل مورغان إلى البحث الذي أدى في نهاية المطاف إلى مساهماته التأسيسية في العلوم الاجتماعية من خلال مسار غير مباشر؛ ففي أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر، التحق بنادٍ أدبي يتكون من زملائه من خريجي المدرسة الإعدادية التي كان يدرس فيها، والتي شكّلت ذاتها على غرار الأفكار الرئيسة للمدارس الرومانية واليونانية. ولم يلبث النادي بعد ذلك أن سعى إلى إعادة نمذجة نفسه على غرار بنية كونفدرالية الإيروكواس، التي كان أعضاؤها يعيشون في محمية مجاورة. وقد التقى مورغان صدفة بأحد أعضاء تلك القبيلة، ومن هنا بدأ بحثه العلمي الجاد في الحياة الاجتماعية، ولا سيما تنظيم القرابة للمجتمعات. وقد استغرق في التركيز على هذا العمل لدرجة أهمل معها مورغان ممارسته القانونية، بينما كان يسعى إلى الانتهاء من بحثه عن الإيروكواس. وكان عمله مع الإيروكواس مبدعاً في مناحٍ عديدة؛ فعلى سبيل المثال، قام ببحث ميداني موسع بمساعدة شاب من قبيلة سينيكا، وهو إيلي باركر، واستخدم بحثه لمساعدة قبيلة سينيكا في أعمالها القانونية ضد محاولات الاستيلاء على أراضيها، غير أن أهم نتائج هذا العمل كان منشوره المبدع League of the Ho-dé-no-sau-nee or Iroquois الذي يعد أول دراسة إثنوغرافية متكاملة تعتمد على العمل الميداني.

في نهاية خمسينيات القرن التاسع عشر، وبعد أن أصبح مورغان ثرياً إلى حد ما من خلال عمله القانوني واستثماراته التجارية، حوّل مورغان اهتمامه ثانية إلى البحث الإثنولوجي. وتحققت إحدى الفرص خلال رحلة عمل ـ وهي أن جماعات الأوجيبوا المجاورة كانت تستخدم نظام قرابة مشابه لذلك الذي تعرّف إليه بين الإيروكواس ـ ما أتاح له فرصة تطوير عمله بناء على الروابط ما بين القرابة والتنظيم الاجتماعي، وسمح له هذا بالشروع في استكشاف الصلات بين الجماعات المختلفة استناداً إلى نقاط التشابه في نظم القرابة الخاصة بها. وباتباع الممارسات الفيلولوجية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وباستخدام تمويل من مؤسسة سميثسونيان ووزارة الخارجية، قام مورغان بتطوير استفتاء استخدم فيه مصطلحات القرابة ووزعه على المبعوثين والسفراء والمستكشفين والعلماء في أوروبا وأمريكا الشمالية، وكذلك في أجزاء من آسيا وجزر المحيط الهادي. وقد تلقى نتيجة ذلك ردوداً تغطي ما يقرب من 140 ثقافة. ومن خلال جدولته لبيانات الدراسة الاستقصائية، خلص مورغان إلى أنه يمكن تقسيم تنظيم القرابة إلى نمطين أساسيين؛ وهما النظام «التوصيفي»، الذي يميز، وفقاً لمصطلحات القرابة الإنكليزية، بين السلف الوراثي المباشر (من جهة الأب أو الأم) و«غير المباشر» (الخال والخالة والعم والعمة)؛ والنظام «التصنيفي» الذي يشير فيه المصطلح (مثل الأب أو الأم) إلى كل من الأسلاف المباشرين وغير المباشرين. وقد تمخض هذا العمل عن نشر كتاب أنظمة القرابة والمصاهرة في العائلة البشرية (Systems of Consanguinity and Affinity of the Human Family) في العام 1871. ويعتبر هذا المجلد الذي سعى إلى تفسير تاريخ المجتمع وتطوره من خلال دراسة تفصيلية لتنوع مصطلحات القرابة، أنه يؤسس بشكل كبير للدراسة المقارنة للقرابة ودورها في تاريخ البشرية والمجتمع كتركيز أولوي لعلم الأنثروبولوجيا.

كان كتاب المجتمع القديم (Ancient Society) هو المساهمة التأسيسية الثالثة لمورغان للعلوم الاجتماعية. وقد تتبع هذا الكتاب مساراً فردياً للتطور والنشوء، واضعاً المجتمعات عند نقاط مختلفة على طول المسار. وبدءاً من المجتمعات التي تعتمد على التحدر من الأم بشكل مباشر، ومن ثم بانتقاله إلى تلك التي تعتمد على التحدر من الأب، رأى مورغان أنها تشبه إلى حد كبير مجتمعاتنا. وصنف مورغان المجتمعات إلى ثلاثة مستويات: «الهمجية»، و«البربرية»، و«الحضارة». واعتمد في هذا التصنيف على سمات مثل الاختراعات التكنولوجية والاكتشافات، والبنية الحكومية، ونظام القرابة، ونشأة الملكية الخاصة. وباتباعه منهجية نموذجية لنظرية النشوء

الثقافي، فقد اقترح كتاب المجتمع القديم أن التطور البشري تطور تراكمي، تتطور فيه التكنولوجيا المعاصرة والنظم الحكومية وعلاقات الملكية من نظم سابقة «أكثر بساطة». ويفترض مقدماً أن مراحل التطور الأولي يمكن أن يتم تمثيلها بشكل كافٍ من خلال فحص طرق حياة المجتمعات المعاصرة التي طالما وُصفت بأنها «بدائية».

ولتقدير موقف مورغان من عرض هذا التسلسل بالكامل، فمن المهم أن نتذكر أنه في الوقت الذي كتب فيه المجتمع القديم ، كانت تعتبر نظرية التطور الاجتماعي تقدمية من الناحية السياسية؛ إذ إنها، كما يشير مصطلح «الأسرة البشرية» في كتاب النظم ، تفترض مسبقاً أن البشر جميعهم من نوع واحد، وأن بذور الإمكانات البشرية موجودة بالتالي في كل شخص، وفي كل حضارة، وفي كل حقبة زمنية، بحيث يصبح كل مجتمع في النهاية، في ظل الظروف الصحيحة، مجتمعاً متحضراً. وبذلك، فقد قدمت حجة مقابلة قوية لـ «نظرية تعدد الأصول» التي سعت إلى تأسيس أنه ما من إمكانية لتطور عالمي للثقافة؛ إذ إن «الأعراق» المختلفة «خُلقت» في أوقات مختلفة ولأغراض مختلفة. وقد تم ترويج هذا الافتراض الأخير من قبل المحافظين السياسيين لتبرير دعمهم للعبودية وللتمييز المنظم ضد العبيد السابقين.

كان لكتاب المجتمع القديم تأثيرٌ مباشرٌ ومستمرٌ على تطوير نظرية النشوء الماركسية. وقد كانت البيانات المقدمة مهمة لماركس بما فيه الكفاية حتى يدون مقتطفات ضخمة منها في سلسلة من الكراسات الخاصة في الإثنولوجيا. وفي هذه الكراسات سجل ماركس معلومات تتعلق بأصول الحضارة وبالحالة ذات الأهمية الخاصة لأفكاره فيما يتعلق بأصول المجتمع وتطوره الأولي. وعقب وفاة ماركس، عثر إنغلز على هذه الكراسات وجعلها أساساً لكتابه أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (The Origin of the Family, Private Property and the State) . ومع قبول إنغلز للكثير من أدلة مورغان وفرضيته العامة بأن التسلسل الوراثي من الأم يسبق نظيره من الأب، فقد كانت مساهمته الأساسية إنشاء صلات بين البيانات التاريخية والأشكال المعاصرة من الأسرة والنظم السياسية وأشكال الملكية في ظل الرأسمالية.

كما تشهد الأعمال التي نوقشت هنا، فإن مساهمات مورغان في تطوير النظرية الاجتماعية في القرن التاسع عشر، هي بمثابة إنجازات تاريخية. ويتردد صدى إرث التوجيهات التي سار عليها

كإثنوغرافي وكصاحب نظرية اجتماعية في أعمال علماء العصر الحاضر. وربما كان أبلغ تقدير لمساهمته الخالدة موجوداً في حقيقة أن كتاب البنيات الأساسية للقرابة (The Elementary Structure of Kinship) لكلود ليفي ستراوس، والذي يعتبر المساهمة الوحيدة الأكثر أهمية للقرابة والنظرية الاجتماعية، والذي كتب في القرن الماضي، قد تم إهداؤه إلى ذكرى مورغان.

انظر أيضاً: كارل ماركس.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Claude Lévi-Strauss

أهم الأعمال:

.League of the Iroquois . 1851. New York: Corinth, 1962

Systems of Consanguinity and Affinity of the Human Family . Smithsonian Contributions to Knowledge, vol. 17. Washington, DC: Smithsonian Insti-.tution, 1871

Ancient Society, or Researches in the Lines of Human Progress from Sav-agery through Barbarism to Civilization . 1877. Tucson, AZ: University of .Arizona Press, 1985

قراءات إضافية:

Friedrich Engels. 1884. Origins of the Family, Private Property and the .State . London: Penguin, 1986

Meyer Fortes. Kinship and the Social Order: The Legacy of Lewis Henry .Morgan . Chicago: Aldine, 1969

Lawrence Krader, ed. The Ethnological Notebooks of Karl Marx: Studies .of Morgan . Assen: Van Gorcum, 1972

Claude Lévi-Strauss. 1947. The Elementary Structures of Kinship . Boston, .MA: Beacon Press, 1969

Carl Resek. Lewis Henry Morgan, American Scholar . Chicago: University .of Chicago Press, 1960

Thomas R. Trautmann. Lewis Henry Morgan and the Invention of Kinship .. Berkeley, CA: University of California Press, 1987

مارسيل موس (Marcel Mauss)

مارسيل موس هو أب الإثنوغرافيا الفرنسية، وقد كان له تأثير عميق في العلوم البشرية والعلوم الاجتماعية، وقد خلّف وراءه تراثاً ثقافياً غنياً هائلاً. ويرتبط اسمه بشكل تلقائي بخاله ومعلمه إميل دوركهايم، بل إن بعضهم يقول إنه كان يسير «على درب دوركهايم» حين وصف إنتاجه العلمي الذي ظهر من خلال التعاون المباشر مع هذا الأخير.

وُلد موس لأسرة من التجار والحاخامات في مدينة إيبينال في العام 1872. وقد درس الفلسفة في بوردو على يد دوركهايم. وبعد أن حصل التأهيل في تعليم الفلسفة في العام 1895، تخلى عن مساره المهني في التدريس في المدارس الثانوية، وتحوّل بدلاً من ذلك إلى سوسيولوجيا الدين. وخلال دراساته في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (Ecole Pratique des Hautes Etudes) ، ورحلته إلى هولندا وإنكلترا، اكتسب أساساً ثابتاً في الفلسفة، وتاريخ الأديان، والإثنولوجيا. كما كان موس أيضاً نشطاً سياسياً منذ أيام دراسته في الجامعة، حيث أيّد درايفوس والاشتراكيين. وقد عمل مع الحركة الاجتماعية وشارك في تأسيس شركة المكتبة والنشر (Société de librairie et d'édition) بالاشتراك مع لوسيان هر (Lucien Herr) وتشارلز أندلر (Charles Andler) . وبمجرد أن أصبح موس أستاذاً في الجامعة، انخرط في الحركة التعاونية والحزب الاشتراكي، ونشر العديد من المقالات في مجلة لومانيتي (L'Humanité) التي كان أحد مؤسسيها.

أنتج مارسيل موس، أول عمل ضخم له بالاشتراك مع صديقه وزميله هنري هوبرت بعنوان التضحية: طبيعتها ووظائفها (Sacrifice: Its Nature and Functions) ، وقد ظهرت المقالة في لانّيه سوسيولوجيك (L'Année Sociologique) التي أسسها دوركهايم في العام 1898، وبما أن موس كان مسؤولاً عن قسم السوسيولوجيا الدينية، فقد كان أحد المساهمين الرائدين فيه. وأما في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا،التي خلف فيها ليون مارلييه (Léon Marillier) في العام 1901، فقد كان موس مسؤولاً عن تعليم تاريخ دين الشعوب البدائية. وقد أعد موس بحثاً يزخر بالعديد من المقارنات ومدعماً بالأدلة التفصيلية، وكان جزءاً من برنامج بعنوان «التعابير الطقسية

للحياة الدينية»، وكان الغرض منه تطوير نظرية عن المقدسات. وسرعان ما تخطى عمله حدود سوسيولوجيا الدين ليتعامل مع نظرية المعرفة، كما يمكن أن نرى في مقالته التي كتبها مع دوركهايم بعنوان التصنيف البدائي (Primitive Classification) . أما فيما يتعلق بعلم الاجتماع، فقد سارع مؤيدو دوركهايم إلى الإشارة إلى أن هذا العمل كان بمثابة سيكولوجيا جماعية تهدف إلى دراسة التمثيل الجماعي.

أما النقاش الرئيس في أولى كتب دوركهايم التي كتبها في نهاية القرن التاسع عشر، فقد كان يدور حول الصراع بين الفرد والمجتمع، وكانت إحدى المشكلات التي واجهت علم الاجتماع منذ بدايته هي طبيعته الخاصة وعلاقته بالعلوم الأخرى، ولا سيما علم النفس. ولم تُثِرْ هذه النظرية خصوم دوركهايم فحسب، من أمثال غابريال تارد، بل أدت إلى انقسام زملائه، كما يمكن أن نرى من الأعداد الأولى لمجلة لانّيه سوسيولوجيك . فقد كان سيليستين بوغلي (Célestin Bouglé) مثل صديقه بول لابي (Paul Lapie) ، متردداً إزاء ما يتعلق بالإطار النظري الذي قدمه دوركهايم، والذي يعترف بدور الفرد ويسعى إلى تخطي الصراع بين الفرد والمجتمع، ويتحدث عن التفاعل والترابط بين الأفراد والتواصل من خلال الإدراك الواعي.

ويمكن أن نرى أيضاً اعتزام تخفيف حدة النغمة الدغمائية لدوركهايم في عمل موس؛ ففي نص بعنوان السوسيولوجيا ، شاركه في كتابته بول فوكونيه (Paul Fauconnet) في العام 1901، في الموسوعة الكبرى (La Grande Encyclopédie) ، أكد الوجهة السيكولوجية للحياة الاجتماعية والعقائد والمشاعر المشتركة. فقد كتب يقول: «إن أساس الحياة الاجتماعية هو مجموعة من التمثيلات»، مضيفاً أنه «في هذا الإطار يمكن القول إن علم الاجتماع هو نوع من علم النفس». وكان من الواضح أنه يعني سيكولوجيا تختلف عن سيكولوجيا الفرد. وقد نشر موس بالاشتراك مع هنري هوبرت في مجلة لانّيه سوسيولوجيك في العام 1902 مقالاً مهمّاً «نظرية عامة عن السحر» أوضحا فيه أن قوانين علم النفس الجماعي هنا تتخطى قوانين علم النفس الفردي: فقد كتبا يقولان «إن الاعتقاد هو الذي يخلق الساحر... والتأثيرات التي يطلقها». وقد أثار استخدامهما لمفهوم «مانا» بمعنى الفكرة الأساسية للسحر جدلاً دام طويلاً.

لقد تطوع موس وعمل مترجماً خلال الحرب العالمية الأولى التي تسببت بشكل مباشر وغير مباشر بالوفاة المأساوية لكل من دوركهايم وابنه أندريه، والعديد من المساهمين الآخرين في مجلة لانّيه سوسيولوجيك . وعقب الحرب تولى موس المهمة الصعبة بالحلول مكان خاله. وقد حاول أن يعيد إصدار لانّيه سوسيولوجيك ، ولكن لم يصدر منها سوى عددين في عامي 1925 و1927.

كما حافظ أيضاً على نشاطه السياسي المكثف، إذ تولّى تحرير عمل مهم عن الدول، وبعد نشر مقالته «ملاحظات على العنف» في Vie socialiste ، خطط لعمل كتاب عن البلشفية. وبعد تشجعه بسبب الاغتراب الحالي الذي كان يجذب جمهوراً جديداً إلى الإثنولوجيا، عمل موس جنباً إلى جنب مع لوسيان ليفي ـ برول وبول ريفيت لإنشاء معهد الإثنولوجيا في باريس عام 1925. وقد جذب هذا المعهد العديد من الطلاب والباحثين من أمثال جان كويزينييه (Jeanne Cuisinier) ، وألفريد ميترو (Alfred Métraux) ، ومارسيل غريول (Marcel Griaule) ، وجورج دوميزيل (George Dumézil) ، ودينيس بولم (Denise Paulme) ، وميشيل ليريس (Michel Leiris) ، وجيرماني ديتيرلين (Germaine Dieterlen) ، ولويس دومونت (Louis Dumont) ، وأندريه ـ جورج هودريكورت (André-Georges Haudricourt) ، وجاك سوستيل (Jacques Soustelle) ، وجيرماني تيليون (Germaine Tillion) ، الذين قادوا العديد من الدراسات الميدانية وبخاصة في أفريقيا، ونظموا أولى البعثات الإثنولوجية المهمة.

كونه رجلاً يتمتع بفضول فكري هائل ومعرفة استثنائية واسعة، تولى موس البحث في عدد كبير من المجالات: من السحر إلى تقنية الجسد عن طريق فكرة الفرد، وعدل الموقف المعادي لعلم النفس الذي تبناه خاله، مؤسساً علاقات جديدة واقعية عملية بين علم النفس وعلم الاجتماع في مقالة نشرها عام 1924 في جورنال دو بسيكولوجي (Journal de psycologie) . وفي العام التالي نشر مقالته «الهبة» في السلسلة الجديدة من مجلة لانّيه سوسيولوجيك .

ولم يكن ابن أخت دوركهايم مهتماً البتة من قبل بالعمل الذي يقوم به علماء النفس، وقد شارك في مشروعات جمعية السيكولوجيين ليصبح رئيساً لها في العام 1923. وكان من بين أصدقائه تشارلز بلونديل، وجورج دوما، وإغناس مايرسون، المدير المحرر لجريدة جورنال دو بسيكولوجي نورمال إي باثولوجيك (Journal de Psychologie Normale et Pathologique) . وقد

كتب موس قائلاً: «علم الاجتماع وعلم النفس وعلم السوسيولوجيا، كل شيء يجب جمعه سوية»، وبذلك فقد كان الهدف جعل «الإنسان الفعلي برمته» موضوعاً، ولتحليل الظاهرة «ككل». وفي العام 1936، نشر من جديد في جريدة جورنال دو بسيكولوجي دراسة حول «التأثير المادي على الفرد لفكرة الموت المقترحة جماعياً» (Effet physique chez 1'individu de 1'idee de mort suggeree par la collectivite) . لقد كان الذهول العقلي والإعاقات والأوهام والهلوسات، ظواهر اهتم بها موس اهتماماً كبيراً، ولكنه، وعلى العكس من ذلك من آراء علماء النفس، لم ير أنها أعراض اعتلالية.

تم انتخاب مارسيل موس إلى «كوليج دو فرانس» في العام 1930، وصار رئيساً لعلم الاجتماع. ومن النصوص التي قام بنشرها في هذه الفترة «تقنيات الجسد»، الذي ظهر في العام 1934، في جريدة جورنال دو سيكولوجي ، ومقالة حول الذات في جريدة المعهد الأنثروبولوجي الملكي (Journal of the Royal Anthropological Institute) ، وكان آخر تقديم أكاديمي له في العام 1941، وتكون من بحث بعنوان «التقنيات والتكنولوجيا» (Les Techniques et la technologie) ، وتوفي مارسيل موس في 11 شباط/فبراير عام 1950، عن عمر يناهز السابعة والستين. وقد ظهرت العديد من أعماله في صورة مقالات جمعها لأول مرة «كلود ليفي ـ ستراوس» في العام 1950، ونشرت بعنوان علم الاجتماع والأنثروبولوجيا (Sociologie et anthropolo-gie) ، ثم أنتج فيكتور كارادي في العام 1969، ثلاثة مجلدات أكبر حجماً بعنوان الأعمال الكاملة (Œuvres) . وقد تم تجميع كتاباته السياسية الهائلة بواسطة مارسيل فورنييه في العام 1997. وكان العمل السياسي لموس يتكون من عدد كبير من «التأملات» التي لا تقدر بثمن، والتي ربط فيها وعبر، كما رأى نفسه، عن حماسة العالم والسياسي. ولم يكن لديه من شك في نهاية «الهبة» بشأن قيمة القيم الأخلاقية القديمة، مثل الإحسان. وقد روج لأخلاقيات تعتمد على التكافل والتبادل.

انظر أيضاً: إميل دوركهايم ، موريس هالبواكس.

انظر أيضاً:

أهم - .Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists, Pierre Bourdieu
الأعمال:

Sacrifice: Its Nature and Functions . 1899. With Henri Hubert. Chicago: .University of Chicago Press, 1964

Sociology. 1901. With Paul Fauconnet. In Mike Gane, ed. The Nature of .Sociology . Oxford: Berghahn Books, 2005

A General Theory of Magic . 1902. With Henri Hubert. London: Routledge .& Kegan Paul, 1972

Primitive Classification . 1903. With Emile Durkheim. Chicago: University .of Chicago Press, 1963

Seasonal Variations of the Eskimo: A Study in Social Morphology . 1906. .With Henri Beuchat. London: Routledge & Kegan Paul, 1979

The Gift. The Form and Reason for Exchange in Archaic Societies . 1925. .London: Cohen and West, 1954

Body Techniques. 1934. In Ben Brewster, ed. Sociology and Psychology . .London: Routledge & Kegan Paul, 1979

قراءات إضافية:

Marcel Fournier. Marcel Mauss: A Biography . Princeton, NJ: Princeton .University Press, 2005

Claude Lévi-Strauss. 1950. Introduction to the Work of Marcel Mauss . .London: Routledge & Kegan Paul, 1987

جيتانو موسكا (Gaetano Mosca)

يعد موسكا رائد علم الاجتماع السياسي، وقد ساهم بعناصر أساسية في تفسيرات حكم النخبة والتعددية للديمقراطية. وُلد موسكا في باليرمو في العام 1858، لأسرة مهنية من الطبقة الوسطى، ودرس القانون في جامعة محلية، وتخرج في العام 1882. وقد أثرت كل تلك العوامل الحياتية ـ بدءاً من مولده في جنوب إيطاليا حتى تدريبه القانوني ـ على أفكاره في علم الاجتماع.

ظهرت المساهمة الرئيسة لموسكا في ثلاثة كتب أسهب فيها في وصف نظريته عن الطبقة السياسية بشكل تدريجي، وقد نشرت الطبعة الأولى من أطروحته في العام 1884، باسم حول نظرية الحكومات والحكومة البرلمانية: الدراسات التاريخية والاجتماعية (On the Theory of Government and Parliamentary Government: Historical and Social Studies). وقد حدد هذا العمل الشاب العناصر الرئيسة لنظريته، وتبنى خطة تنظيمية، اتبعها في كتب لاحقة، كما قدمت إجمالاً لمنهجيته الميثودولوجية الأساسية. وقد انتقدت مناقشته الرئيسة تقسيم أرسطو الحكومات إلى حكومات استبدادية، وحكومات أرستقراطية، وحكومات ديمقراطية؛ إذ لم تكن هذه الأشكال السياسية غير أشكال مختلفة للتقسيم الدائم للنظم السياسية جميعها إلى حكام ومحكومين. وبينما عرّفت فئات أرسطو الحكام كفئة واحدة، بعضها أو الكثير منها كل على حدة، فقد جادل موسكا أنه في الحالات الثلاث جميعها توجد طبقة سياسية صغيرة سائدة. وعزا هيمنة النخبة إلى «سمتين من سمات المرء ذات الطبيعة الاجتماعية غير القابلة للنزاع». وهي: أولاً ، «تفوق السمة الأخلاقية»، و ثانياً ، هي الأكثر تأصلاً، حقيقة «أن الأقلية المنظمة، التي تعمل بطريقة منسقة، دائماً ما تنتصر على الأغلبية غير المنظمة التي لا إرادة مشتركة لديها، ولا تحفز ولا عمل مشترك».

بعد الانتهاء من طرحه، مضى موسكا قدماً في إثباته. وقد كانت مقولات منهجه وضعية بحت؛ فقد ناقش موسكا أن تراكم الحقائق وحده سيكون كافياً ليؤكد أفكاره، ومع ذلك، وعلى الرغم من أنه جمع مادته العلمية من جميع الحقبات التاريخية، إلا أنه أقر أن ظروف المجتمعات الثقافية والمادية تختلف على مر الزمن، وأن هذه الاختلافات تؤثر في سياساتها. وفي الواقع أشار موسكا إلى كل

من «السمات الأخلاقية» المختلفة التي يمكن أن تتحلى بها النخبة، وإلى الأنماط التنظيمية التي يمكن أن تحتاج إلى استعمالها في حقب تاريخية مختلفة، وإلى أنماط المجتمع. وأوضح موسكا أنه في المجتمعات الصناعية الحديثة هناك تراكم أكبر للسلطة من قبل الحكومات أكثر من أي وقت مضى. فعائدات الضرائب، والجيش القائم، والبيروقراطية التي دخلت في كل وجه من أوجه الحياة العامة، كانت تعني أن طبقة النخبة السياسية المعاصرة لديها نفوذ غير مسبوق. كما إن السمات المحددة لاختيارها كانت مبتكرة أيضاً، بما في ذلك المهارات التقنية بدلاً من البراعة العسكرية أو مجرد امتلاك الثروة.

تحوّل تحليل موسكا هنا من التوصيف إلى الوصف الإرشادي، فقد ادعى أن أكثر طبقات النخبة السياسية ملاءمة لعصره هي الطبقة الوسطى المهنية المتعلمة ذات الثراء المعتدل، التي كان هو نفسه ينتمي إليها. ومع ذلك، فقد أثار اعتقاده هذا سؤالاً عن سبب عدم تولي هذه الجماعة للسيطرة. وألقى موسكا باللوم على الديمقراطية. فالنظام الديمقراطي يفضل نمطاً من النخبة السياسية غير الملائمة للمجتمعات الصناعية الحديثة، وذلك حتى لا يكون حكم هذه المجتمعات قوياً كما ينبغي.

لقد كان موسكا يؤمن أن جميع طبقات النخبة في حاجة إلى «صيغة سياسية» تبرر حكمها. فالحكم لا يمكن الحفاظ عليه بالقوة وحدها. وهذه المعادلة تتغير وفقاً لمستوى ثقافة المجتمع والظروف الاقتصادية لمجتمع ما، وبالتالي فإنها تختلف عبر التاريخ. ولكي تحتفظ طبقات النخبة بالسلطة، فعليها تغيير المعادلة المبررة وفقاً لذلك، وإلا فإن طبقة نخبة جديدة تستعين بمعادلة أكثر ملاءمة سوف تحل محلهم. وعلى الرغم من أن الظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية السائدة تتحكم في أنواع المعادلات التي يمكن لطبقات النخبة اللجوء إليها، إلا أنها لم تحدد واحدة منها بوصفها الوحيدة المتاحة. وطالما كان لطبقات النخبة السلطة في اختيار المعادلة التي تتناسب بشكل أفضل مع سماتهم وظروفهم؛ فالديمقراطية كانت ببساطة المعادلة السياسية الأكثر ملاءمة مع جمهور المجتمع الذي يجب توجيه المطالب العامة إليه. ومع ذلك فلم يكن لذلك أي أساس في الواقع. فبدلاً من اتخاذها كآلية لحكم الأغلبية، كانت مجرد وسيلة تفرض بها الأقلية حكمها. والأسوأ من ذلك أنها أفسدت في الواقع طبقة النخبة.

لاحظ موسكا كيف أن «أي شخص ساعد في عملية انتخابية يعرف تمام المعرفة أن المنتخبين لا ينتخبون النائب، وإنما يقوم هذا النائب بجعل المنتخبين ينتخبونه». أو، على نحو أكثر دقة، «يجعله أصدقاؤه يفوز في الانتخابات». وبناء على خبرته فيما يتعلق بالممارسات الانتخابية الفاسدة التي كانت سائدة في بلده صقلية، فقد أشار موسكا إلى ثلاث طرق رئيسة يتم بها استغلال جمهور الناخبين: أولاً ، إن أصحاب المناصب يستغلون البيروقراطية لترجيح كفتهم؛ و ثانياً ، أن من أطلق عليهم «المنتخبين العظام» ـ وهم ذوو النفوذ الاجتماعي والثروة ـ يؤثرون في تابعيهم لدعم المرشح المفضل لديهم؛ و أخيراً ، إن نقابات واتحادات العمل يمكن أن تصوت بالمثل لأحزاب سياسية معينة. وتكون نتيجة هذا النظام الفاسد أن السياسيين الفاسدين هم وحدهم من يبرزون إلى المقدمة. ويحل «الجبن الأخلاقي، والافتقار إلى الإحساس بالعدالة، والدهاء والمؤامرة» محل «السمات الثمينة» من «استقلال الشخصية والجرأة والنزاهة».

لقد أعرب موسكا في كتابه الأول عن يأسه بشدة من إصلاح الديمقراطية؛ إذ إن أكثر النظم ديمقراطية سيقوم ببساطة بتدعيم فرص استغلال جمهور الناخبين من خلال طبقة نخبة فاسدة ساخرة، وقد عارض هذه المعايير باعتبارها تزيد من حق الاقتراع. ومع ذلك فقد قبل بأن على أي حلول ممكنة التطبيق أن تتسق بشكل رسمي مع المعادلة السياسية الديمقراطية السائدة. وقد كان يؤمن بشكل ما بإفساح المجال للطبقة الوسطى المهنية المتعلمة لتولي زمام الأمور. وكانت المراجعات التالية لطرح موسكا مكرسة بشكل كبير لتلك المهمة مع بقاء منهجيته ونظريته العامة عن حكم النخبة وفكرته عن «المعادلة السياسية» من دون تغيير كبير.

وقد ظهرت هذه المراجعات أساساً في طبعتين من كتابه عناصر العلم السياسي (Elements of Political Science) نشرتا عامي 1896 و1923. وقبل نشر الطبعة الأولى، كان يعاين الحياة البرلمانية مباشرة؛ إذ كان «منقحاً» في مجلس النواب في العام 1886. وكان الابتكار الرئيس في هذا الكتاب فكرته عن «الدفاع القضائي». وقد كيّف مفهومه عن النخبة ليشمل هؤلاء الذين هم خارج السلطة، مثلما يشمل من هم في داخلها، زاعماً أن العنصر الرئيس في أي طبقة حاكمة هو قدرتها على تجديد نفسها من مجموعة واسعة من «الخارجيين». ومع ذلك، فإن وجود داخليين وخارجيين يخدم غرضاً أشمل، فهو يمنع «الداخليين» من أن يكونوا بالغي الاهتمام بأنفسهم ـ على

الأقل ظاهرياً. ويتألف «الدفاع القضائي» من آليات تنظيمية، مثل فصل السلطات، على أن هذا «النظام الأخلاقي» قد تمت مأسسته. وعلى الرغم من أنه كان لا يزال يأمل أن تستفيد حكومة النخبة المستقلة من هذه الترتيبات، إلا أنه لم يبد واضحاً على وجه الدقة كيف أو لماذا يتم ذلك. بل في الحقيقة، فإن انتقاداته الأساسية تحولت من النخبة السائدة إلى النخبة الاشتراكية الناشئة. وقد حاول أن يثبت أن الاشتراكية ليست سوى «معادلة سياسية» أخرى مضللة تقوم في الواقع بتقوية سلطة الطبقة الحاكمة بدلاً من تقليصها، وذلك من خلال إلغاء الفصل الرئيس بين السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية. وأبقت الطبعة الثانية على الطبعة الأولى كما هي، وإنما أضيف إليها مجلداً ثانياً فقط.

وفي العام 1896، ضمن موسكا لنفسه وظيفة لتدريس القانون الدستوري في جامعة تورين، حيث قُدّر له فيما بعد أن يلتقي بروبرت ميشيل ويؤثر فيه. وفي العام 1908، أصبح موسكا أيضاً نائباً في البرلمان، وخدم كنائب سكرتير في المكتب الاستعماري بدءاً من العام 1914 وحتى العام 1916، ثم صار عضواً في مجلس الشيوخ في العام 1919. وعلى الرغم من أنه كان محافظاً ليبرالياً ومعادِياً قوياً للاشتراكية، إلا أن هذه التجربة جعلته راضياً عن الديمقراطية البرلمانية. وعلى العكس من العديد من السياسيين الليبراليين المحافظين الذين كان يتفق معهم، فقد عارض باستمرار الفاشيين الذين تولوا السلطة في العام 1922. وبدأ حينها يجادل أن الديمقراطية «الواقعية» وليست الديمقراطية «المثالية» يمكن أن تكون مفيدة في توحيد المصالح المختلفة داخل المجتمع والتوفيق بينها وبين المصلحة العامة. وفي نسخة أولية من نظرية التعددية التي ظهرت بعد ذلك، جادل أن السر كان يكمن في ضمان وجود مجموعة متنوعة من الجماعات الاجتماعية المتنافسة داخل المجتمع. وكان السر هو إيجاد التوازن بين المبادئ «الأوتوقراطية» و«الليبرالية» في شكل حكومة ذات توجهات «أرستقراطية» و«ديمقراطية» في توظيف النخبة. لقد كان الاتجاه السابق يساعد على الحفاظ على الاستمرارية، أما الآخر فهو يجدد طبقة النخبة من الأسفل، ولسوء الحظ فإن تصالحه مع الديمقراطية البرلمانية تزامن بشكل أو بآخر مع زوالها في إيطاليا. وتوفي موسكا في العام 1941 قبل سقوط نظام الحكم الفاشي.

انظر أيضاً: أوليفر كوكس، لودفيغ غومبلوفيتش ، فيلفريدو باريتو.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , C. Wright Mills

أهم الأعمال:

Sulla teorica dei governi e sul governo rappresentivo: studi storici e sociali .. Palermo: Tip. dello Statuto, 1884

Elementi di scienza politica . 1886. 1923. Partially translated into English as The Ruling Class , ed. A. Livingstone, trans. H. D. Kahn. New York and .London: McGraw Hill, 1939

قراءات إضافية:

Ettore Albertoni. Mosca and the Theory of Elitism . Oxford: Basil Black-.well, 1987

Richard Bellamy. Modern Italian Social Theory . Cambridge: Polity Press, .1987

Joseph V. Femia. The Machiavellian Legacy: Essays in Italian Political .Thought . Basingstoke: Macmillan, 1998

James Meisel. The Myth of the Ruling Class: Gaetano Mosca and the Elite .. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1958

جورج هربرت ميد (George Herbert Mead)

هو البراغماتي الشيكاغوي، وعالم النفس الاجتماعي، والبيداغوجي، ومؤسس التفاعل الرمزي. وهو الشخصية المحورية في علم الاجتماع. ويجعله نموذجه العملي في التطور البشري، ودوره المحوري في إنشاء وجهة نظر فلسفية أمريكية فريدة (البراغماتية)، وتدريبه لما يقرب من نصف علماء الاجتماع الحائزين على درجة الدكتوراه في العالم قبل وفاته في العام 1931، وربطه بين السلوك والعمل، كلها جُمعت لتجعل منه شخصية مؤسسة في هذا الفرع من العلوم.

كان والدا ميد معلمين زاوجا بين القيم البروتستانتية والقيم الليبرالية. وكانا يتحدران من أسرتين راسختين في نيو إنغلاند بما يحمله ذلك من مسؤوليات اجتماعية ومزايا ترتبط بهذا الوضع. وقد تولى والد ميد، هيرام ميد، رئاسة قسم البلاغة المقدسة واللاهوت الرعوي في كلية أوبرلين بدءاً من العام 1869 حتى وفاته في العام 1881. أما والدته، إليزابيث ستورز بيلينغز ميد، فقد كانت أول رئيس لكلية ماونت هوليوك بدءاً من العام 1893 حتى العام 1900. وولد ابنهما الوحيد، جورج هربرت ميد، في 27 شباط/فبراير عام 1863.

التحق ميد بالقسم الإعدادي في أوبرلين في العام 1876، وبكلية أوبرلين في العام 1879، ليتخرج من هذه الأخيرة في العام 1883. وبعد سلسلة من الأعمال البديلة المؤقتة مر ميد بفترة من الاكتئاب استمرت لعدة سنوات، ثم التحق بجامعة هارفرد في العام 1887، حيث درس مع جوشيا رويس (Joshia Royce) ، الفيلسوف المسيحي الهيغلي الحديث. وتحول ميد من الفلسفة كعلم رئيس إلى علم النفس الفزيولوجي قبل أن ينهي درجته الجامعية ويشرع في دراسة الدكتوراه في ألمانيا.

في ألمانيا درس ميد أولاً في لايبتزغ، على يد فيلهلم فونت، الفزيولوجيا وعلم النفس النظري، وذلك في شتاء عام 1888 - 1889. ثم انتقل بعد فصل دراسي واحد إلى جامعة برلين، حيث درس على يد علماء النفس فيلهلم ديلتي، وهرمان إيبينغهاوس، وفريدريش بولسن، وعالم الاجتماع غوستاف شمولر. وفي أواخر العام 1891، عرض جون ديوي، وهو الفيلسوف والمعلم البارز الذي صار

صديق ورفيق حياة ميد، اعتلى ميد وظيفة تدريس الفلسفة في جامعة ميتشغن في آن أربور. وسرعان ما قبل ميد المنصب وترك برلين من دون أن يكمل رسالة الدكتوراه.

انتهت فترة اكتئاب ميد الطويلة أخيراً بزواجه من هيلين كاسل في العام 1891، وبحياته الجديدة في آن آربور. وانجرف ميد في الإثارة الفكرية لهذا القسم، وفي علاقته الشخصية والعملية بديوي. وفي العام 1894، تلقى ديوي عرضاً لرئاسة قسم الفلسفة وعلم النفس في جامعة شيكاغو، وجادل ديوي بشدة ونجح في إقناع القائمين على الجامعة بتعيين ميد هناك أيضاً.

عاش ميد في عالم صاخب من الأصدقاء والأسرة والطلاب والزملاء والناشطين الاجتماعيين والروابط المدنية في شيكاغو التي صارت موطناً له بقية حياته. وقد أطلق وليام جيمس، وهو براغماتي بارز في جامعة هارفرد، اسم «براغماتية شيكاغو» على المدرسة الفكرية التي أسسها كل من ميد وديوي. وقد قدمت منهجية شيكاغو هذه، في تشديدها على العملية والعلاقات الاجتماعية، تفسيراً طبيعياً ونشوئياً للنشاط الفكري كنشاط موجه نحو المشكلة، بجانب اعتماده على أساليب علمية. كما شددت على إعادة البناء الديمقراطي للمجتمع من خلال التعليم وغيره من المؤسسات. وقد ألهمت هذه المجموعة المثيرة والمعقدة متمثلة في «عالم براغماتية شيكاغو»، حياة ميد وأفكاره بما في ذلك فلسفته الاجتماعية التطورية المعتمدة على المجتمع والتفاعل الاجتماعي.

تركز عمل ميد الأولي، قبل عام 1920، على أهمية علم النفس المقارن، والطفل، والمشاعر، والتعليم في الطفولة، والروابط بين الأفكار وتأثيرها في الحياة اليومية. وقد أنتج ثلاثة كتب تُجَسِّد هذا الفكر والعمل خلال السنوات ما بين 1894 وحتى 1920. وبحلول العام 1910، كان قد كتب كتاباً من المقالات التي تعرض لمنهجيته التطورية من نموذج بيولوجي وفردي إلى نموذج أكثر اجتماعية وعقلانية على نحو يربط الفرد والجماعة. وكان هذا الكتاب في مراحله الأخيرة للنشر، ولكن لأسباب غير معروفة لم يكتمل هذا المشروع مطلقاً. وقد صدر الكتاب لأول مرة بعنوان مقالات في علم النفس الاجتماعي (Essays in Social Psychology) في العام 2001. وبالمثل، فقد كان مفهوم «اللعب» محورياً في فكر ميد خلال تلك السنوات الأولى التي أكد فيها أهمية الطفولة والمشاعر والمدارس العامة، في سلسلة من المقالات المكثفة التي كتبها قبل عام 1910 ولم تنشر. وقد ربط فضلاً عن ذلك بين هذه الأمور جميعاً، وبين أهمية اللعب في الديمقراطية، جاعلاً

من الطفولة حقبة مهمة في إعداد الطفل لكي يصبح عضواً مهماً في مجتمع عادل. وجُمعت هذه المقالات ونُشرت في العام 1999 في كتاب بعنوان اللعب والمدرسة والمجتمع (Play, School and Society) . وهناك كتاب ثالث يؤكد أيضاً كتابات ميد الأولية وهو الفرد والذات الاجتماعية (The Individual and the Social Self) ، والذي نشر في نهاية المطاف في العام 1982. ويعتمد هذا الكتاب على سلسلة من الملاحظات من دروس ميد في علم النفس الاجتماعي في جامعة شيكاغو بين عامي 1914 و1927، مع التشديد على المجموعة الأولى لسجلات الطلاب.

تكشف هذه الكتب أن ميد كان ينتقل بشكل متطور من نموذج سيكولوجي فردي عاطفي للإنسان في المجتمع، مع التركيز على الطفولة، نحو نموذج يتم فيه تفسير الذات كنتاج للتفاعل الاجتماعي والمعاني المولدة وفقاً للطبيعة البشرية. وبعد العام 1920، أكد ميد بشدة على مرحلة البلوغ ـ على الرغم من أن نموذجه لنشأة وتكون الذات كان ابتكاراً فكرياً أساسياً لتفسير كيف أصبح البشر اجتماعيين ومولدين للرموز. ولا يبدو واضحاً ما إذا كان يجب تفسير هذا التحول في فكره على أنه يرتبط بأعماله الأولى، وفي أي الأشكال يكون ذلك، أم أنه يجب النظر إليه على أنه نتيجة تغير مهم من نموذج إلى آخر.

إن تحديد العلاقة بين عمله قبل العام 1920 وما بعده أمر معقد؛ إذ إن أهم كتبه نُشرت قبل العام 1982، وتم إنتاجها بعد وفاته من قبل طلابه. وإضافة إلى ذلك، فإن أياً من هؤلاء الطلاب لم يتخصص في علم الاجتماع، وإنما أمضوا حيواتهم الأكاديمية في الفلسفة.

تعتبر منهجية ميد الفلسفية فيما يتعلق بالزمن وبناء التصرف، بمثابة أسس لعلم الاجتماع الخاص به، وذلك على الرغم من أن علماء الاجتماع يميلون إلى تجاهل مثل تلك الأوجه من فكره. وأما نموذجه عن الطبيعة الديناميكية للحاضر بوصفه متصل النشأة، ويصل الماضي بالمستقبل في اللحظة الحالية فيُستمد من رؤية للزمن طورها ألبرت أينشتاين. وقد جمع آرثر مورفي كتاب ميد فلسفة الحاضر (The Philosophy of the Present) من سلسلة من الخطب التي وضعها ميد في العام 1930 بينما كان مسافراً في أحد القطارات لتقديمها كمحاضرات بول كاروس في بيركلي في كاليفورنيا. وقد تم إنتاج كتاب فلسفة الفعل (The Philosophy of Act) على يد تشارلز موريس من أبحاث لم تنشر، تدور حول الربط بين: الفعل المادي والفكر كتجربة تقوم على التفاعل والاتصال.

ويركز هذا الكتاب على عملية الحركة والفكر، وهو النص الأكثر تفككاً من الكتب التي نُشرت له بعد وفاته. ويعد تحليل ميد المعلمي للفكر الاجتماعي كحركة خلال القرن التاسع عشر أساساً مثيراً لتاريخ الأفكار التي تشكلت بالأحداث والأفعال البشرية. وكان كتاب حركات الفكر في القرن التاسع عشر (Movements of Thought in the Nineteenth Century) يعتمد على الملاحظات المختزلة التي أنشئت لصالح ألفين كاروس أثناء الفصل التدريسي لميد بهذه المناسبة. وعلى الرغم من أن هذا يعد تحليلاً ضخماً للتغيرات الفكرية والشائعة كتغيرات هائلة في الوعي الاجتماعي، إلا أن أثره وإرثه لا يزالان غير مُكتَشَفَيْن في جزء كبير منهما.

يشدد أغلب علماء الاجتماع على أهمية كتاب العقل والذات والمجتمع (Mind, Self and Soci-ety) الذي حرره تشارلز موريس في العام 1934 من كتابات كاروس المنقولة المختزلة للفصل التدريسي لميد حول «علم النفس الاجتماعي». وقد جُمعت هذه الملاحظات مع غيرها من العام 1927 (وربما من العام 1928) لإنشاء هذا المجلد الضخم. ويقدم ميد هنا نموذجه عن تكوين الذات والآخر. وقد اقترح أن المجتمع والذات يتمتعان تبادلياً بالديناميكية والاعتماد. وقد تم إنشاؤهما من خلال الإيماءات البشرية، ولا سيما الإيماءات الصوتية والرموز التي تولدت وتم المحافظة عليها من خلال العلاقات الاجتماعية. كما برز العقل والإدراك والذكاء والقدرة على لعب دور الآخر أيضاً من العملية ذاتها. وقد أحدثت المفاهيم المطورة في هذا الكتاب نمطاً متميزاً من علم النفس الاجتماعي أُطلق عليه «التفاعلية الرمزية».

وتشدِّد جماعة أخرى من العلماء على دفاع ميد عن الحركة النسوية، وجهوده لتأييد حق النساء في التصويت، وفي حصولهن على التعليم العالي وحقوقهن المدنية. ويطلق على هذه المنهجية من أفكاره وسياسته «البراغماتية النسوية». وقد نشأ منظوره هنا كنتاج لتأثير النساء المتميزات من أسرته، ولا سيما والدته المثقفة، ورفيقة عمره هيلين كاسل، وكذلك بسبب صداقته لنساء بارزات في هال هاوس في شيكاغو، وهي المستوطَنة الاجتماعية التي تأسست على يد جين آدامز الحائزة على جائزة نوبل. وقد كان عالم البراغماتية في شيكاغو مثالاً حياً أيضاً على الجمع بين البيت والأكاديمية والسياسة والأسرة والأصدقاء والعمل الفكري والعدالة الاجتماعية.

على الرغم من أن ميد نشر ما يزيد على 120 مقالة في حياته، إلا أن أول أربعة أعمال كبرى له، وهي الكتب التي نشرت في الفترة ما بين 1932 و1938، كانت قد جمعت من ملاحظات طلبته وأجزاء من الأبحاث التي لم ينوِ البتة أن تكون عرضة للتدقيق العام. وقد كان هؤلاء الطلاب الأوفياء ذوي الإحساس المذهل بواجبهم والذين جمعوا وحرروا هذه الكتب يدرسون معه خلال عشرينيات القرن العشرين وقبل وفاته في العام 1931. وقد اعتمدوا على أكثر أفكاره نضجاً كما عبر عنها في فصوله الدراسية. ولم يكونوا قد حضروا أو فهموا اهتماماته الأولى بالأطفال والمشاعر والسياسة والحياة المدينية. ولم يتحدث هؤلاء الفلاسفة عن كتابات ميد الأولى، ولا عن مقالاته العديدة التي نُشرت، أو علاقة أفكار ميد بعلم الاجتماع. وعلى الرغم من محدودية هذه المنشورات التي نشرت بعد وفاته، فإن شهرته تعتمد على هذه الكتب، كما إن شهرته المهنية قد ازدادت بشكل كبير بعد وفاته.

استمر تأثير ميد في التزايد من خلال أنشطة إحدى الجماعات المعتمدة على أفكاره؛ وهي جمعية دراسة التفاعل الرمزي. فقد عقد علماء النفس الاجتماعيون هؤلاء مؤتمرين سنويين ونشروا جريدة التفاعل الرمزي (Symbolic Interaction) التي تشجع على التطور وتطبيق تفسير المجموعة الكاملة لميد. وتقدِّم مجموعة الكتب الملحقة والحديثة نسبياً، المعتمِدة على عمل ميد الأولي، مجالاً لإثارة مسائل جديدة مهمة. وقد توجه بعض علماء ما بعد الحداثة إلى ميد لفحص الطبيعة المرنة للواقع والذات والمجتمع. وحينما فعلوا ذلك وجدوا لدى ميد تفسيراً بديلاً للعالم بوصفه خُلق بشكل اجتماعي، ما يجعله مستمراً في كونه مثيراً وداعياً إلى التفاؤل.

انظر أيضاً: جين آدامز ، تشارلز كولي.

انظر أيضاً:

Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Howard S. Becker, Erving Goffman.

أهم الأعمال:

The Individual and the Social Self . 1910. Ed. and intro. by David L. Miller. .Chicago: University of Chicago Press, 1982

Play, School, and Society . 1910. Ed. and intro. by Mary Jo Deegan. New .York: Peter Lang Press, 1999

Essays in Social Psychology . 1910. Ed. and intro. by Mary Jo Deegan. .New Brunswick, NJ: Transaction Books, 2001

The Philosophy of the Present . Ed. and intro. by Arthur E. Murphy, pref. .remarks by John Dewey. Chicago: University of Chicago Press, 1932

Mind, Self and Society . Ed. and intro. by Charles Morris. Chicago: .University of Chicago Press, 1934

Movements of Thought in the Nineteenth Century . Ed. and intro. by Mer- .ritt H. Moore. Chicago: University of Chicago Press, 1936

The Philosophy of the Act . Ed. and intro. by Charles W. Morris, in col- laboration with John M. Brewster, Albert M. Dunham and David L. Miller. .Chicago: University of Chicago Press, 1938

غونار ميردال (Gunnar Myrdal)

على الرغم من كونه اقتصادياً تدريباً ومهنياً، فقد قدم العالم الاجتماعي السويدي والمستشار الحكومي والسياسي غونار ميردال مساهمة مهمة في علم الاجتماع في عدة مجالات: من خلال عمله النظري حول مشكلة القيم في النظرية والبحث الاجتماعي الاقتصادي؛ ومن خلال مساهمته، بالتعاون مع زوجته ألفا ميردال (Alva Myrdal) ، في تطوير نظرية دولة الرفاهية وسياستها؛ ومن خلال قيادته الفكرية لاثنين من أضخم التحقيقات البحثية في الظروف الاقتصادية والاجتماعية والمؤسسية التي تعزز التفرقة العنصرية والفقر والتخلف. وخلال حياته المهنية، انتقل ميردال بين البحث الأكاديمي، وممارسة بعض الأنشطة ذات الطابع السياسي لمصلحة الحكومات والمنظمات الدولية، مسترشداً في ذلك بقناعة راسخة بأن مجالَي العمل مرتبطان.

وُلد ميردال في منطقة ريفية سويدية عام 1898، وطور في وقت مبكر من حياته اهتماماً بدور القيم السياسية والآمال الاجتماعية في ظل الحياة الاقتصادية المتذبذبة للحداثة الصناعية وفي بحثه النظري المبدع الذي نال عنه درجة الدكتوراه، كشف بشكل مهم عن الافتراضات الأساسية للقيمة الخفية في نظرية الاقتصاد الأرثوذكسية. وفي الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه بمناسبة تنصيبه أستاذاً في جامعة ستوكهولم في العام 1933، أكد ميردال ضرورة التخطيط الاقتصادي الحكومي لتجنب الآثار المدمرة اجتماعياً وسياسياً للأسواق المالية الخارجة عن نطاق السيطرة، والتي لا يمكن للفقراء الوصول إليها أو الحصول على حقوق فيها. إن مثل هذا التخطيط طويل المدى، وهو أحد المفاهيم التي ظل ميردال مرتبطاً بها خلال حياته، يجب أن يعامل الاستثمار العام في السياسة الاجتماعية والتعليم والتوظيف كاستثمار منتج و«واقٍ»، بدلاً من أن يكون مجرد تدخلات تحسينية. وسوف يتطلب هذا قطاعاً عاماً مدعماً حساساً لكل من احتياجات الاقتصاد والمطالب العامة للعدالة الاجتماعية والاقتصادية. وفي أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، عندما كان الركود العالمي في ذروته، صار ميردال عضواً نشطاً من أعضاء الحزب الديمقراطي الاجتماعي السويدي. وفي منشور عام ومؤثر قدم هو وزوجته الناشطة السياسية النسوية بياناً رسمياً فكرياً يحدد الفكر الاقتصادي والسياسي العقلاني للأسرة ـ

والسياسة الصديقة للمرأة وسياسة دولة الرفاهية. وقد قاما خلال هذا بالانتفاع بنظريات علم الاجتماع والمنهجيات الإمبريقية، وكذلك فن الكشف الصحافي للبؤس الاجتماعي الذي تعلماه خلال زيارات دراسية مشتركة إلى الولايات المتحدة. وعلى النقيض من تطورات الرفاهية المشابهة في ذلك الوقت في ألمانيا، فإن رؤاهم لدولة الرفاهية كانت تعتمد على التعاون الوثيق بين المواطنين وحركة العمل وغيرها من المنظمات الديمقراطية الشعبية ذات التوجه الإصلاحي، بما في ذلك منظمات حقوق المرأة. وقد اكتسب الزوجان ميردال، بوصفهما عضوين في العديد من اللجان الحكومية التحقيقية المعززة لبرنامج الإصلاح الديمقراطي الاجتماعي في ثلاثينيات القرن العشرين، تأثيراً هائلاً على تطوير النموذج السويدي لسياسة دولة الرفاهية وشهرةً دوليةً متزايدةً.

في العام 1973، تلقى ميردال دعوة من معهد كارنيغي لإدارة واحد من أضخم المشروعات البحثية التي تم تمويلها على الإطلاق، حول وضع المواطنين السود في الولايات المتحدة، (وقد تلقت زوجته هي الأخرى دعماً مالياً لكتاب مؤثر عن الأسرة السويدية وسياسة الرفاهية)، وقد جمع هذا المشروع عدداً ضخماً من الباحثين الاجتماعيين من عدة أجناس، وكان له نفوذه النظري من خلال عمل علماء اجتماع مثل وليام توماس، ودبليو إ. ب. دوبوا، وآخرين. وبشكل عام جُمع 20.000 صفحة من الأدلة الاقتصادية والاجتماعية، تُوِّجَت في عمل من مجلدين، المعضلة الأمريكية: المشكلة الزنجية والديمقراطية الحديثة (An American Dilemma and Modern Democracy) ، ولصدمته بقسوة التفرقة العنصرية التي لاحظها في أمة تعلن زيفاً امتلاكها لعقيدة قيمة من الحرية والمساواة، ركَّز تقريره على العنصرية البيضاء وتبعياتها في «الدوائر الخبيثة» للتحامل والتمييز. ومن الناحية السوسيولوجية، فقد كان العمل مبدعاً من عدة أوجه: في جمعه بين المؤشرات الاجتماعية الكمية وكذلك الكيفية كدليل على التمييز ونتائجه؛ وفي تأكيده دور سلطة المؤسسات الاقتصادية والتشريعية والسياسية، على جميع مستويات المجتمع، في الانتهاك اليومي للحقوق الدستورية؛ وفي إصراره على أن أبحاث علم الاجتماع تحتاج إلى المشاركة ليس مع حقائق وضع ما فحسب، بل وأيضاً مع القيم الاجتماعية والسياسية التي تشكل جزءاً من سياقه، بما في ذلك قيم الباحث نفسه.

.ومن الناحية السياسية، فإن أهم إرث لمشروع ميردال كان مساهماته كدليل في قرار المحكمة الأعلى الأمريكية في العام 1954، الذي حظر التمييز العنصري التعليمي. وقد واجه ميردال النقد والشك في معالجته لضعف أمة لا ينتمي هو إليها، مثل دو توكفيل من قبله، ولا سيما فيما يتعلق بآرائه حول دور الحكومة في «الهندسة الاجتماعية» للتغير التقدمي. على أن المساهمة الرئيسة طويلة المدى للمشروع في علم الاجتماع، تكمن في إعلان ميردال الصريح لدور القيم في البحث الاجتماعي (والملخص في ملحق ميثودولوجي). ويعتبر كذلك، إضافة إلى مساهمة فيبر في الموضوع نفسه، ذا صلة كبيرة بالمناقشات المعاصرة حول طبيعة علم الاجتماع كعلم.

عقب الحرب العالمية الثانية، وبعد عودته الوجيزة إلى السياسة النشطة في السويد، تولى ميردال في العام 1947 منصب سكرتير تنفيذي للجنة إعادة الإعمار الاقتصادي التابعة للأمم المتحدة، وهي عودة إلى مزيد من الاهتمامات الاقتصادية العالمية في أوروبا التي مزقتها الصراعات. غير أن خطط مشروع بحثي جديد، يهدف من جديد إلى معالجة قضايا أساسية حول الفقر وعدم المساواة، لم تستغرق طويلاً كي تشكل ذاتها. وهذه المرة تولى ميردال أمراً ملحاً، وهو التطور الاقتصادي في دول العالم الثالث، وبدعم من زوجته ألفا التي كانت سفيرة السويد في الهند في العام 1956. وقد تم تمويل هذا المشروع الذي استغرق عشر سنوات من قبل صندوق تمويل القرن العشرين، ونُشرت نتيجته في شكل كتاب الدراما الآسيوية: بحث في فقر الدول (Asian Drama: An Inquiry into the Poverty of Nations) ، وكان مجدداً عملاً رائعاً يشتمل على عدد هائل من الباحثين والكثير من الأدلة. وقد تابع ميردال في هذا المشروع أفكار الحاجة إلى التخطيط الاقتصادي والاجتماعي المركزي، والاستثمار العام في الإصلاح الزراعي والاجتماعي والتعليمي، والمشاركة الديمقراطية «الرئيسة» باعتبارها الوسيلة الوحيدة التي يمكن من خلالها حل وثاق العلاقة الحميمة بين جماعات النخبة القومية والمصالح المالية. ومن جديد كانت منهجيته البحثية عبارة عن مزيج من التحليل التاريخي لنزعات الماضي، والتحليل النظري والتوصيفات الإمبريقية المفصلة للظروف الاقتصادية والاجتماعية الفردية، وكل ذلك في إطار منهجية نقدية للمؤسسات السياسية والاقتصادية الأكثر اهتماماً بخدمة ذوي السلطة أكثر من خدمة المغلوب على أمرهم.

في العام 1947، تلقى ميردال جائزة نوبل في الاقتصاد بالاشتراك مع فريدريش فون هايك، عن عملهما الرائد حول نظرية المال والسوق والعلاقة بين الظروف الاقتصادية والاجتماعية والمؤسسية. وقد استمرت كتابات ميردال، حتى وفاته عام 1987، في عكس روحه النقدية المتمردة. وينعكس شغفه المستمر في الوصول إلى عالم يتمتع بمزيد من العدالة الاجتماعية والتهذيب والتخطيط العقلاني في مقالاته النقدية اللاذعة التي تناولت بيروقراطية الدولة في كل من غربي وشرقي الستار الحديدي، وكذلك سباق التسلح النووي، وإخفاق الولايات المتحدة في معالجة مسألة التفرقة والتمييز العنصري.

انظر أيضاً: دبليو إ. ب. ديبوا، ماكس فيبر.

أهم الأعمال:

Population: A Problem for Democracy . Cambridge, MA: Harvard University Press, 1940.

An American Dilemma: The Negro Problem and American Democracy . New York: Harper and Brothers. 3 rd ed. (1996). New Brunswick, NJ: Transaction, 1944.

The Political Element in the Development of Economic Theory . London: Routledge & Kegan Paul, 1953.

Beyond the Welfare State: Economic Planning in the Welfare States and its International Implications . London: University Paperbacks, 1957.

Value in Social Theory: A Selection of Essays on Methodology . London: Routledge & Kegan Paul, 1958.

Asian Drama. An Inquiry into the Poverty of Nations . London: Allen Lane, .The Penguin Press, 1968

.Objectivity in Social Research . London: Duckworth, 1970

قراءات إضافية:

Walter A. Jackson. Gunnar Myrdal and America's Conscience: Social Engineering and Radical Liberalism, 1938-1987 . Chapel Hill, NC: .University of North Carolina Press, 1990

Allan Carlson. The Swedish Experiment in Family Politics: The Myrdals and the Inter-war Population Crisis . New Brunswick, NJ, and London: .Transaction Publishers, 1990

David W. Southern. Gunnar Myrdal and Black-White Relations: The Use and Abuse of An American Dilemma, 1944-1969 . Baton Rouge, LA: .Louisiana State University Press, 1987

موريس هالبواكس (Maurice Halbwachs)

عالم اجتماع فرنسي تأثر كثيراً بدوركهايم، وكان تلميذاً لهنري بيرغسون بمدرسة هنري الرابع في باريس. وقد درس الفلسفة أولاً بمدرسة نورميل سوبريور (المعلمين العليا) الراقية، ثم التحق متأثراً بصديقه فرانسوا سيميان (François Simiand) بمدرسة دوركهايم لعلم الاجتماع في العام 1905م. وفي السنوات التالية أصبح هالبواكس من المساهمين الأساسيين في مجلة لانّيه سوسيولوجيك ، وقد كان أول من قدم أعمال كل من كينيز وبارتو وفيبر في فرنسا. وبوصفه أستاذاً للسوسيولوجيا والبيداغوجيا في جامعة ستراسبورغ بين الأعوام 1919 - 1935م، فقد أثر فيما ستصبح فيما بعد مدرسة آنالز للتاريخ. وبعد استدعائه لتولي كرسي علم الاجتماع في العام 1935م في جامعة السوربون، تم انتخابه في العام 1944م لمنصب أستاذ علم النفس الجماعي في الكوليج دو فرانس، وهو المنصب الذي لم يشغله، إذ قبضت عليه قوات الأمن الألمانية النازية في العام 1944م، ونُفي إلى ألمانيا حيث مات بمدينة بوتشنفالد في آذار/مارس عام 1945م.

يمكن تصنيف أعمال هالبواكس في أربعة أصناف: السوسيولوجيا الاقتصادية الخاصة بطبقات المجتمع والاستهلاك؛ السوسيولوجيا المورفولوجية والميثودولوجية بشكل عام؛ وسوسيولوجيا الانتحار؛ وسوسيولوجيا الذاكرة الجماعية.

وتجمع نظرية هالبواكس السوسيولوجية بين العناصر الدوركهايمية والفيبرية والماركسية. وقد فصل هالبواكس في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه La Classe ouvrière et les niveaux de vie في العام 1913 بين الحلبات الاجتماعية وغير الاجتماعية، وحاول تحليل تأثير كل منهما في الآخر، كما يظهر ذلك في النزعات الاستهلاكية لمختلف الطبقات الاجتماعية، وللطبقة العاملة بشكل أساس؛ فالمصنع يعتبر حلبة غير اجتماعية حيث يعاني العامل من الإقصاء عن رفقائه العمال؛ إذ يجب أن يركز/تركز هو/هي ـ بعكس الطبقات الأخرى ـ على الآلات بدلاً من المشاركة في الحياة الاجتماعية. وباتباعه تعاليم دوركهايم التحليلية بأن الممثلين الاجتماعيين يمكن أن ينتجوا فقط من الحقائق الاجتماعية الأخرى، فقد أوضح هالبواكس أن تقسيم العمل لا يمكن أن يكون سبب الوعي

الطبقي. وإنما يمكن أن ينشأ هذا الوعي عن المقارنات الهرمية التي يقوم بها العمال مع طبقات أخرى من المجتمع خارج بوابات المصنع حين يدخلون المجال الاجتماعي الاستهلاكي، وهذا من خلال مقارنة الاختلافات الاجتماعية التي تنشأ عن التركيبات الهرمية في السوق. ولا يمكن تحليل الإقصاء والاستغلال بأنهما نتيجة عملية العمل أو التضاد بين العمالة ورأس المال، وإنما هما نتيجة الافتقار إلى التكامل والمشاركة في الحياة الاجتماعية التي تعاش في أكثر كثافتها في الأسرة. وإذا ما تم إقصاء شخص ما، فإن ميله نحو إعطاء أولويته لعائلته في السلوك الاستهلاكي، سيكون أضعف من ميله الاجتماعي المتكامل. وقد تم تطوير النزعات النفسية الطبقية في كتاب سيكولوجيا الطبقات الاجتماعية (The Psychology of Social Class) الذي نُشر بعد وفاة هالبواكس.

وفي كلا عمليه عن الانتحار وعن المورفولوجيا الاجتماعية، يبدو هالبواكس أكثر وعياً بالتقلبات الجماعية من أستاذه دوركهايم؛ فبينما كان يسعى دوركهايم إلى إظهار الميل الدائم للاستقرار، شدد هالبواكس، متسلحاً بترسانة متطورة من الأدوات الإحصائية، على التغير والتحول الاجتماعي. كما إنه كان أكثر وعياً بإمكانية تأثيرات التفاعل بين المتغيرات العديدة. فعلى سبيل المثال، لم يتم تحليل الدين بأنه قضية أو مؤسسة يمكنه بنفسه حماية أو تعريض الفرد للانتحار، ولكنه أحد العناصر المتجسدة في نمط حياة أوسع يمكنه القيام بذلك. وعلى سبيل المثال، فبينما كانت الكاثوليكية تُعد أسلوب حياة ريفية، فقد كانت البروتستانتية جزءاً من نمط الحياة المدينية.

فى أواخر سبعينيات القرن العشرين حظي عمل هالبواكس عن الذاكرة الجماعية بانتباه كبير، واعتبره كذلك المؤرخون والأنثروبولوجيون والسوسيولوجيون الجزء الأكثر إبداعاً في عمله. ووفاءً منه لإرث دوركهايم، فقد قدم هالبواكس في Le Cadres sociaux de la mémoire نظرية بنائية للذاكرة بعيداً عن جميع الأشكال الفردية والسيكولوجية. ومع ذلك فلم يُفهم أن الذاكرة الجماعية أمر يوهب. ولم يدّعِ أن المجموعة بذاتها لديها عقل وقدرة ذاتية للتذكر. فالتذكر أمر يقوم به الأفراد، ولكنهم يقومون به عن طريق «إعادة إدخال» أو إعادة بناء المجموعات الاجتماعية. وخلاصة القول، إن مناقشة هالبواكس تنص على أنّ الذاكرة حقيقة اجتماعية تنبني ويحافَظ عليها من قبل المجموعات الاجتماعية التي احتك بها الفرد وأصبح واحداً منها خلال حياته. ولكي يتذكر، فعلى كل فرد أن يعيد بناء الأُطر الاجتماعية التي حدث أو نشأ فيها حدث محدد أو عملية محددة.

وتحدث إعادة البناء هذه في الحاضر، وتتأثر كذلك بشدة بالأحداث الاجتماعية الحالية؛ فالذاكرة بالنسبة إلى هالبواكس هي نتاج ممارسة اجتماعية تنبني بشدة وتكون عملية لعضويات المجموعة الحالية.

إن التصنيف الرئيس الذي تحدّث عنه هالبواكس في أعماله الأخيرة عن الذاكرة الجماعية (أماكن الذكريات)، هي أن مادة الموضوع أو الموقع الحسي الذي يعتبر مهماً، يُمنح معنى رمزياً من قبل مجموعة ما ويكون عملياً للذاكرة الجماعية للمجموعة. وأظهر هالبواكس في تحليل مفصّل يعتمد على نصوص دينية وأحداث تاريخية متنوعة، أن تحديد مواقع الأماكن المقدسة التي ذكرت في الإنجيل قد تغيرت عبر التاريخ، وأن إعادة البناء تلك هي نتيجة جهود نشطة لإحياء ذكراها نيابة عن مجموعات مسيحية، وبخاصة الصليبيون. وبهذه الطريقة، يمكن حفر الذاكرة الجماعية والحصول على دعم من العناصر في الفضاء المادي. وبمجرد تثبيتها، تكتسب ذاكرة المكان الاستقرار من تلقاء ذاتها، جزئياً بسبب عملها للذاكرة الجماعية للمجموعة، وكذلك بسبب مقاومة المجموعة للتغيرات الدرامية في البيئة المادية. وسيختلف بشكل عام فهم هذه المواقع والفضاءات وتمثيلها من مجموعة إلى أخرى: «فهناك العديد من تمثيل الفضاء بقدر ما يوجد من مجموعات».

ومع ذلك، فعلى الرغم من أهليتها وابتداعها، فإن نظرية هالبواكس لا تزال تاريخية، جامدة، وذات توجه نحو إعادة إنتاج البناءات الموجودة أكبر من التوجه نحو التغير الاجتماعي. وحالما تترسخ ذاكرة المكان، يبدو أن الفاعلين ينقسمون إلى مجموعتين من البنّائين، أحدهما اجتماعي والآخر اجتماعي ـ مادي، وينتهي بهم الأمر ببساطة كمتلقين سلبيين لماضٍ تحقق، وليس كعملاء يتمتعون بالقدرة على التفاعل مع رموز كهذه. وإضافة إلى ذلك، فإن أعمال هالبواكس كانت وستظل مصدر إلهام لدراسات الذاكرة الاجتماعية أو الذاكرة الجماعية.

انظر أيضاً: إميل دوركهايم ، مارسيل موس ، ثورستاين فيبلين ، ماكس فيبر.

انظر أيضاً:

.Fifty Key Sociologists: The Contemporary Theorists , Georges Gurvitch

أهم الأعمال:

.La Classe ouvrière et les niveaux de vie . Paris: Alcan, 1912

The Social Framework of Memory . 1925. Partial translation in On Collect-
.ive Memory . Chicago: University of Chicago Press, 1992

.The Causes of Suicide . 1930. London: Routledge & Kegan Paul, 1978

.L'Evolution des besoins dans les classes ouvrières . Paris: Alcan, 1933

Population and Society: An Introduction to Social Morphology . 1938.
.Glencoe, IL: Free Press, 1960

.The Psycology of Social Class . 1938. London: William Heinemann, 1958

La Topographie légendaire des Evagiles en Terre Saint . 1941. Partial trans-
lation in On Collective Memory . Chicago: University of Chicago Press,
.1992

.The Collective Memory . 1950. New York: Harper-Colophon, 1980

قراءات إضافية:

Annette Becker. Maurice Halbwachs, un intellectual en guerres mondiales
.1914-1945 . Paris: Agnes Viénot Editions, 2003

Lewis Coser. 1992. Introduction: Maurice Halbwachs 1877-1945}. In
Maurice Halbwachs. On Collective Memory . Chicago: Chicago University
.Press, 1992

Christian Montlibert, ed. Maurice Halbwachs 1877-1945 . Strasbourg: .Presses universitaires de Strasbourg, 1997

ليونارد هوبهاوس (Leonard Hobhouse)

غالباً ما يقال إن السوسيولوجيا البريطانية لم تنتج أصحاب نظريات ذوي أهمية ما بين هربرت سبنسر وأنتوني غيدنس (Anthony Giddens) . ولكن في الحقيقة هناك العديد من المساهمات البريطانية للنظرية الاجتماعية. ومن بين هؤلاء كان ليونارد هوبهاوس الأكثر منهجية، فأنتج سوسيولوجيا كانت ذات مقارنة في مداها لسوسيولوجيات مؤسسي السوسيولوجيا الفرنسيين والألمان في القرن التاسع عشر. فقد وضع هوبهاوس رؤية سوسيولوجية تركز على بناءات مجتمعات كاملة وعلى الطرق التي تتغير فيها على مر الزمن. ومع ذلك، ففي الوقت ذاته رأى الحياة الاجتماعية متأصلة في تفاعل الفاعلين الفرديين. ووضع كذلك نظرية عن تطور المواطنة في المجتمعات الحديثة، علماً أن النقاشات المعاصرة في هذا النطاق تتجاهل مساهماته.

وُلد ليونارد تريلوني هوبهاوس في العام 1864م، لإحدى الطبقات الثرية المتوسطة. وتلقى تعليمه في جامعة أكسفورد حيث درس الفلسفة وعلم النفس، وأصبح زميلاً في جامعة كوربوس كريستي. وكان قد انهمك أثناء وجوده في أكسفورد بدراسة سياسات العمالة والسياسات التعاونية، وكان منخرطاً كذلك في عمل «مجتمع فابيان». ومن خلال تلك الاحتكاكات بدأ يهتم في العمل الاجتماعي، وكان لفترة من الزمن نشطاً في مستعمرة تُوينبي هول في لندن. في العام 1879م استقال هوبهاوس من زمالة جامعة كوربس كرست، لكي يمارس الصحافة والعمل السياسي. وقد أصبح كاتباً رائداً في صحيفة مانشستر غارديان (Manchester Guardian) ، من خلال تناوله عدد من القضايا في الليبرالية الجديدة. وقد كان هوبهاوس بطبيعته مفكراً أكاديمياً؛ فأثناء وجوده في أكسفورد نشر دراسة في الفلسفة المعرفية، وأتبع ذلك ببحث عن السيكولوجيا المعرفية اعتمدت على دراسات تجريبية كان قد شارك هو فيها. وقد كانت سيكولوجيته نشوئية تعتمد منهجية داروينية، وبدأ العمل على قضية تتعلق بنشوء وتطور الأفكار الأخلاقية. وبعد دعوته لإلقاء محاضرات عن السياسة، من خلال علاقاته بمجتمع فابيان، في كلية الاقتصاد في لندن حديثة الإنشاء، بدأ هوبهاوس بالاهتمام أكثر بالسوسيولوجيا وبجمعية فيكتور برانفورد السوسيولوجية. وكان مارتن وايت أحد التجار الأثرياء

الاسكتلنديين قد قدم هبة كرسي في السوسيولوجيا، وكان يرغب أن يشغل هذه الكرسي باتريك غيديس، ولكن الجامعة رشحت هوبهاوس لتولي هذا المنصب، وبذلك أصبح هوبهاوس أول أستاذ متفرغ في بريطانيا في علم الاجتماع في العام 1907م. وفي العام نفسه أصبح رئيس تحرير صحيفة سوسيولوجيكال رفيو Sociological Review الجديدة.

كان هوبهاوس قد أبدع سوسيولوجيا مقارنة في الأخلاق قبل توليه منصبه بوقت وجيز، واستمر في تطوير هذه الأفكار وربطها باهتماماته السياسية. ولم يقم هوبهاوس بالإحالة على أعمال سبنسر، ومع ذلك فقد جاءت السوسيولوجيا التي بدأها مطابقة تماماً لآراء سبنسر. وكانت أعماله الكبرى في ذلك الوقت قد بدأت تأخذ منحىً نشوئياً، وقام بربطها معاً في مقالة عن الفكرة النشوئية نُشرت في العام 1913م، لخص فيها الأفكار الرئيسة التي عمل عليها منذ أن كان في أكسفورد. وقد قام بتقديم تلك الأفكار في مقالات متتالية نُشرت ما بين الأعوام 1918 و1924م، وقد اعتبرها «مبادئ علم الاجتماع» الخاصة به. وقد توسع هذا العمل، وبخاصة كتابه المركزي عن التطور الاجتماعي ، ليشمل نظريته النشوئية عن العقل والثقافة. ولقد ظل يعمل بالكلية الاقتصادية في لندن طوال حياته المهنية، ووظف موريس جينسبرغ الذي أصبح من أخلص مؤيديه ومروجي أفكاره. وقد توفي هوبهاوس في العام 1929.

اعتبر هوبهاوس العالم الاجتماعي بمثابة شبكة أو نسيج من العلاقات الاجتماعية التي يمكن ضمنها إنشاء بناءات اجتماعية راسخة نسبياً وقابلة للديمومة. وتشمل تلك البناءات العائلات ودور العبادة والجمعيات التطوعية والأمم. وهذه البناءات تُنظم من خلال «عقلية اجتماعية» يحافَظ عليها من جيل إلى جيل من خلال عملية التواصل والاختلاط الاجتماعي لتصبح ثقافة وتقاليد. وعلى الرغم من أن هوبهاوس وصف هذه الشبكة بـ «العقل الاجتماعي» أو «العقلية الاجتماعية»، غير أنه لم يتبع المقالات القوية لمثاليي أكسفورد عن الاستقلالية وعن ماهية تلك العقلية.

إن «العقلية الاجتماعية» ليست عقلاً عملياً موجوداً فوق العقول الفردية. وإنما هي بالنسبة إلى هوبهاوس ببساطة شبكة من العقول تتواصل وسبل تُبنى من خلالها العادات والواجبات والالتزامات تجاه المؤسسات الاجتماعية ويحافَظ عليها. ومثل دوركهايم، أكد هوبهاوس أن الناس يتشاركون في الأفكار وأنهم اجتماعيون بالفطرة. وللتشديد على تمايز أفكاره، فقد قام كل من جينسبرغ وروبرت

ماك إيفر (Robert MacIver) بمقارنتها بنظرية «عقل المجموعة» التي ادّعيا وجودها لدى مثاليي أكسفورد وعند دوركهايم. وعلى الرغم من أن هذا الأمر لا يمكن تأكيده، إلا أن الواضح أن هوبهاوس كان مع التفاعليين الرمزيين بإدراك أن الحياة الاجتماعية تتكون فقط في عقول الأفراد في التواصل.

قام هوبهاوس بتأسيس هذا في علم النفس الخاص به. واعتبر أن الأساس المادي للعقل بمثابة نتاج لنشوء بيولوجي، كما إنه مشترك لدى جميع البشر. وهذا الإرث المشترك هو الذي يمنح القدرة على الفكر الذكي الهادف ويتيح إنتاج ثقافة يمكن انتقالها من جيل إلى جيل. وبذلك فإن اكتساب الثقافة هو العامل الأساس للتقدم الاجتماعي. ومع ذلك فالبيولوجيا البشرية ليست محددة بالكامل: فمن الممكن أن يكون هناك غرائز ثابتة لفعل الأمور، غير أن السبل المحددة التي تتم من خلالها هذه الأمور غير ثابتة بشكل عام. وهناك مجموعة من الحلول الثقافية المتاحة لتشكيل التعبير عن الفطرة والغرائز، بينما تجمع الأفعال الفطرة مع الذكاء. وتعد اللغة الآلية الأساسية التي يمكن للفكر من خلالها التأمل والحكم على الغرائز والسبل المتاحة لإرضائها. وبذلك تتراوح الأفعال البشرية بين الأفعال الغريزية والأفعال الهادفة. ويمكن الناس بانخراطهم في الأفعال الهادفة أن يكونوا قادرين على إنتاج شعور بالذات ولإنشاء الأساس للفهم المتبادل مع أولئك الذين يتفاعلون معهم.

تشمل عملية العقلية الجماعية للتواصل التي تقع في قلب المجتمع، في معظم أوجهها الأساسية، القواعد المشتركة التي توفر للناس فهماً مقبولاً وأشكالاً غير مقبولة من السلوك. ويشكل الأهالي الذين يتشاركون القواعد نفسها مجتمعاً، ويتم الحفاظ على قواعد كهذه من قبل المشاعر التي يتشارك فيها الأهالي. وعندما يتم قبول تلك القواعد، فإنها تصبح عادات، وتصبح الأساس للانسجام المألوف. وعندما يتم الإفصاح عنها وتقوم دولة ما أو هيئة إدارية بإنفاذها، فإنها تصبح «قوانينَ». وتتجمع القواعد مكونة «مؤسسات» تُعنى بأنماط محددة من النشاطات؛ فمؤسسات الممتلكات على سبيل المثال تنظم السيطرة على استخدام ونقل المواد، بينما تنظم مؤسسات الزواج الإنجاب والقرابة. وبذلك تحتوي البناءات الاجتماعية على علاقات اجتماعية «ممأسسة».

يمكن وصف أي مجتمع يستمر لفترة طويلة من الزمان بأنه مجتمع «عضوي» ككل. فهو يتمتع بالوحدة وحياة ذاتية، وتعمل أجزاؤه المختلفة معاً وتعزز بعضها بعضاً. وقد جادل هوبهاوس بأن

هذا الاندماج هو نتيجة نشوء الانتقاء الطبيعي. فالعواطف والأفكار التي تساعد على ملاءمة المجتمع واستمراره في البقاء تميل إلى الاستمرار، بينما المجتمعات التي تفشل في تغذية هذه العواطف سوف تتراجع. فمن خلال عمليات الانتقاء تلك تحدث عمليات التغيير بعيدة المدى. وقد اعتبر هوبهاوس أن التطور هو الذي تتبع نزعات متفرعة من التغيير أدت، على مستوى البشرية ككل، من أشكال أكثر بساطة إلى أشكال أشكال أكثر تعقيداً من البناءات الاجتماعية.

وقد نظر هوبهاوس إلى النشوء من خلال تسلسل، بدءاً من المجتمعات التي تعتمد على القرابة والمنتظمة حول فكر «بدائي» وأفكار دينية، مروراً بالمجتمعات «المتمدنة» ذات الدول الاستبدادية، وصولاً إلى المجتمعات الحديثة التي تعتمد على الأفكار العلمية وذات دول «متمدنة». وبفضل الانتقاء الطبيعي، فإن أي مجتمع يتطور (خلال المستويات المذكورة) يزيد من مستواه ومن كفاءاته التي يتعامل فيها مع موارده، وتنظم نشاطاته. وهذا شرط لتعزيز الفردية، والحرية، والتعاون المتبادل. فنموذج هوبهاوس للتقدم في الفكر الإنساني والمعرفة يجعل أشكالاً ممكنة من التكيف تعزز من القوى الإنتاجية البشرية والسيطرة على الطبيعة، ويعزز هؤلاء بالتالي قدرات الناس على تحقيق أهدافهم بطرق أكثر فاعلية وعقلانية. فبالنسبة إلى هوبهاوس فإن التطورات الاجتماعية تكون ذات توجه، ويمكن وسمها بالمصطلحات الأخلاقية بـ «التقدم».

كان هذا التفسير للتطور الاجتماعي أساساً لأحد أفكار هوبهاوس المهمة والمؤثرة. فقد جادل بأن المجتمعات الحديثة ليست بكل بساطة مجتمعات عقلانية صناعية، بل هي مجتمعات أصبحت فيها السلطة السياسية أقل استبدادية من المجتمعات التقليدية. فالدول الأمم منظمة حول توسع السيطرة الديمقراطية على النشاط السياسي. فحرية المجتمعات الحديثة وتبادليتها تكمن وراء السمة «المتمدنة» لدولها. فالدول الحديثة تعامل أفرادها بوصفهم «مواطنين»، لا رعايا. وفي هذه الدول حقوق قانونية وحرية شخصية ثابتة، وحقوق المعيار الأدنى للمعيشة، والحق في التعليم والرفاه. وتضمن هذه الحقوق «العضوية الكاملة» في المجتمع، حيث يتمتع جميع الأعضاء بحق متساوٍ للمشاركة في «الصالح العام». ولذا كان التطور الكامل للمواطنة النتيجة بعيدة المدى للتطور الاجتماعي. وبوضعه هذه النظرية للمواطنة، فقد مهد هوبهاوس الطريق لمزيد من العمل الذي أنجزه زميله ت. مارشال.

انظر أيضاً: توماس همفري مارشال ، هربرت سبنسر ، إدوارد تايلور.

أهم الأعمال:

.The Labour Movement . London: T. Fisher Unwin, 1893

.The Theory of Knowledge . London: Methuen, 1896

.Mind in Evolution . London: Macmillan, 1901

.Democracy and Reaction . 1904. Brighton: Harvester, 1972

.Morals in Evolution . London: Macmillan, 1906

Liberalism . 1911. In James Meadowcroft, ed. Hobhouse: Liberalism and .Other Writings . Cambridge: Cambridge University Press, 1994

Social Evolution and Political Theory . 1911. WI: Port Washington: Ken- .nikat Press, 1968

.Development and Purpose . London: Macmillan, 1913

The Material Culture and Social Institutions of the Simpler Peoples . 1914. With G. C. Wheeler and Morris Ginsberg. London: Routledge and Kegan .Paul, 1965

The Metaphysical Theory of the State . Vol. 1 of Principles of Sociology . .London: George Allen and Unwin, 1918

The Rational Good . Vol. 2 of Principles of Sociology . London: George .Allen and Unwin, 1921

The Elements of Social Justice . Vol. 3 of Principles of Sociology . London: .George Allen and Unwin, 1922

Social Development: Its Nature and Conditions . 1924. Vol. 4 of Principles .of Sociology . London: George Allen and Unwin, 1966

تم نشر عدة دراسات من العام 1907 - 1930 بعد وفاته في:

.Sociology and Philosophy . London: G. Bell and Sons, 1966

قراءات إضافية:

Hugh S. Carter. The Social Theories of L. T. Hobhouse . Port Washington: .(Kennikat Press, 1968 (originally 1927

Stefan Collini. Liberalism and Sociology: L. T. Hobhouse and Political Argument in England 1880-1914 . Cambridge: Cambridge University Press, .1979

John A. Hobson and Morris Ginsberg, eds. L. T Hobhouse: His Life and .Work . London: George Allen and Unwin, 1931

ليستر وارد (Lester Ward)

مباشرة في أعقاب الحرب الأهلية والعصر المذهب، كانت الحقبة التقدمية حقبة من التاريخ الأمريكي سعى فيها الأمريكان إلى التعامل مع التأثيرات السلبية للتغييرات السريعة التي كانت تحدث حولهم، خاصة في مجالات التصنيع والهجرة والمدينية. وشرع الإصلاحيون التقدميون والمحليون، بالتعاون مع المجموعات والمنظمات التي تمثل أنشطة كهذه، مثل أعمال الخير، والمؤسسات الخيرية، والإصلاحات، ورفاهية الطفل، والتسويات الاجتماعية والعمل الاجتماعي، وبالعمل على القضية التقدمية لإعادة البناء الاجتماعي. وكان علم الاجتماع في ذلك الوقت إلى حد كبير غراً، وفرعاً غير مبرهن من المعرفة، ذا مدلول غير محدد الملامح لموضوعاته، وخططه البحثية التي يمكنه الادعاء شرعياً بأنها له. وكان في وضع مناسب لتبني القضية التقدمية مضفياً عليها شرعية «علمية» أو منظمة».

ولد ليستر فرانك وارد في العام 1841م، بالقرب من حدود إلينويز. وكان سيصبح بحلول الحقبة التقدمية أحد أبرز علماء الاجتماع في أمريكا. وكان وارد قد عزز موقفه بنشر كتابه السوسيولوجيا الديناميكية (Dynamic Sociology) ، وهو كتاب كبير يتكون من مجلدين، يعكس التزامه بالفلسفة الوضعية والعلم. ومنذ نشره كتاب السوسيولوجيا الديناميكية في العام 1883، أكد وارد من خلال جميع أعماله بما فيها كتاب العوامل النفسية للحضارة (Psychic Factors of Civiliza- tion) ، وكتاب موجز في علم الاجتماع (Outlines of Sociology) ، وكتاب علم الاجتماع الخالص (Pure Sociology) ، وكتاب علم الاجتماع التطبيقي (Applied Sociology) ، وكتاب لمحات الكون (Glimpses of the Cosmos) ، والذي جُمّع بعد وفاته في ستة مجلدات، أنه إذا ما كان لعلم الاجتماع قيمة في تعزيز الأجندة التقدمية للإصلاح والتهذيب المجتمعيين، فلا بد من فصله عن الادعاءات «غير العلمية» العامة والشعبية عن المجتمع، والمقترحات الإصلاحية المرتبطة بها. وهذا ما لا يمكن بلوغه إلا إذا كان لدى علماء علم الاجتماع القدرة على شرح الأسس

العلمية التي يرتكز عليها هذا العلم بوضوح. كما أكد أنه لا بد من إدراك القوى الاجتماعية والنفسية المحركة لسلوك الإنسان، والتي تشكل المجتمع البشري، قبل تنفيذ أي برنامج لعلم الاجتماع التطبيقي.

لقد تشكّلت رؤى وارد عن العلم والمجتمع بسبب طفولته المتسمة بالفقر والاعتقاد المنفعي في تحسين النفس والمجتمع من خلال العمل والجهود الشاقة. وعلى الرغم من ذلك لا يمكن للبشر من إنجاز هذا العمل كأفراد وحدهم، وذلك لأن الأنظمة الاجتماعية متسعة المجال ومعقدة للغاية. ويمكن لمثل هذا البرنامج للتعليم الشامل أو الإجباري أن يكون أمراً عصيباً من غير ريب، ومن ثم، فبوصفه أحد عناصر المساق الرئيس لـ «التقدم المخطط»، أي في توجيه التغيير المخطط على المستويين الحكومي والمؤسسي، وذلك لتحقيق أهداف التحسين المجتمعي. (في حقيقة الأمر، كانت دعوة وارد للتعليم الشامل فكرة رائدة، كما دعمت موقف جون ديوي في هذا الصدد).

بدا اعتقاد وارد بأهمية التضحية بالنفس من أجل الصالح العام راسخاً للغاية؛ إذ إنه شارك في الحرب الأهلية وجُرح فيها. وقد عارض وارد الرق واليوجينا (علم تحسين النسل)، وجميع أشكال الترتيبات الاجتماعية التي تضطهد المجموعات على أساس الجنس أو العرق أو العقيدة أو الطبقة الاجتماعية. وقد وضع فكر وارد، في طرق عديدة، حجر الأساس لظهور دولة الرفاهية الحديثة. وبعد معافاته من الجروح التي أصيب بها في الحرب، عمل وارد في الحكومة في واشنطن، كعالم نباتي وجيولوجي وعالم حفريات. وحاز درجتين علميتين في القانون والطب، ولكنه لم يمارسهما. كما كان وارد أيضاً طلقاً في عدة لغات، وعندما بدأ الاحتفاظ بمفكرة شخصية في العام 1860م، كتب بالفرنسية حتى يتعلم اللغة بشكل أدق.

بدأ وارد بكتابة كتابه السوسيولوجيا الديناميكية في العام 1869م، عندما كان يعمل في الحكومة. واستغرق إتمام هذا العمل 14 عاماً، ونشره في مجلدين يحتوي الواحد منهما على 1400 صفحة. وكان هذا الكتاب عبارة عن عمل ضخم في الكوسمولوجيا؛ إذ إن وارد ربط معاً كل العلوم التي كانت معروفة آنذاك مثل علم الفلك، والجيولوجيا، والكيمياء، وعلم الحفريات والبيولوجيا، وعلوم الفلسفة، والإثنولوجيا، والأنثروبولوجيا، والسيكولوجيا (علم النفس)، والاقتصاد والعلوم السياسية، وبالطبع علم الاجتماع. وكان أوغست كونت وهربرت سبنسر من ضمن الشخصيات الكبيرة التي

تناولها وارد بالبحث. وكان وارد متمسكاً تماماً بنظرية كونت لهرمية العلوم والتي توحي بأن علم الاجتماع هو ملك العلوم، لدرجة أنه يعتمد وينطوي على المبادئ الأساسية لجميع العلوم الأخرى. وكما شرح وارد:

إن علم الاجتماع هو دراسة متقدمة، وهو آخر وأحدث المناهج التعليمية كافة، بل وربما يجب أن تتم دراسته بشكل أساس كمنهج دراسي لطلاب ما بعد التخرج. ويشمل علم الاجتماع قوى عليا من التعميم. والأهم من ذلك، هو أنه يتطلب بالقطع وجود أسس توجيهية عامة. ويغلب على علم الاجتماع الطابع الفلسفي، وفي تلك الفترة، لم تعد الفلسفة تعتمد على الافتراضات، بل على الحقائق. ولإدراك قوانين المجتمع لا بد للعقل من أن يمتلك مجموعة كبيرة من المعرفة. ومن المفترض لهذه المعرفة ألا تُجمع جزافاً من هنا وهناك، ولكن ينبغي لها أن تغرس في الذهن بطريقة منهجية.

لم يتولَّ وارد أي منصب أكاديمي في علم الاجتماع إلا في السنوات الأخيرة من عمره. ففي عام 1906م تولى وارد رئاسة قسم السوسيولوجيا الذي أنشئ حديثاً في جامعة براون، والتي بقي فيها حتى وفاته في العام 1913م. كما إن وارد رُشّح في العام 1906م لتولي منصب أول رئيس للجمعية الاجتماعية الأمريكية، ثم أعيد انتخابه لفترة ثانية في العام 1907م. وباتباعه كونت مرة أخرى، تصور وارد علم الاجتماع بأنه توليفة لجميع العلوم السابقة. وجاء هذا العرض ضمن مقرر دراسي قام بتدريسه في علم الاجتماع في جامعة براون، سماه «دراسة استقصائية لجميع المعارف».

وعلى الرغم من تأثره بهربرت سبنسر وكونت، أنكر وارد الدلالات الحتمية لنظرية النشوء، ولهذا السبب انتقد زميله وليام ستونر، وهو أحد علماء الاجتماع، نظراً إلى تأييده لحكومة ودعه يعمل (عدم التدخل) واقتصادياتها. وعلى الرغم من أن قانون «البقاء للأصلح» (الانتقاء الطبيعي) يمكن أن يسري بين الأنواع غير البشرية، إلا أن وارد وضع نظرية بأنه في ظل تزايد الصلاحية الفكرية وانبثاق سلطة الحكم بين البشر، فإن أفضل مبدإ إدارة هو «حماية الأضعف». وتماشياً مع ذلك، اعتقد وارد أن البشر هم أسياد الطبيعة، وليسوا رعاياها. ونظراً إلى القوة النفسية للعقل والروح، يمكن فقط للبشر وحدهم التحكم في القوانين الصلبة للتطور وتوجيهها، وهو بطريقة أخرى يقرر مصير المواد غير العضوية وأشكال الحياة الأدنى. إنها تلك السيادة على الطبيعة التي تميز البشر عن المخلوقات الأخرى.

تعتبر الطبيعة، بالنسبة إلى وارد، ميداناً للقوانين الجامدة، وعلى الرغم من خضوع الأجناس البشرية لهذه القوانين، وبما أنها استطاعت إدراكها (إذ وصلت إلى المرحلة الوضعية)، ففي استطاعتها محاولة تغييرها. وبدلاً من التطور المادي أو العضوي الصارم، فضّل وارد التطور الاجتماعي الذي يُعنى بوجود حكومة تدخلية أو «إنتاجية». كما استخدم وارد مصطلح «فلسفة الإصلاح» (Meliorism) للإشارة إلى مذهب «المنفعة العلمية»، والذي نشر عن طريق الاعتقاد في قوانين سببية وفعالية الأفعال الموجهة توجيهاً جيداً. وفي حقبة ما بعد الحرب الأهلية في أمريكا، شعر وارد بالحاجة إلى نظام حكومة جديد، وهو ما أطلق عليه السوسيوقراطيا (Sociocracy) . وهذا النظام عبارة عن شكل حكومي يقف بين الديمقراطية الفردانية (والتي تنزع نحو الانجراف تجاه مذهب دعه يعمل، كما هو الحال خصوصاً أثناء العصر المذهب)، وبين الاشتراكية، والتي تمثل بالطبع حكومة جماعية وحكومة تدخل راديكالي. كما يسمح النظام السوسيوقراطي بوجود تخطيط منطقي للنظام الاقتصادي من دون أدنى حاجة إلى تكبيل أيدي المؤسسات والأعمال. لكن بدلاً من صنع القرارات من قبل الفرد، فسوف تكون الجماعة (المجتمع) هي التي تتولى مهام نظام الإنتاج والاستهلاك.

ومع أن العديد من معاصري «وارد»، ممن يعملون في العلوم الطبيعية والاجتماعية، أُعجبوا بعمق معرفته العلمية واتساعها، غير أنهم شعروا أن نموذجه السوسيولوجي الذي قدمه، سوف يكون صعب التنفيذ، وذلك بسبب اتساع حجم الخلفية العلمية المطلوبة لطلاب العلم. وعلى الرغم من إشارة ألبيون سمول ذات مرة إلى أن كتاب السوسيولوجيا الديناميكية ، هو الكتاب الوحيد الذي تمنى لو كتبه هو، فقد وجه نقده لتصورات وارد الكوسمولوجية في عصر تزايد التخصصات العلمية. ولهذا السبب لم يُذكر وارد كثيراً من قبل علماء الاجتماع بعد وفاته في العام 1913م. ومع ذلك فإن التزام وارد بالعلم والإحسان، يشكل نموذجاً خاصاً مناسباً لعلم الاجتماع المعاصر، كما تبدو فكرة «نظام السوسيوقراطي» بديلاً قابلاً للتطبيق لكل من الفردانية الأنوية للديمقراطية الرأسمالية، والباثولوجيا الجماعية للاشتراكية والشيوعية.

انظر أيضاً: أوغست كونت، ألبيون سمول، هربرت سبنسر.

أهم الأعمال:

.Dynamic Sociology , 2 vols. New York: Appleton, 1883

.Psychic Factors of Civilization . Boston, MA: Ginn and Co., 1893

The Place of Sociology among the Sciences. American Journal of Soci-
.ology , 1, 1895

.Outlines of Sociology . 1897. New York: Macmillan, 1913

.Pure Sociology . 1903. New York: Macmillan, 1914

.Applied Sociology . New York: Ginn and Co., 1906

قراءات إضافية:

Gale Largey. 2005. Lester Ward: A Life's Journey. Film documentary,
.available at http://www.galelargey.com

Edward C. Rafferty. Apostle of Human Progress: Lester Frank Ward and American Political Thought, 1841-1913 . Lanham, MD: Rowman and Lit-
.tlefield, 2003

لويد وارنر (Lloyd Warner)

وُلد وليام لويد وارنر في كاليفورنيا في العام 1898م، ودرس الأنثروبولوجيا في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. ولإتمام دراسة الدكتوراه، ذهب إلى أستراليا حيث قام ببحث ميداني عن تنظيم القرابة لقبائل المورنغين (Murngin) في جزيرة ميلينغيمبي (Milingimbi) في منطقة أرنهيم لاند (Arnhem Land) التي تقع شرقي الأقاليم الشمالية لأستراليا. وكان أول تعيين أكاديمي له في جامعة هارفرد حيث بدأ بالتدريس فيها منذ العام 1925م وحتى انتقاله إلى جامعة شيكاغو في العام 1935م. وفي جامعة هارفرد كان لوارنر الريادة في محاولة التطبيق العملي الميداني لطرق البحث الأنثروبولوجي. وكان شديد الاهتمام بالدراسات الإمبريقية لإلتون مايو عن سلوك العامل بأعمال الكهرباء لهاوتورن في جامعة شيكاغو، ثم بتوجيه دراسة كبرى عن التقسيم الطبقي والمجتمع في إقليم نيو إنغلاند في مدينة نيوبيريبورت (Newburyport) (والتي أشار إليها بالاسم المستعار «مدينة يانكي»). وبعد انتقاله إلى شيكاغو، حيث واجه المناهج الممأسسة لعلم الاجتماع المديني، والتي نشأت في قسم علم الاجتماع بجهود روبرت بارك وزملائه، قام وارنر بتوسيع مدى أعماله المقارنة. فقام وارنر بتوجيه دراسة عن منطقة موريس في ولاية إلينوي (والمعروفة باسم جونزفيل)، وكان مصدر إلهام لدراسة بورلي غاردنر عن مدينة ناتشيز (المدينة القديمة) وعن الميسيسيبي Deep South عام 1941)، والدراسة الضخمة لمجتمع السود في مدينة سانت كلير دريك في شيكاغو Black Metropolis عام 1945م). وفي شيكاغو، قام وارنر بإنشاء معهد الأبحاث الاجتماعية، وهي مؤسسة يتم فيها عمل بحوث المستهلك والأعمال الاستشارية للأعمال التجارية الخاصة. وتوفي وارنر في العام 1959م.

كانت تحقيقات وارنر عن القرابة في أستراليا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأعمال زميله فيما بعد ألفريد رادكليف ـ براون، والتي كانت متأصلة من منهج دوركهايم وتقريره عن الشعوب البدائية الأسترالية بعنوان Elementary Forms of the Religious Life. وقام وارنر بتوثيق الاختلافات في مصطلحات القرابة والأنظمة ذات الصلة بزواج أبناء العمومة من منطلق مساهماتها في نمط معين من أنماط التضامن الاجتماعي والحياة الدينية. وبعد عودته إلى بلاده، سعى إلى تطبيق طرق البحث

الميداني نفسها للمجتمعات الصغيرة في الولايات المتحدة. في البداية تركزت أبحاثه على دراسات هاوتورن للجنة علم النفس، حيث أظهرت مقابلات مايو مدى أهمية علاقات العاملين الأسرية والمجتمعية وأثرها في تكاملهم مع بيئة عملهم. كما دُعي وارنر إلى المشاركة في البحث من أجل تطبيق بحثه الميداني عن الأسرة والمجتمع. وقد انتهى وارنر أخيراً إلى أن طلاب وزملاء روبرت بارك وإرنست بورغيس، من جامعة شيكاغو، قاموا بدراسات موسعة عن المدينة، وأن طرق بحثه الميداني المتخصصة كانت تلائم المناطق «غير المنظمة» الأصغر والأقل.

كما اتخذ النطاق المحدود والمجتمعات المتماسكة نفسيهما، التي اتخذها في أستراليا، كمختبرات لطرق بحثه، كما شعر بأن مدن نيو إنغلاند ـ وسط أمريكا اليانكية ـ يمكن أن تناسب أهدافه في البحث. وبالبحث في العديد من الأمكنة حدد منطقة ماساتشوستس في ولاية نيوبيريبورت للبدء في دراسته في أواخر فترة الثلاثينيات. واعتمدت دراسته على مقابلات موسعة ومكثفة واستطلاع للرأي وملاحظات مباشرة أخذها هو وفريقه إضافة إلى مصادر وثائقية.

كان افتراضه الأساس بأنه في الوقت الذي كانت فيه المجتمعات القبلية في حالة تكامل اجتماعي من خلال القرابة، فإن الطبقات الاجتماعية مارست هذا الدور في المجتمعات الأكثر تعقيداً. كما إن العلاقات الاقتصادية تشكل شيئاً جوهرياً في البنية الاجتماعية، كما تشكل جزءاً من أساس أنظمة القيم. وكذلك لا بد للبحث من أن يبدأ بدراسة أنماط التضامن الناتجة عن التفاوت والتباين الاقتصاديين. وأكد أنه في أي مدينة مُنشَأة، فإن نظام الطبقات الاجتماعية يمكن أن يضفي شرعيته على الأنماط الموجودة للتفاوت الاجتماعي، كما يمكن أن يشكل الأساس الذي يبني عليه الناس هوياتهم وشعورهم بالانتماء إلى المجتمع. وعلى الرغم من اعتراف وارنر بأهمية الملكية الفعلية للمصادر الاقتصادية، فقد ركز اهتمامه على أنماط التضامن الاجتماعي المرتبطة بها. وكانت اهتماماته تنصب في قضايا الحالة الاجتماعية بدلاً من الطبقة الاجتماعية نفسها. وكذلك كان ينظر إلى التطابق الاجتماعي على أنه ناتج عن تدرج الأوضاع الاجتماعية من حيث تصنيفها إلى رئيس ومرؤوس، والمترابطة في الحقوق المميزة والواجبات إضافة إلى نمط المعيشة.

وفي مدينة نيوبيريبورت، حدد وارنر هرمية من ست طبقات اجتماعية: الطبقة العليا العالية، العليا السفلى، والمتوسطة العليا، والمتوسطة السفلى، والسفلية العليا، والسفلية السفلى. وكان على قمتها

الشريحة الأرستقراطية للأسر الثرية، وكانت هذه الشريحة متكاملةً بشكل وثيق من خلال القرابة والتفاعل الاجتماعي واتباع المراسم المميزة للتفاعل والأنماط الاجتماعية. وكان أفراد هذه الطبقة يعيشون في أكبر المنازل وفي أكثر المناطق تميزاً في المدينة. ويأتي في المقام الثاني الأثرياء «الجدد» من الأسر المرتقية، وهم من لم يقبل صعودهم إلى رأس الهرمية حتى الآن. وكانوا في الغالب في درجة ثراء أكثر من الشريحة العليا العالية، ولكن أموالهم كان ينظر إليها باحتقار على أنها لم تكن عريقة كما ينبغي. ولم يكن بإمكانهم ضمان القبول كلياً إلا بعد أن سكن العديد من الأجيال في المدينة. أما في المدن الأحدث مثل مدينة موريس، فقد نوه وارنر إلى أن الفرق ما بين الأثرياء القدامى والجدد كان أقل أهمية على المستوى الاجتماعي، وأنه كانت هناك طبقة عليا واحدة مفردة. واشتملت الطبقات العليا على عائلات «المجتمع».

كانت الطبقة المتوسطة العليا والتي تتكون من الأسر ذات الأعمال التجارية البسيطة والحرفيين، أساس السياسات المحلية والمشاركة المدنية في الجمعيات التطوعية. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت متميزة عن الطبقة المتوسطة السفلى، والتي تتكون من أصحاب المتاجر والموظفين والعمال المهرة. ومع ذلك أيضاً، تمثل الطبقة المتوسطة السفلى والطبقة السفلى العليا درجة من التضامن الاجتماعي كجمهرة من العامة الذين يمثلون الأغلبية ممن يعيشون في المدينة. ويأتي في آخر القائمة، الطبقة السفلية السفلى، وهي مستثناة من الاتجاه السائد، والتي تمثل طبقة العمال غير المهرة، والذين يعيشون في حالة من الفقر.

كانت مدينة نيوبيريبورت مجتمعاً متجانساً عرقياً، وكان النزوح العرقي فيها لغير اليانكيين حديثاً نسبياً. وعلى الرغم من ذلك، كان هناك نمط مختلف من التمييز العرقي عبر أنحاء المدينة. أما في مدينة ناتشيز، فقد اكتشف زملاء وارنر نمط التطابق الاجتماعي، والذي وصفه هو بالطبقية. وفي الحقيقة، تتألف مدينة ناتشيز من نظامين متشابكين من التطابق الاجتماعي: نظام أبيض وآخر أسود يفصل بينهما خط اللون، ويضع كل من السود والبيض في طبقات اجتماعية مختلفة. كان من الممكن أن يخضع كل من مجتمعي السود والبيض للتحليل النفسي من منطلق تدرجهم الطبقي، ولكنهم ظلوا على تميزهم. وكان البيض من الطبقة المتوسطة العليا يشعرون بالقرب من البيض من الطبقة السفلى أكثر من السود من الطبقة المتوسطة العليا. ويقطع خط الطبقات المجتمع بشكل انحرافي،

وكان وارنر مهتماً بالبحث في الظروف التي يمكن في ظلها أن تتغير زاوية هذا الخط، والوصول إلى مساواة عرقية بشكل أكبر. كما قام فريق البحث من زملائه من جامعة شيكاغو باكتشاف المزيد من الأنماط المعقدة من الطبقية الاجتماعية والتقسيم الطبقي.

كما قام وارنر بدوره الريادي في تطبيق مناهجه في تحليل التشابك الاجتماعي لدراسة مجموعات الزمر والصداقة التي اكتشف وجودها داخل الطبقات الاجتماعية المختلفة، حيث استوحى أفكاره مجدداً بناءً على الدراسات الأنثروبولوجية التي أجريت حينها عن المجتمعات القبلية. وأوضح وارنر أن تلك الأفكار كانت ملائمة لمجتمعات أكثر تعقيداً، كما فتحت آفاقاً أمام الأبحاث المتتابعة عن التشابك الاجتماعي بين الأشخاص.

انظر أيضاً: ألفريد رادكليف ـ براون، أوليفر كوكس، إميل دوركهايم.

أهم الاعمال:

American Caste and Class.1936. In John Scott, ed. Class . London: Routledge, 1996.

A Black Civilization . 1937. New York: Harper, 1958.

The Social Life of a Modern Community . With P. S. Lunt. New Haven, (CT: Yale University Press, 1941. (Yankee City, vol. 1

The Status System of a Modern Community . With P. S. Lunt. New Haven, (CT: Yale University Press, 1942. (Yankee City, vol. 2

The Social System of American Ethnic Groups . With Leo S. Srole. New (Haven, CT: Yale University Press, 1945. (Yankee City, vol. 3

The Social System of a Modern Factory . With J. O. Low. New Haven, CT: (Yale University Press, 1947. (Yankee City, vol. 4

The Living and the Dead . New Haven, CT: Yale University Press, 1959. (Also published as The Family of God . (Yankee City, vol. 5

.Democracy in Jonesville . New York: Harper Brothers, 1949

.Social Class in America . 1949. New York: Harper and Row, 1960

The Structure of American Life . Chicago: University of Chicago Press, .1952

American Life: Dream and Reality . Chicago: University of Chicago Press, .1953

.Yankee City . Abridged ed., 1963

قراءات إضافية:

Allison Davis, B. Gardner and M. Gardner. Deep South . Chicago: .University of Chicago Press, 1941

St. Clair Drake and Horace B. Cayton. Black Metropolis . New York: Har- .court Brace, 1945

بياتريس ويب (Beatrice Webb)

وُلدت بياتريس ويب (ني بوتر) في العام 1858م لأسرة كبيرة مترفة. وكان والداها على درجة كبيرة من المعرفة، كما كانا يتمتعان برفقة من المفكرين والسياسيين. وكان هربرت سبنسر صديقاً مقرباً للعائلة. وعلى الرغم من شكوكها في شأن اعتقادات سبنسر - كما يتضح في سيرتها الذاتية (My Apprenticeship) - إلا أن ويب تأثرت بوجهات نظر سبنسر عن دور المرأة واهتمامه بالتصنيف.

قامت ويب بالمغامرة في عالم المشكلات الاجتماعية والفقر لأول مرة في العام 1883م، عندما أخذت على عاتقها مباشرة العمل لصالح المنظمة الخيرية الاجتماعية (Charity Organisation Society (COS)) كجامعة تبرعات. وقد وجدت العمل الاجتماعي بين الفقراء عملاً غير مناسب. ورفضته كوسيلة لحل مشكلة الفقر، فتخلت عن عملها وعن المنظمة في العام 1885م. التزمت ويب بآراء المنظمة الخيرية عن تأثيرات الدوافع المعاكسة للصداقة والسلوكيات التأديبية للعاطل الكسول، ولكنها شعرت أن المنهجية الفردانية للمنظمة الخيرية أهملت الأسباب الرئيسة والبنيوية لحالات الإملاق. واضطرت ويب إلى قبول التقسيم المعياري المؤقت بين الفقراء المستحقين والفقراء غير المستحقين، ولكنها شعرت أن المستحقين كانوا في الغالب بمنأى عن وصول عاملي المنظمة لمساعدتهم. ومنذ ذلك الحين، كان عليها أن تسعى إلى الحصول على حلول للأمراض الاجتماعية في نطاق الجهاز الإداري، بدلاً من حل مشاكل الأفراد.

في النصف الأخير من ثمانينيات القرن التاسع عشر، انضمت ويب إلى فريق من الباحثين في دراسة تشارلز بوث عن حياة الناس وأعمالهم في لندن. وكان اختصاصها هو دراسة العمل الكادح وغير الكادح. وفي تلك الفترة، كانت قد عزمت على أن تكون واحدة من الباحثين الاجتماعيين. كما أتاح لها البحث الذي يقوده بوث، الفرصة لتوسعة مهارات البحث الاجتماعي واختبارها والتحليل الذي كانت قد بدأته خلال فترة عملها مع المنظمة الخيرية. وكانت مقالتها عن العمل الكادح واحدة من مقالاتها المبكرة التي نُشرت. كما كان لها أيضاً مقالتان جمعتا أحداث العمل في مصانع الحياكة الاستغلالية، حيث قامت بعمل بحث في الخفاء بواسطة عملها كعاملة يدوية لخياطة السراويل. وفي

هذا المكان استطاعت ويب جمع ملاحظاتها مع تحليل بنائي، بدلاً من وضع الوسطاء في قلب العمل الاستغلالي، الذي أدان عملية الإنتاج كلها بوصفها منافسة بلا ضوابط. وبذلك كشفت عن قدرتها على ربط الملاحظات المقصورة على فئة معينة بالبنيان الاجتماعي الكلي، وإيمانها بمقدرة البنيان التنظيمي وأهميتها.

لم تكن هذه الخبرة في مجال الحياكة أول محاولة تنكرية لها لإتمام بحث ما. ففي العام 1883م، قامت ويب بزيارة منطقة لانكشاير في مدينة باكوب بوصفها الآنسة جونز، وهي ابنة أحد المزارعين من ويلز. ومن هذا المكان أصبحت ويب مهتمةً بالأنشطة التعاونية، وخصوصاً، حقيقة تعاون المستهلكين مقارنةً بتعاون المنتجين. ومن ثم بدأت العمل في مقارنة تاريخية في العام 1890م، ما أدى إلى احتكاكها مع جمعية فابيان والاختصاصي الاجتماعي الفابياني سيدني ويب. وقد تزوجا في العام 1892م، على الرغم من كونه أدنى منزلة منها، وعلى الرغم من عدم رضا عائلتها عن طبقته وسياساته الاشتراكية. وقد تمت موافقتها على ألا يكون للزواج تدخل في طموحات بيتريس كباحثة اجتماعية. وأكد سيدني بأن طرق عملهما يمكن أن تكون تكميلية، وأن عليها أن تصف زواجهما بـ «شراكتنا».

ومنذ ذلك الحين بدأت جهودهما في التضافر، ونشرت أعمالهما تحت اسميهما. ولكن، لم تكن هذه الأعمال تعتمد كثيراً على إجادة الملاحظة وإدارة الحوار، وهو ما نجحت بيتريس في تطويره وتطبيقه، بل كان الاعتماد غالباً على الاستمرار في جمع الكثير من المواد التفصيلية وموازنتها، على مدى تاريخ المؤسسات. وعلى سبيل المثال، قاما معاً بنشر كتاب تاريخ النقابات العمالية وكتاب كبير عن تاريخ الحكومة المحلية . وكان لهما الدور الفعال في إنشاء كلية لندن الاقتصادية، وكانت بتوصية من جمعية فابيان عام 1895م.

كانت ويب مهتمة في تطوير قواعد المنهج الاجتماعي، وأكدت أن أي باحث اجتماعي يخضع إلى تأثير خلفيته، والظروف الاجتماعية والاقتصادية المحيطة به، ولكن التغلب على ذلك الانحياز يستلزم القدرة على إدراكه. وصنفت ويب نفسها مراراً كأداة للبحث الاجتماعي الذي كانت قد بدأته وعملت على تطويره من قبل. ونتيجة ذلك التدريب، اعتقدت ويب بإمكانية جمع المعلومات التي يمكن أن تنبلج عنها المبادئ والأنماط الاجتماعية. ولكن أثناء الممارسة العملية، بدت القوانين

العامة التي كانت تنقب عنها من خلال بحثها الدائب، وكأنها تراوغها. وثار الجدل بشأن كونها قد نزعت إلى إهمال قدراتها الحقيقية في الملاحظة لعمل طفرة إبداعية يمكن أن تقود إلى تحليل أكثر محوريةً. إضافة إلى ذلك، فعلى الرغم من نقدها لسبنسر بسبب تمسكه بتوضيحات لأفكاره، ومن ثم الدفاع عنها كما لو كانت من المبادئ الأولية، فقد وُجِّهت إليها الاتهامات من قبل كل من المحللين المعاصرين واللاحقين باستخدام منهاج انتقائي مشابه عند وصفها للحقائق.

في العام 1905م، تلقت ويب دعوة من قبل لجنة مساعدة الفقراء القضائية. وهناك، اصطدمت مع هيلين بوزانكيت نصيرة المنظمة الخيرية والمحرر الرئيس لتقرير الأغلبية الذي أصدرته اللجنة. وكتبت ويب تقرير الأقلية بالاشتراك مع سيدني مرة أخرى، والذي طبع بجهود عظيمة. وكان اقتراح تقرير الأقلية هو فسخ قوانين مساعدة الفقراء ومطابقة شروط الفصل لفصل مجموعات من المحتاجين، مثل كبار السن والأطفال والمعوقين. كما قدم التقرير اقتراحاً أيضاً بتوفير الرعاية الصحية على أسس أكثر شمولية، وليس للمعدمين فقط. وكان المبرر وراء ذلك هو أن المرض يمكن أن يمثل ضرراً عاماً، وبالتالي يتطلب تدخل جهود الدولة لمساعدة جميع المرضى.

وعلى الرغم من ذلك، فلم يمتد دعم الدولة والحلول الإدارية لمعالجة مشكلة الفقر إلى حد تقديم مزايا التأمين. ومع وجود معتقداتها المتناغمة مع معتقدات المنظمة الخيرية، ظلت ويب مقتنعة بأن أي نظام يقدم مزايا مالية إلى غير العاملين، يخلق حافزاً لدى «المتمارض». وبناءً عليه، قاومت ويب بشدة تقديم التأمين ضد المرض في العام 1911م، في حين ظلت تدافع بشدة عن توفير الرعاية الصحية العامة على أساس الحاجة.

وخلال الحرب العالمية الأولى، اشتركت ويب بشكل كبير في عمل اللجنة، كجزء من الاقتراح الذي قدمته بشأن الحد الأدنى للأجور، وهو أحد الأمور التي شددت عليها من قبل بالنسبة إلى عمل المرأة في الحياكة، وذلك بعد انتهائها من أبحاثها في ثمانينيات القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من ذلك، فلم تتم مناقشة هذا المقترح الذي قدمته. وإضافة إلى ذلك، فقد كانت الحرب ذاتها، والوهن الذي أصابها، سبباً بإضعاف إيمانها بقيمة ما تقدمه من أعمال، وفي جدوى حلولها المقدمة للمشاكل الاجتماعية. كما ظهر المزيد من التحديات أمام قدرتها على تقديم وصفاتها الاجتماعية لملاءمة الظروف المرتبطة بارتفاع نسبة البطالة في العشرينيات والثلاثينيات. وتطلع الثنائي ويب

إلى خارج بريطانيا نحو مجتمع يمكنه أن يعكس اعتقادهم في الحلول البيروقراطية بصورة مرضية، تلك الحلول كانت قد تمكنت على ما يبدو من حل مشكلة الفقر من قبل، ولكنها لم تبرز التدهور في الجانب الأخلاقي الذي اعتقدا أنهما يولويانه اهتمامهما. ولهذا السبب اتجها نحو الاتحاد السوفياتي. وبعد زيارة للاتحاد السوفياتي في الثلاثينيات، عندما كانا في السبعين من عمريهما، تبنيا النظام السوفياتي نظراً إلى كونه نظاماً يتوقع له مستقبل مرموق بالنسبة إلى المجتمع. وقد التزما بهذه الرؤية حتى بعد ظهور همجية هذا النظام. لقد نظرا إلى صورة الاتحاد السوفياتي كنموذج فعّال لما كانا يشجعانه لعقودٍ مضت، وبالتالي كمبرر لعمل حياتهما في هذا الصدد. وتوفيت بيتريس ويب في العام 1943م.

انظر أيضاً: تشارلز بوث، هيلين بوزانكيت.

أهم الأعمال:

The Co-operative Movement in Great Britain (as Beatrice Potter). London: .S. Sonnenschein, 1895

.Industrial Democracy , 1897. With Sidney Webb

English Local Government , 11 vols. 1898-1929. With Sidney Webb. Lon- .don: F. Cass, 1963

A Constitution for the Socialist Commonwealth of Great Britain 1920 . .With Sidney Webb

The Decay of Capitalist Civilization . With Sidney Webb. London: George .Allen and Unwin, 1923

.My Apprenticeship . London: Longmans, Green & co., 1926

Methods of Social Study . With Sidney Webb. London: Longmans, Green .& co., 1932

.Soviet Communism , 1935. With Sidney Webb

Our Partnership . Ed. B. Drake and M. Cole. London: Longmans, Green & .co., 1948

The Minority Report of the Poor Low Commission . With Sidney Webb. .London: Stationery Office, 1909

قراءات إضافية:

J. Davis. Webb, (Martha) Beatrice (1858-1943) and Sidney James Webb (1859-1947)}. In H. C. G. Matthew and B. Harrison, eds. Oxford Diction- .ary of National Biography . Oxford: Oxford University Press, 2004

Jane Lewis. Beatrice Webb, 1858-1943}. In Women and Social Action in .Victorian and Edwardian England . Cheltenham: Edward Elgar, 1991